أعلام العرب

ساطع الحصري

بقلم

الدكتور محمد عبد الرحمن برج

الهيئة العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربى)
١٩٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

المقدمة

فقدت الأمة العربية فى الرابع والعشرين من ديسمبر الماضى (١٩٦٨) علما من أبرز أعلامها ، وجنديا من أبسل جنودها ٠٠ فقدته فى وقت كانت أشد ما تكون فى حاجة اليه وهى تخوض معركة المصير العربى ، وتمر بأحسم أيام تاريخها ٠

مات ساطع الحصرى عن ثمان وثمانين عاما ، قضاها كلها فى الكفاح والنضال من أجل قضية القومية العربية ، لقد جند قلمه من أجلها ، ووضع جهده كله فى خدمتها ٠

عاش ساطع من أجل قضية الوحدة العربية ، ونذر نفسه فداء لها ، وآمن بحتمية هذه الوحدة طال الزمن تحقيقها أو قصر ٠٠ وكان يؤمن بأن فكرة القومية العربية تعنى الايمان بوحدة هذه الأمة ، فنجده كثير ما يكتب : على كل واحد منا أن يؤمن أصدق الايمان بأن الوطن العربى يمتد من المحلط الأطلسى الى الخليج العربى ، ويشمل جميع البلاد التى يتكلم أهلها اللغة العربية ، وأما الدول والدويلات القائمة بين هذه الدول فانها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التى قامت بين الدول العربية ٠

ويؤمن ساطع بأن أخطر ما تتعرض له القوميات هي أن تكون انفعالا عاطفيا ، وانما ينبغي أن تكون حركة القومية لها أسسها العلمية ، وأن تتولى أجيال المفكرين الايمان بها ، والدفاع عنها ·· وفي ايمانه بذلك كان سعيه الى انشاء المعهد العالى للدراسات العربية ، ولم يكن هذا المعهد بالنسبة لساطع معهد تعليم يخرج طلابا يحملون شهادات كأى معهد تعليمى آخر ·· ذلك كان أبعد الأمور عن ذهن ساطع ، وانما كان يرغب أن يكون معهدا تمر عليه أجيال وأجيال من المفكرين والكتاب العرب الذين يعطون لأمتهم جهدهم وفكرهم ·

وكان ساطع ثوريا فى فكره وفي عمله من أجل أمته ، فلم يكن يؤمن بحلول جزئية لمشاكل القومية ، بل كان ثوريا فى ايمانه بالقضية التى انبرى يدافع عنها ، كان مع كل حزب عربى يخدم قضية الوحدة العربية عن اخلاص ويقين ، وضد كل حزب يستخدم الوحدة العربية مناورة سياسية لخدمة مصالح ذاتية ·· وكان متفائلا التفاؤل كله فى مستقبل الأمة العربية ، لقد آمن بأن القومية العربية حركة ثورية وأنها في ثوريتها لابد أن تصطدم بردود فعل من الخارج والداخل ، وأن التحصن من ردود الفعل هو أن نعالجها بثورية لاتستسلم لفشل تجربة من التجارب ·· كان ذلك ما أحس به يوم حدث الانفصال بين سورية ومصر ، فانبرى فى غير هوادة يوضح أنه لا ينبغى لهذا الانفصال أن يجعلنا نكفر بالوحدة وحتميتها وأن الوحدة بين الشقيقتين العربيتين كانت تجربة على طريق النضال منها نستفيد ، وعنها نتعلم ونأخذ الدروس ·

وكان هذا هو نفس احساسه ازاء نكسة الخامس من يونيو (حزيران) ١٩٦٧ · لقد هزت هذه النكسة ساطع من الاعماق ، لكنها لم تبلغ به حد اليأس ، ولم تزعزع ثقته فى نصر قريب ··

لقد كان يؤمن أنه ما من أمة وصلت الى الكمال الذى تنشده الا بعد أن اجتازت عقبات كثيرة ، واضطرت الى تضحيات عديدة ، كانت عقيدته هو أن الاستعداد التام ، مصحوبا بروح التضحية الحقيقية ومدعوما بالأمل الذى لا يقهر ، هو أهم ما يترتب علينا ، وما يجب أن يلتزم به أبناء هذه الامة العربية ٠

ولم يؤمن ساطع بأن للانسان سنا ينبغيعنده أو بعده أن يخلد الى الراحة ، فلقد رأيت وأنا أبحث فى أوراقه الخاصة عند اعدادى لهـذا البحث ، أن ساطعا قد وضع لنفسـه خطة فى عام ١٩٦٩ هى أن يصدر ثلاثة كتب عن مذكراته فى تركيا ثم فى سورية ومصر ٠ وشاء الله الا يشهد ساطع هذا العام وأن تفيض روحه قبل أن يحل ٠

عاش ساطع الحصرى مخلصا لقضيته يبحث فى كل ما يقرأ عما يمكن أن يعود بالفائدة على القضية العربية ويخدمها ، يؤرخ لابن خلدون باعتباره رائدا من رواد الفكر العربى بعد أن يرى قلة الابحاث والدراسات المنشورة عنه باللغة العربية ٠٠ وأهم ما يركز سـاطع حوله فى هذه الدراسة الواسعة التى قام بها لابن خلدون أن ينفى عنه ماحاول البعض الصاقه بهذا العلامة الكبير من أنه نعت العرب بأوصاف تحقر من شأنهم ، وأنه كان من الكافرين بالعروبة ٠ فينبرى ساطع للرد على ذلك موضحا الخطأ فى هذا على نحو ما سنضعه بين يدى القارىء الكريم حين يجىء موضعه من الحديث ٠

ويهتم بالتاريخ بالنسبة لمدى ما يمكن أن يسديه لخدمة القضية العربية ٠٠ ومن القول المأثور عن ساطع « اذا كانت اللغة هى الروح والحياة فالتاريخ هو الوعى والشعور » ٠

والتعليم عنده ينبغى أن يكون هدفه الاول والاساسى تربية الاجيال العربية تربية قومية ، ويصطدم ساطع فى سبيل تحقيق

ذلك بالعقبات الكثيرة فى العراق وفى سورية ، وحين تتغلب عليه العناصر الرجعية فى العراق وتبعده عن الاشراف على التربية والتعليم الى وظيفة مدير الآثار يتجه بالعمل فى هذه الناحية الى المدى الذى يمكن أن يخدم الفكرة القومية ، فيهتم بالكشف عن الآثار التى توضح ماضى العرب وحضارتهم العريقة ·

وتناول شخصية ساطع فى بحث واحد من أصعب الأمور على الكاتب ، فكل جانب من جوانب تلك الشخصية كاف وحده أن يتناول فى كتب بل فى مجلدات ·· وكل ما حاولته فى هذا البحث هو أن أكشف عن بعض نواحى العظمة فى شخصية ساطع ·· وكل أملى أن يتبع هذا البحث بأبحاث أخرى فى شخصية هذا الفيلسوف والعلامة الكبير ·· بهذا يكون الكتاب والمثقفون العرب قد أدوا بعض ما عليهم من دين لأمتهم ، لا أقول تجاه ساطع ، فلم يكن الحصرى سوى أحد جنود أمته ·· وتكريم ذكرى ساطع هو العمل المخلص الجاد من أجل الامة العربية مثلما فعل ··

سمو ما بعده سمو فى كل نواحى حياته ومراحلها ·

يعين فى عمل من الاعمال أو فى وظيفة من الوظائف ، وهو يضع لهذه الوظيفة مسئولياتها التى ينبغى أن يقوم بها ، فاذا ما واجهته المشاكل قاوم وحاول التغلب عليها ، فاذا أعيته الحيلة بادر الى الاستقالة لينفض عن نفسه أمام الله وأمام أمته مسئولياتها

كان ذلك منهجه من أصغر وظيفة الى أكبرها ، ومن أول منصب الى آخره ·

فحين تخرج ساطع من المدرسة الملكية فى القسطنطينية عام ١٩٠٠ ، وعين مدرسا للعلوم ووجد الكتب التى يستخدمها المدرسون فى تدريسهم مشحونة بالاغلاط والاخطاء ، حاول أن يقنع وزارة

المعارف العثمانية بأن تغير في مناهجها وخططها التعليمية ، فلما لم تصغ الى نصحه آثر الاستقالة .. وفعل ساطع نفس الشيء في آخر عمل له حين دفعه حرصه الشديد على معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية الى تقديم العديد من المقترحات والاصلاحات الخاصة به ، فلما لم يؤخذ بما اقترحه بادر الى الاسـتقالة ، وآثر المعيشة في غرفة متواضعة في احد فنادق القاهرة ، يعيش على دخل ضئيل من موارد كتبه ، ويرفض كل العروض التي قدمت لمساعدته مادية وأدبية .

كانت العروبة عنده عقيدة وايمانا ، ويكفي أن أشير في هذه المقدمة الى حديثه عند انتصار الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٢٥ على المملكة الهاشمية في الحجاز ، ونزعه لملك الحجاز من الملك حسين ابن علي ، وكان ساطع شديد الارتباط بهذا الملك وبأسرته وبابنه فيصل ، فلقد عمل معه وزيرا للمعارف في سورية ، ثم عمل معه بعد ذلك في العراق حتى توفى الملك فيصل عام ١٩٣٣ م . لكننا نجد ساطعا يؤيد ما قام به الملك عبد العزيز آل سعود ، ويسمو السمو كله ويرتفع الى أعلى مراتب العظمة حين يقول :

« ومع ما أكنه من الاجلال والتعظيم لذكرى الملك حسين بن علي فاني أقرر أن ما قام به الملك عبد العزيز بن سعود ، من ضم للحجاز والعسير ، موافق لمصلحة الأمة العربية .. **أقول ذلك لأني أنظر الى القضايا العربية نظرة مجردة من النوازع الشـخصية . واضعا مصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار** .. لا أقول ياليت (الحسين بن علي) بقي على رأس مملكته حتى ممـاته ، ولا أقول ياليت المملكة التي أسسها بقيت قائمة حتى الآن .. بل انني أقول ان ما تم على يد عبد العزيز بن سـعود كان بمثابة خطوة من الخطوات الفردية للسير في سبيل تحقيق الوحدة العربية .

أرأيت أيها القارىء الكريم مثل هـذا السموا فى الشخصية ومثل هذا الايمان بمثل عليا لا تتأثر بنزعة من النوازع ، أو بعاطفة من العواطف ، أو صلة من الصلات ؟

ولم يحصر ساطع نفسه داخل نطاق ضيق من المعرفة ، فمن دراسة للتاريخ الطبيعي وفنون التحنيط والتشريح وما اليه ، الى دراسة لعلم الطبيعة والهندسة والرياضة،حتى تنبأ له زملاؤه فى المدرسة أنه سيكون أشبه بأرشميدز .. وذلك كله الى جانب دراسة في علم الاجتماع والفلســـــفة والأخلاق وتحقيق في التراث العربى ونبوغ فى الترجمة ودراسة فى اللغة والأدب .

ونحمد الله أن الأمة العربية قد وعت لساطع ما فعل ، وحفظت له ما صنع من أجلها ، وأن مصر التى عاش يخفق قلبه بحبها ، والتى دافع عن وجهها العربى أمام المتجنين عليهـا قد كرمته فى شخص الرئيس عبد الناصر حين منحته جائزة الدولة فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٦٥ عن كتابه (الاقليمية جذورها وبذورها) ، وكرمه الشعب المصرى بعـد وفاته ، فبادر تنظيمه السـياسى الممثل فى الاتحـاد الاشـــتراكى العربى يقيم له حفل تأبين فى الخامس عشر من فبراير ١٩٦٩ ، ويدعو فيه الدكتور لبيب شقير الجامعة العربية الى تخصيص أسبوع لدراسة فكر ساطع .

وتبادر أجهزة الاعلام فى مصر الى الحديث عن تخليد ذكراه ، وتبدأ الهيئات العلمية فى عقد الندوات التى تدعو فيها المثقفين الى دراسة عميقة واعية لفكر ساطع كأحد متطلبات المعركة في ظروفنا الراهنة .

وليكن لنا فيما كتب ساطع زادا نتزود به على الطريق ، ودافعا لما نحن مقدمون عليه من نضال قاس مرير ، من أجل حياة حـرة كريمة ، والله الموفق .

المؤلف

الفصل الأول

أسرة ساطع ونشأته الأولى

يكاد يكون الحديث عن أسرة ســاطع ونشأته الأولى من أهم الفصول فى هذا البحث لأنه ليس هناك شىء عن ذلك فى احد الكتب أو المراجع ، واقتضانى البحث عن ذلك الرجــوع الى أوراق المرحوم ساطع الحصرى الخاصة وما حفظه من وثائق ٠

نسب ساطع :

يصر ساطع فى مذكراته ، ويرجو أن يكتب لقبه مشكلا على هذا النحو الحصرى Husri وذلك بعكس ما لقبته به الكثير من دور النشر ٠

يقول ساطع : ولدت فى صــــنعاء من والدين عربيين حلبيين فى تاريخ يصادف ٥ من آب (أغسطس عام ١٨٨٠ ٠

ووالدى هو : محمد هلال بن السيد مصطفى الحصرى

ووالدتى هى : فاطمة بنت عبد الرحمن الحنيفى

ووالدة والدتى : جميلة بنت أسعد الجابرى

كلهم ينتسبون الى أسر عربية حلبية .

لقد انجب والدى خمسة عشر ولدا : ثمانية بنين وسبع بنات العشرة الاولى من أمي والخمسة الأخيرة من شركسيات .. ولقد كنت السادس من السلسلة الأولى ، وأقدم صورة تظهرنى مع والدى واخواتى تعود الى (١٨٨٥ ـ ١٨٨٦) وهى مأخوذة فى طرابلس الغرب وهى تظهر والدى وهو يرتدى الجبة والعمامة ، وكان لى فى ذلك خمس سنوات ، وكانت قد توفت احدى اخواتى واحد اخوتى ، وأصبحت الرابع بين أفراد الأسرة ، وقد ظهر فى الصورة التى أشير اليها ولدان لأبى هما : بشير مجدى وبديع نورى ، وبنتان : بديعة ولطفية .

وكان فى بيتنا ثلاث عبدات كن يتنقلن معنا على الدوام .. وكان ينضم اليهن بعض الخدم والخادمات فى كل مدينة نحل فيها . وغنى عن البيان أن كثرة أفراد العائلة ـ علاوة على كثرة تنقلاتها بحكم ظروف عمل والدى . كانت من العوامل التى زادت من ثروة الذكريات التى لازمت حياة طفولتى .

كان والدى يقول : ان اجداده انتقلوا من الحجاز الى حلب فى القرن التاسع للهجرة ، وكان يحتفظ بشجرة نسب تشهد على ذلك، وهذه الشجرة من جملة الاوراق التى وصلت الى ، على الرغم من الحرائق التى أتلفت أوراق والدى ومخطوطاته ومؤلفاته وديوانه . وهى (شجرة النسبة هذه) يبلغ طولها ٤٨٧ سم والقسم المكتوب منها ٢٧٠ سم . ويعود أصلها الى القرن السابع للهجرة وقد جاء فيها :

ـ صحت هذه النسبة الشريفة وقوبلت بنسب الشريف محمد

ابن عمر ، وشهد بصحتها القاضى عبد الوهاب الحسينى وأثبت فى مقابلة نسبه بخطه فى دار الرصاصى فى شهر ذى الحجة سنة خمس وستمائة . وفيها شهادة بصحة النسخ تنص على مايلى :

ـ نسخت هذه النسبة المباركة وشهد بصحتها وقوبلت عليه الشريف أحمد فرج البكرى الحاكم بالمدينة المنورة ، وشهد بصحتها عيسى بن سيجوره البكرى ، وسنان بن ابراهيم الحسينى ، وعبد الرحمن المحاصر يومئذ فى المدينة ، والسيد شريف محمد ابراهيم الشريف ، وعبيد بن محمد الشريف ، والسيد الشريف أحمد بن محمد الوتارى ، فيثبت هذا النسب الشريف بشهادة هؤلاء السادة الاشراف ..

وبعد ذلك تنص الشجرة على نقل هذه النسبة الشريفة الى حلب على يد السيد الشريف أحمد بن السيد ادريس الحسينى فى رمضان سنة سبع وسبعين وثمانمائة .

ثم يقول ساطع عن شجرة النسب هذه : « أنا أعرف أن أمثال هذه الشجرات لا يمكن أن تعتبر من الدلائل القاطعة على اتصال النسب بالامام على ومع هذا لا أرى ما يستوجب الشك فى صحة ما جاء فيها عن أن أجداد والدى كانوا فى الحجاز ، وانتقلوا منها الى حلب ، على كل حال رأيت أن أذكرها هنا نظرا لاعتقاد والدى فيها » .

القسم الأول من حياة ساطع :

يقول ساطع فى أوراقه : جاء فى ترجمة (حال والدى) الرسمية المحفوظة فى سجلات الدولة العثمانية أنه درس العلوم العربية والشرعية فى لمدرسة الاسماعيلية بحلب ، ثم أتم دراسته فى الازهر الشريف بالقاهرة ، ونال «الاجازة» هناك على يد الشيخ محسن

الدمنهورى والشيخ حسن العدوى الحمزاوى (١) ، وهما من شيوخ الازهر المشهورين ومن المؤلفين المعروفين .

وعاد والد ساطع الى القسطنطينية بعد أن تم دراسته فى الازهر حيث عمل فى سلك القضاء الشرعى بعد أن تقدم للامتحان أمام الهيئة المنوط بها تعيين القضاة الشرعيين فى بلاد الدولة العثمانية ، والتى كانت تعرف باسم (مجلس انتخاب حكام الشرع). وجاء أول تعيينه لوظيفة القاضى الشرعى فى دير الزور ثم حماة ، وكانت تابعة لولاية حلب فى ذلك الحين، وكان نظام القضاء الشرعى فى ذلك الوقت أن يعين القاضى لمدة سنتين فى مكان ، فاذا ما انتهت هذه المدة فى المكان الذى عين فيه عاد الى القسطنطينية ينتظر تعيينه فى مكان آخر .

وعندما أتم والد ساطع مدة السنتين فى حماة وعاد الى القسطنطينية لم يطلب تعيينه قاضيا شرعيا فى مكان آخر من أيالات الدولة العثمانية ، وانما أراد العمل فى المحاكم التى عرفت فى ذلك الحين بالنظامية ، وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تنشىء هذه المحاكم فى مراكز الولايات العثمانية ، وجعلتها محاكم مستقلة عن المحاكم الشرعية ، وعهدت الى هذه المحاكم النظامية بالأمور المدنية ،

---

(١) عاش الشيخ حسن العدوى الحمزاوى مابين سنتى ١٢٢١ – ١٣٠٣ هـ (١٨٠٦ – ١٨٨٦ م) وهو من قرية عدوة من قرى مديرية المنيا بمصر ، وكان من أكبر فقهاء المالكية فى مصر ، وكان يفخر كل من يتتلمذ عليه ، وله العديد من المؤلفات منها (النور السارى من فيض صحيح البخارى) يقع فى خمسة مجلدات و (النفحات الشاذلية) و (ارشاد المريد فى خلاصة علم التوحيد) .

وكان له مركز كبير وكان الحكام فى مصر يكرمونه ويقبلون شفاعته وبنى المسجد المعروف باسمه بعطفة الشنوانى قرب مسجد سيدنا الحسين .

ارجع الى الخطط التوفيقية جـ ١٤ ص ٣٧ ، الاعلام فى قاموس التراجم لاشهر الرجال والنساء : خير الدين الزركلى جـ ٢ ص ٢١٤ .

وتقدم والد ساطع الى الامتحان الذى عقدته وزارة العدل العثمانية فى القسطنطينية وتولى أمر هذا الامتحان فى هذه الوزارة لجنة خاصة عرفت بمجلس انتخاب موظفى العدلية ٠

ونجح محمد هلال الحصرى (والد ساطع) فى هذا الامتحان الذى أجرى لاختيار القضاة المدنيين فى الدولة العثمانية ، وعين رئيسا لمحكمة الاستئناف فى ولاية اليمن ، وسافر على الفور للقيام بأعباء وظيفته فى صنعاء اليمن وكان ذلك فى أواخر سنة ١٨٧٩ ، وهناك فى صنعاء ولد ساطع فى الخامس من أغسطس (آب) عام ١٨٨٠ ٠

ولم تطل مدة بقاء والد ساطع الحصرى فى اليمن أكثر من سنتين ، لأن (وزارة العدلية) العثمانية قررت الغاء المحاكم النظامية فيها (فى اليمن) ، وغادر محمد هلال الحصرى اليمن وعاد الى عاصمة الدولة العثمانية (القسطنطينية) فى أوائل سجة ١٨٨١ ومعه ساطع قبل أن يتم السنة الاولى من حياته ٠

تنقلاته مع والده وأسرته :

وبعد عودة والد ساطع الى القسطنطينية عين رئيسا لمحكمة الاستئناف (أو كما كانت تسمى دائرة الجزاء) فى ولايات : اضنه، انقره ، طرابلس الغرب ٠ ثم عاد ساطع الى اليمن للمرة الثانية مع والده عندما عاد اليها للعمل فى القضاء بها ، بعد أن أعيد اليها نظام المحاكم النظامية ، ثم الى قونيا ٠ وبعدها نقل والده الى طرابلس الغرب (للمرة الثانية) وكان ذلك سنة ١٨٩٢ ميلادية ٠

وكان المتبع أنه عندما ينقل والد ساطع من ولاية الى أخرى كان يسافر الى عاصمة الدولة العثمانية ويبقى فيها مدة تتراوح بين ثلاثة أشهر وسنة قبل أن يسافر الى عمله الجديد فى الولاية المنقول اليها ٠

ولقد عاد والد ساطع الى القسطنطينية قبل سفره الى طرابلس الغرب للمرة الثانية ، ليترك ساطع بهـــا ليتم تعليمه فى القسم المتوسط ، ثم القسم العالى ، وذلك بالمدرسة الملكية الشاهانية ٠

وكانت كثرة تنقلات والد ساطع وهو فى المرحلة الاولى من حياته حائلا دون التحاقه بمدرسة ابتدائية معينة ، ومع هذا تعلم ساطع القراءة والكتابة التركية مع الفرنسية فى البيت من اخوته بوجه خاص ٠

يقول ساطع فى مذكراته : قدر لى أن أتنقل خلال الســـنوات الاثنتى عشرة الاولى من حياتى بين المدن التالية : من استانبول الى أضنه ، من أضنه الى أنقرة ، من أنقرة الى استانبول ، من استانبول الى طرابلس الغرب ، ومن طرابلس الغرب الى اســـتانبول ، من استانبول الى صنعاء اليمن ، من صنعاء اليمن الى استانبول ، من استانبول الى قونيا ، من قونيا الى استانبول ، وكان الانتقال بين هذه المدن المتباعدة يتم فى ذلك التاريخ بوسائل متنوعة وشاقة : الجمال ، البغال ، عربات الخيول ، البواخر ، السكك الحديدية ٠٠ ولقد تركت هذه الرحلات التى تمت خلال طفولتى فى نفسى أثرا من الانطباعات العميقة ، والذكريات المتنوعة ٠

دراسته فى المدرسة الملكية باستانبول :

درس ساطع فى هذه المدرسة مدة سبع سنوات أربـــع منها بالتعليم المتوسط (الاعدادى) والثلاث الاخيرة بالقسم العالى ، وبقى طوال هذه المدة بالقسطنطينية لم يغـــادرها الا مرتين لمدة قصيرة ، وذلك خـــلال عطلة الصيف حين ذهب الى طرابلس الغرب لزيارة والده ، والى حمص وبنى غازى لزيارة أخيه الاكبر (بشير مجدى) الذى كان قد تولى وظيفة المدعى العام فى المدينتين المذكورتين ٠

وبقى ساطع خلال السنوات الثلاث الاولى التى أمضاها فى المدرسة الملكية بالقسم الداخلى ، وكان معه أخوه (بديع نورى) الذى كان يكبره بأربع سنوات ، والذى كان فى القسم العالى منها٠٠ وبعد مضى السنوات الثلاث الاولى عاد والده الى القسطنطينية ليقيم فيها فترك ساطع القسم الداخلى ، وأقام مع والده ٠

ولقد أبدى ساطع خلال دراسته الاعدادية ولعا بالعلوم الرياضية ، وأظهر مقدرة فائقة على حل المسائل العويصة ، ولم يكتف بما كان يدرس له من دروس الرياضة فحصل على مذكرات الرياضة التى كانت تدرس فى مدرسة الهندسة وفى مدرسة أركان الحرب ، وولع بعد ذلك بوجه خاص بالهندسة التحليلية ، حتى ان زملاءه فى المدرسة لقبوه بلقب « ارشميدز » ٠

ووجد ساطع فى نفسه ميلا الى دراسة العلوم الطبيعية وأخذ يقرأ الكتب المؤلفة باللغة الفرنسية فى هذه العلوم ، ووضع لنفسه أمنية عاش على أمل أن تتحقق ، وهى أن يصبح عالما فى هذه العلوم، ومضى ساطع فى دراسته بالقسم العالى من المدرسة الملكية الشاهانية يدرس العلوم الادارية والسياسية ، وعندما يعود الى بيته فى المساء ينصرف الى دراسة العلوم الطبيعية ، بل وصل به الاهتمام والنبوغ فى هذه العلوم أن نشر عدة مقالات بعضها اسم مستعار وبعضها باسمه الصريح فى نقد كتب العلوم الطبيعية المقررة للمدارس الثانوية ، والتى كانت تسمى فى ذلك الحين بالاعدادية ٠

أعماله بعد تخرجه من المدرسة الملكية (من ١٩٠٠م ــ ١٩١٨م) :

تخرج ساطع من المدرسة الملكية عام ١٩٠٠ م أى فى بداية القرن العشرين فلم يشأ أن يشتغل بالوظائف الادارية التى تخولها له شهادته ، بل دفعه حبه للعلوم الطبيعية أن قدم طلبا لوزارة

المعارف العثمانية ، لتعيينه مدرسا للعلوم الطبيعية فى المدارس الثانوية ، التى كانت تعرف بالاعدادية على نحو ما سبق القول ، وتم بالفعل تعيينه فى ثانوية ولاية يانيا (Joanina) وكانت تقع هذه الولاية فى أقصى الغرب من البلاد العثمانية الاوربية ، وتقع يانيا على شمال بحر اليونان ، وجنوب بحر الادرياتيك ، وعندها تمر الحدود بين البانيا واليونان ، وبقى ساطع فيها خمس سنوات ، ولقد تمكن خلال وجوده بها وبفضل سهولة اتصالها بالمدن الاوربية أن يحصل على كثير من الكتب الفرنسية التى نشرت فى باريس ، وأن يشترك فى عدة مجلات علمية ، وأن يحصل على الادوات والمواد التى استطاع بها تحنيط الطيور والحيوانات وجمع الحشرات ، وعمل التجارب على زراعة النباتات المختلفة ، وأن يتسع أفقه ومداركه بفضل توسعه الكبير فى دراسة العلوم الطبيعية .

ولم يقتصر ما كان يدرسه ساطع فى مدرسة يانيا هذه على العلوم الطبيعية وحدها ، فلم يكن لدى وزارة المعارف العثمانية اعتراف بفكرة التخصص فى المواد ، كذلك عهد اليه المسئولون عن التعليم فى يانيا – نظرا لتخرجه من المدرسة الملكية – القيام بتدريس المعلومات القانونية التى كانت تدرس للتلاميذ وعلم الثروة (وهو الاسم الذى كان يطلقه فى ذلك الحين على علم الاقتصاد) والتاريخ .

واستمر ساطع على هذا النحو سنتين ثم اقتصر عمله بعد ذلك ولمدة ثلاث سنوات أخرى على تدريس علم التاريخ الطبيعى ، وألف ساطع فى ذلك الحين عدة كتب مدرسية ، وهذه الكتب هى معلومات زراعية ، دروس الاحياء ، علم الحيوان ، علم النبات ، التطبيقات الزراعية .

وقد قررت وزارة المعارف العثمانية تدريس الكتابين الأولين للمدارس الابتدائية كما قررت تدريس الكتابين الذين أصدرهما ساطع تحت اسم (دروس الاحياء ، وعلم الحيوان) على طلبة المدارس

الثانوية ، وأخذ ساطع يكتب العديد من المقالات العلمية التى أخذت الصحف فى القسطنطينية تنشرها ، وكان يستهدف منها تبسيط العلوم وتحبيب الناس فيها ، وجاء بعض هذه المقالات يصف مناظر الطبيعة ، وبعضها فى عرض الاكتشـافات والاختراعات العلمية ، وفى نشأة علم الكيمياء ، الاشعة المجهـولة ، التلغراف اللاسلكى ، العالم القطبى ، لمعان البحر ، مناظر الغروب ٠

على أن ماأخذ ساطع يكتبه بعد ذلك سرعان ماأصطدم بعراقيل كثيرة ناجحة عن اشتداد ظروف الاستبداد التى شـهدتها الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد ٠

تولى السلطان عبد الحميد الحـكم فى الدولة العثمانية فى أغسطس عام ١٨٧٦ وقد جاء به مدحت باشا الى الحـكم بعد عزله للسلطـان عبد العزيز وتولية السلطان مراد الخـامس الذى كان مضطربا فى قواه العقلية فعزله (مدحت باشا) وكانت قد تجمعت فى يده السلطة الفعلية فى البـلاد منذ توليه منصب الوزارة العظمى (رئيس الوزراء) فى سنة ١٨٧٣ على عهد السلطان عبد العزيز وكان (مدحت باشا) قائدا لحركة تركيا الفتاة الاولى ٠٠ وقد تكونت هذه الحركة من العناصر الوطنية التى رأت أنه لا بد من فرض الاصلاح فرضا على السلاطين العثمانيين الذين لا يجب أن يترك مصير حركة الاصلاح فى أيديهم ، وقد عبرت هذه الحركة عن نفسها فى الادب التركى فكانت الحركة الرومانتيكية ، ومع أن هذه الحركة لم تكن لها قوة كبيرة ، ولم تترك أثرا بعيدا ، الا أن أهميتها جاءت فيما تضمنته من تعبيرات جديدة فى الفـكر التركى ، كالحرية الفردية والدستور والحياة النيابية(١) ٠

---

(١) ارجع الى كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ تأليف الدكتور أرنست أ . رمزور (جامعة برنستن) ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، وكذلك كتاب الدولة العثمانية «والشرق العربى» تأليف د. محمد أنيس ص ٢٤٨ ٠

جاء (مدحت باشا) بالسلطان عبد الحميد على أساس قبوله لفكرة الحكم الدستورى ، فأعلن الدستور (المشروطية) فى ٢٣ من أغسطس عام ١٨٧٦ ، لكن سرعان ما اتضح (لمدحت باشا) أنه أساء الاختيار فاستبد عبد الحميد بالحكم وعزل مدحت ، وأجل البرلمان وعطل الدستور ، وأخذ السلطان عبد الحميد يحكم البلاد حكما مطلقا مستبدا ، ويقاوم الاتجاهات التحررية كافة فى الولايات جميعها عن طريقة الجواسيس والعملاء متخذا شعار الوحدة الاسلامية شعارا لاستبداده ·

وكشأن كل حكم مستبد أوجد السلطان عبد الحميد نظام الرقابة على المطبوعات ، وبدأت كل مقالات ساطع وكتبه تعرض على الرقيب قبل نشرها ، وأخذ أعضاء مكتب الرقيب يخشون من أن تكون هناك مقاصد خفية من هذه العبارة أو تلك ، فبدأ الحذف لهذه الكلمة والتبديل لهذه العبارة ، مما جعلت المقالات التى يكتبها ساطع تظهر ـ على حد قوله · بصورة مضحكة مخلة بالمعنى المطلوب وأحيانا تعكس هذا المعنى تماما · وتمشيا مع تعليمات الرقابة ، تشددت وزارة المعارف العثمانية فى ضرورة تمسك المدرسين فى المدارس باتباع ما هو مكتوب فى الكتب المدرسية ، وعدم الخروج عليه ·· وكانت المادة التى احتوتها الكتب المدرسية ـ كما لاحظ ساطع ـ محشوة بالأخطاء العلمية ومليئة بنظريات ثبت بطلانها بدلائل علمية حاسمة ، ومن ثم شعر ساطع بصعوبة العمل فى سلك التدريس سنة بعد أخرى · وازاء ذلك قرر أن يجرب العمل فى الحياة الادارية ، فغادر يانيا الى القسطنطينية بعد أن أهدى للمدرسة التى كان يعمل بها متحف التاريخ الطبيعى الذى كان قد كونه طوال السنوات الخمس التى قضاها بها ·

رغب ساطع أن يعمل فى مقدونيا أو كما كانت تسمى بالولايات الثلاث اشارة الى (سالونيك salonika ، موناستير

Monastir ، قوصوه Kosov) ، وكانت مساوى العهد الحميدى قد اشتدت فى جميع الولايات العثمانية ، باستثناء هذه الولايات ـ على حد قول ساطع ـ نظرا لما تقرر لها من نظام دولى خاص .

وتفصيل ذلك أن مقدونيا شهدت على عهد السلطان عبد الحميد اضطرابات سببها تحرك العناصر غير المسلحة بها لتحرير مقدونيا من حكم الترك ، وتكونت جمعيات سرية فى سالونيك فى نوفمبر من عام ١٨٩٣ ، كان شعارها مقدونيا للمقدونيين . كما تكونت فى صوفيا جمعية ثورية طالبت بضم كل مقدونيا لبلغاريا، كذلك تحرك اليونانيون يطالبون بضمها الى بلادهم الأمر الذى أدى الى قيام الحرب بين تركيا واليونان فى سنة ١٨٩٧ : والتى انتهت بهزيمة اليونان ، ونجم عن ذلك كله حالة مضطربة فى مقدونيا ، مما دعا سفيرا روسيا والامبراطورية النمسوية المجرية الى تقديم مذكرة مشتركة فى الحادى والعشرين من فبراير سنة ١٩٠٣ يطالبان فيها بتعيين مفتش عام للولايات المقدونية الثلاث ، وأن تنظم قوات الدرك (الجندرمة) فيها بمساعدة ضباط أجانب ضمانا لحفظ الامن فيها . ونزل السلطان عبد الحميد على رغبة هاتين الدولتين ، ثم تلا ذلك أن قدمت حكومتا روسيا والامبراطورية النمسوية الجزء الثانى من مشروع الاصلاح المقترح لمقدونيا والذى عرف ببرنامج مورستيج Mursteg ، وقبله السلطان العثمانى كذلك حيث تقرر تعيين مستشارين روس ونمسويين للعمل مع (حسين حلمى باشا) المفتش العام العثمانى ، وعهد الى جنرال ايطالى مهمة اعادة تنظيم قوات الشرطة (الجندرمة) يعاونه مفتشون فرنسيون ، انجليز ونمسويون ، وروس وايطاليون .

أصبح الوضع فى مقدونيا على هذا النحو أحسن من غيره من ولايات الدولة العثمانية التى استشرى فيها الفساد ، ومساوى الحكم العثمانى التى عمت كل أنحاء الولايات على عهد السلطان

عبد الحميد .. فالمفتش العثمانى من حقه أن يتصرف فى أمور مقدونيا دون أن يراجع الوزارة القائمة فى عاصمة الدولة العثمانية، والهيئة الدولية فى مقدونيا مكلفة بتنظيم الامور فيها ، ومستوى التعليم فيها (مقدونيا) أرقى من بقية الولايات العثمانية ، لأنها أكثر اتصالا بالعالم الاوربى ، وكل ذلك جعل ساطع الحصرى يرغب فى الخدمة فيها انتظارا الى تخلص الدولة العثمانية من مساوى الادارة الحميدية .

وكما سبق القول رغب ساطع أن يجرب العمل فى الحياة الادارية فغادر يانيا الى القسطنطينية ، حيث قدم طلبا الى وزارة الداخلية ، راغبا تعيينه فى مقدونيا ، وتحققت له رغبته بتعيينه « قائمقام » فى رادويشته التابعة الى ولاية قوصوه احدى ولايات مقدونيا . ولما كانت هذه المنطقة قريبة من الحدود البلغارية فقد شهدت الكثير من نشاط العصابات البلغارية .. وبقى بها ساطع مدة سنتين انجز خلالها الكثير من الاعمال الاصلاحية ثم نقل الى «قائمقامية» فلورينا التابعة الى ولاية موناستير من الولايات المقدونية الثلاث على نحو ما سبق ذكره(١) .

وحين وصل ساطع الى مقدونيا ليعمل فيها كانت (مقدونيا) فى ذلك الحين معقل الضباط الثائرين فى الجيش الثالث العثمانى .. فلقد ولد مصطفى كمال (اتاتورك) فى سالونيك ، وتخرج من كلية أركان الحرب فى يناير من عام ١٩٠٥ حيث عهد اليه بمنصب عسكرى فى دمشق وبدأ مصطفى كمال يجمع العناصر الساخطة على عبد الحميد ، وألف منها فى اكتوبر من عام ١٩٠٦ جمعية سماها

---

(١) مما تجدد الاشارة اليه ان مدينة رادوبشتة أصبحت بعد الحرب البلقانية من اجزاء يوغسلافيا . أما مدينة فلورينا فأصبحت من أجزاء دولة اليونان . أما موناستير فأصبحت من أجزاء يوغسلافيا وأصبحت تعرف بيطوليا .

الوطن .. وعندما نقل مصطفى كمال الى سالونيك حدث اتصال بينه وبين الجمعية السرية فيها فى أوائل عام ١٩٠٧ واتفقا على العمل المشترك ، ووضعا دستورا موحدا للحركتين تحت اسم الاتحاد والترقى .

وبدأت حركة الاتحاد والترقى فى الاتصال بالعناصر المناوئة للاستبداد الذى اشتهر به السلطان عبد الحميد ، وكان ممن اتصلت به ساطع الحصرى ، وبرغم أن مهمته كانت تقضى أن يبلغ المسئولين عن هذه العناصر الوطنية بحكم عمله فى الجهاز الادارى للدولة العثمانية ، الا أن ساطعا أيد هذه الحركة الثورية وباركها وعمل بكل جهده لتأييدها .

ثم اتفق على أن تقوم الثورة ضد السلطان عبد الحميد فى ذكرى الاحتفال بعيد جلوسه فى ٢١ من أغسطس عام ١٩٠٨ ولكن حدث ما عجل بالثورة فقد تمت مقابلة بين ادوارد السابع ملك انجلترة وقيصر الروسيا فى ريفال فى ظروف الاتفاق الودي عام ١٩٠٧ لتصفية الخلاف بين الدولتين . وفهم من هذا الوفاق أنه مساومة استعمارية بين الدولتين على حساب الدولة العثمانية ، كما حدثت اضطرابات فى البانيا ضد النمسا ، وفهم ان ذلك سيبرر تدخل النمسا فى البانيا . تحرك الضباط العثمانيون الثائرون لمواجهة الخطر الخارجى على الدولة العثمانية ، وأرسلوا للسلطان عبد الحميد يطالبونه باعادة دستور عام ١٨٧٦ الذى عطله فى عام ١٨٧٨ .. وفى ٢٤ من يوليو عام ١٩٠٨ أعلن السلطان عبد الحميد اعادة الدستور (المشروطية) وألغى الرقابة والجاسوسية . وقوبل اعلان الدستور بابتهاج بالغ وحماسة شديدة فى أنحاء الامبراطورية العثمانية كافة ، وجاءت الجماعات فى فلورنيا الى ساطع مهنئة مباركة ، وأخذ ساطع يلقى فيها الخطب الحماسية الملتهبة ، ونشرت

كلماته فى جريدة الثورة التى صارت تصدر باسم (نير حقيقت) أى شمس الحقيقة ٠

ولم يرغب ساطع أن يمضى قدما فى الحياة السياسية، فعاوده الحنين الى حياة العلم والتعليم والتأليف ، فقدم استقالته من وظيفته، وعاد الى عاصمة الدولة راغبا أن يستفيد من الحرية التى أمل الناس فيها بعد اعلان المشروطية ، لتحقيق مخططه القديم فى نشر نهضة علمية ٠

عمله فى القسطنطينية (١٩٠٨ - ١٩١٨م) :

عندما عاد ساطع الى عاصمة الدولة العثمانية أقدم على الفور فى اصدار مجلة علمية عنوانها أنوار علوم (أى أنوار العلوم) ولكنه سرعان ما عرف أنه كان مخطئا فى اصدار مجلة علمية فى تلك الآونة لأن حماسة الانقلاب السياسى كانت شغل الناس الشاغل ، فلم تجد مجلته العلمية رواجا ، فعدل عن اصدارها ، وصار ينشر مقالاته فى مختلف الصحف والمجلات ، كما تولى التدريس فى عدد من المدارس وألقى الكثير من المحاضرات فى مختلف النوادى والمدارس العالية ٠

لكن أبرز ما قام به ساطع خلال هذه الفترة تلك النهضة العلمية التى شهدتها مدرسة المعلمين فى القسطنطينية ،حين عهد اليه بأمر ادارتها ٠ أعاد ساطع تأسيس هذه المدرسة على أسس جديدة تماما ، دون أن يتقيد بمناهجها القديمة ، أو بهيئتها التعليمية ٠ وأدخل فى مناهجها لأول مرة علم النفس، وفن التربية والتدريس، كما ألحق بها مدرسة يطبق فيها التلاميذ ما يتلقونه من محاضرات ٠

ولم ينحصر نشاطه عند الأخذ بتحسين مستوى دار المعلمين فحسب ، بل تعدى ذلك الى مختلف المدارس القائمة فى البلاد

العثمانية كلها ، فأنشأ مجلة سماها مجلة التدريسات الابتدائية التى كانت أول مجلة تربوية تصدر باللغة التركية ، وكانت تتألف من قسم نظرى وآخر عملى ، وكان ساطع يجمع فيها الكثير من نماذج الدروس • وأخذت وزارة المعارف العثمانية توزع هذه المجلة على جميع المدارس الرسمية الموجودة فى الولايات العثمانية ، كما أنشأ فى دار المعلمين قسما لتخريج مدرسين فيهـــا ، وفى دور المعلمين الاخرى التى أخـذت تنتشر فى مختلف الولايات العثمانية ، ودعا ساطع المعلمين ومديرى التعليم الى عقد اجتماعات ومؤتمرات لمناقشة مختلف أمور التربية والتعليم ، وأحدث بهذه الطريقة انقلابا جذريا وأساسيا فى المدارس الابتدائية •

ثم استقال ساطع من العمل مديرا لدار المعلمين لخلاف بينه وبين وزير المعارف العثمانى ، لـــكنه ظل يواصل العمل فى مجال التربية والتعليم ، فأصدر مجلة خاصة سماها مجلة التربية وأنشأ مدرسة خاصة أسماها المدرسة الحديثة ، وألحق بها روضة للأطفال أسماها عش الاطفال ، كما أنشأ دار المربيات لتخريج مربيات يتولين تربية الاطفال الصغار وطبق فيها أحسن ما وجب من طرق التربية التى نادى بها علماء علم النفس والتربية • وظل يواصل العمل فى هذه السبيل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية •

كان ساطع يؤمن أنه ينبغى للانسان أن يســـافر فى رحلات يدرس فيها نظم التعليم فى البـــلاد الاخرى ، وقام بأولى رحلاته الاستطلاعية الى بلاد أوربا سنة ١٩١٠ حيث زار المدن التـالية : جنيف ، لوزان ، زيورخ ، باريس ، لندن ، بروكسل ، ميونخ ، برلين •• وقام خلال زيارته لهـذه المـدن وعواصم الدول بدراسة أحوال التعليم فيها ، ولا سيما دور المعلمين ، والدراسة فى المراحل الابتدائية وما تطبقه هذه الدول من نظم تعليمية جديرة بأن تحتذى•

وما كاد ساطع يعود من رحلته هذه حتى سافر الى ايطاليا فى العام التـــالى سنة ١٩١١ حيث زار قسم التربية المهنية فى المعرض الدولى الذى أقيم فى تورينو • وسافر فى السنة التالية عام ١٩١٢ الى لاهاى للاشتراك فى المؤتمر الدولى للتربية الاخلاقية الذى انعقد هناك •

وتكررت زيارة ساطع بعد ذلك الى البلاد الاوربية فزار سويسرا وشـــاهد ما يطبق فى الكانتونات الســـويسرية من نظم التربية والتعليم ، ومدى ما تقتبسه من نظم فرنسية وألمـانية وايطالية ، وكان ساطع يتصل خـــلال رحلاته هذه بمشـــاهير رجال التربية والتعليم ، وعندما تأسس معهد جان جاك روسو فى جنيف تعرف ساطع الى أهم مؤسسيه ، وأخذ يحث وزارة المعارف العثمانية على أن توفد البعض من طلابها فى بعثـــات تعليمية للدراسة فى هـــذا المعهد ، نظرا لما يطبقه هذا المعهد من نظم جديدة فى التعليم ، كما دعاه الاستاذ بير بوفيه Piere Bovet المؤسس والمدير الاول لهذا المعهد أن يكون من أعضاء الهيئة الراعية له أو التى تعرف

أما أهم آثار ســـاطع العلمية التى نشرها خلال تلك الفترة فكانت العديد من الكتب العلمية والمقالات ، وكلهـــا كانت باللغة التركية •

وأهم هذه الكتب :

١ ــ فن التربية أصدره فى ثلاثة مجلدات •

٢ ــ علم الأقوام وهى الدروس التى ألقاها فى المدرسة الملكية

٣ ــ لأجل الوطن واسمه بالتركية (وطن ايتشون) •

٤ ــ الأمل والعزيمة. Comitee de Patronage (امين وعزم)

٥ ـ اليابان واليابانيون

٦ ـ تقاريرى

كما أخذ ينشر مقالاته فى جرائد (ملت طنين) (ووقت) ، وفى مجلات العلوم الاقتصادية والاجتماعية ، وفى مجموعة سى ـ اجتهاد ـ ملكية مجموعة سى ـ معلم ـ آتيان ـ دو شونجه (التفكير) ، هذا فضلا عن مقالاته الكثيرة فى المجلات التى أصدرها أو تولى رياسة تحريرها مثل تدريسات ابتدائية ، تربية .

وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى غادر ساطع بلاد الدولة العثمانية ليقيم فى البلاد العربية وهنا تبدأ فترة هامة وحافلة من حياته نتناولها فى الفصول التالية .

الفصل الثانى

ساطع فى البلاد العربية
(فى سورية والعراق)

غادر ساطع أرض الدولة التركية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى الى سورية ، وبقى فيها حتى استيلاء الفرنسيين على دمشق فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٩٢٠ ، بعد الموقعة الشهيرة التى جرت فى اليوم السابق (٢٤ من يوليو) عند ميسلون ٠

وهنا يبرز سؤال نرى من الأهمية مناقشته ٠٠ لماذا غادر ساطع الدولة التركية بصفة نهائية ليقيم فى البلاد العربية عقب الحرب العالمية الأولى ؟

ترتبط الاجابة على هذا السؤال بالدور الذى مرت فيه حركة القومية العربية ، لقد مرت هذه الحركة بدورين : الدور الأول ما بين ١٩٠٨ و ١٩١١ ، وهو دور الوفاق مع الحركة التركية القومية التى كانت موجهة ضد استبداد السلطان عبد الحميد ، وتركت هذه الحركة التركية أثرها على الولايات العربية بصفة خاصة ٠٠ فلقد حمل المفكرون العرب على السلطان عبد الحميد بنفس العنف الذى حمل به الأتراك الأحرار ، وهناك من المؤرخين من يرى أن كتاب

طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبى كان المقصود منه مهاجمته عبد الحميد بالذات ٠

ولقد قوبل اعلان الدستور فى عام ١٩٠٨ بحماسة بالغة عند العرب ، وأقيمت صلاة الشكر فى طرابلس الغرب على سبيل المثال ، أما الدور الثانى للحركة القومية العربية فيبدأ منذ سنة ١٩١٢ ٠٠ حين انفصلت هذه الحركة عن جمعية الاتحاد الترقى وبعد أن تطورت حركة الجامعة العثمانية الى الحركة الطورانية وهى دعوة صريحة الى تفوق الجنسى التركى وطمس معالم القوميات العربية ، وكان لفشل الدولة العثمانية فى الدفاع عن طرابلس أثناء الحرب التركية الايطالية فى سبتمبر سنة ١٩١١ ٠٠ حين أطلق الاسطول الايطالى قذائفه على موانى طرابلس وبرقه ـ أن أحس العرب بضرورة ابراز كيانهم الخاص المتميز بهم ٠ وجاءت هذه الحرب التركية الايطالية بعد أن أخذت الأحداث تتوالى على الدولة العثمانية منذرة نهايتها ، فضمت النمسا ولايتى البوسنة والهرسك واستقلت بلغاريا والجبل الأسود استقلالا تاما ٠ وكانت نتيجة الحربين البلقانيتين الأولى والثانية أن أخذت الراية العثمانية ترتد نحو القسطنطينية ٠

وبدأ التفكير الدينى الاسلامى عند العرب يتحول الى تفكير قومى ٠ وجاءت الأبحاث التى ألقيت فى مؤتمر الطلبة العرب فى باريس سنة ١٩١٣ تتناول تعريف الأمة العربية ٠

ومن هذه الأبحاث ذلك البحث الذى ألقاه عبد الغنى العريسى لتعريف الأمة العربية حيث قال :

هل للعرب حق جماعة ـ أى أمة ؟ ان الجماعات فى نظر علماء السياسة لا تستمد هذا الحق الا اذا جمعت على رأى علماء الألمان وحدة اللغة ووحدة العنصر ، وعلى رأى العلماء الايطاليين وحدة

التاريخ ووحدة العادات ووحدة الطمح السياسى ، فحق للعرب بعد هذا أن يكون لهم على رأى كل علماء السياسة دون استثناء حق جماعة ، وحق شعب ، وحق أمة . (١)

بدأت الحركة القومية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى والهزيمة التى منيت بها تركيا فيها تستقطب كل العناصر المؤمنة بها ، ومنهم بطبيعة الحال ساطع الحصرى الذى رأى فى الدولة العربية التى تكونت فى سورية تحت حكم فيصل الأول بن الحسين بن على تجسيدا للحركة القومية العربية . فلقد كانت هذه الدولة — من وجهة نظر ساطع . عظيمة الدلالة وجليلة الشـــأن برغـم قصر عمرها الذى لم يتجاوز الأربعة شهور ٨ من مارس (آذار) ١٩٢٠ — ٢٥ من يوليو (تموز) من العام نفسه) .

يرى ساطع فى هذه الدولة العربية السورية الأولى تحقيقـا لأمل عزيز غال عند كل العرب فقد كانت وليدة الثورة العربية وقبلة آمالها . كانت دولة عربية عصرية بكل معانى الكلمة تشعر بعروبتها شعورا واضحا وتعمل للقومية العربية عملا متواصلا وتقدر فى الوقت نفسه مقتضيات الحياة العصرية تمام التقدير ، ثم كان يوم ميسلون وهو اليوم الذى سقطت فيه هذه الدولة الفتية اثر حملة عسكرية شنها الفرنسيون ، ثم يقول ساطع : « ونحن لا نغالى اذا قلنا ان ذلك اليوم كان يوما فاصلا فى تاريخ القضية العربية ، انه كان خاتمة الفصول الأولى من القضية العربية ، وفاتحة فصولها الجديدة ففيه انحل الجيش النظامى الذى تكون خلال الثورة العربية ، وبعده تبعثر رجال الثورة ، ودعاة القومية فى مختلف الأقطار ، وأخذوا يجابهون حياة كفاح جديدة ، شاقة ومتشعبة تختلف شروطهـــا عن شروط الصفحة الاولى اختلافا جوهريا ، لذلك يحق لنا ان نقول

(١) د. محمد أنيس — الدولة العثمانية والشرق العربى .

بكل تأكيدا « ان يوم ميسلون كان من أخطر الايام التى مرت على الأمة العربية فى تاريخها الحديث » ٠

ولقد سطر ساطع تفاصيل هذه الأحداث فى كتـــابه الذى أسماه يوم ميسلون ٠

وحين نمضى مع كتابه هذا نجده وقد سجل الاحداث تسجيل المؤرخ الذى يعيش الاحداث ينفعل بها وتؤثر فيه يأتى بالوثائق ويعرض وجهة نظر الفرنسيين ، ويسرد مناقشـــــاتهم البرلمانية وتصريحاتهم ٠٠ ومن ثم يعتبر كتاب ساطع الذى أســـماه (يوم ميسلون) من الوثائق التاريخية الهامة ٠ فلقد جاء حرصه عـلى تسجيل هذه الاحداث بسبب ما رآه من أن معظم الشهود تبعثروا عقب الواقعة فى مختلف الاقطار العربية وبدءوا حياة كفــاح جديدة وعنيفـــة ، صرفتهم عن التفكير فى جمع وثائق ذلك اليوم ، ونشر وثائقه بين الناس واظهار حقائقه للعيان ٠ (١)

وكان ساطع فى تلك الأيام على مسرح الاحداث بل فى قلب هذا المسرح ، وفى موقف خاص يسر له الاطلاع على جميع صفحات الوقائع بتفاصيلها التامة (ذلك لأني كنت عضـــــوا فى مجلس المديرين الذى كان يعمل عمل مجلس الوزراء منذ بداية تأليفـــه حتى إعلان الاستقلال ثم وزيرا فى الوزارة الاولى التى تألفت اثر الاستقلال وبعد ذلك وزيرا فى الوزارة الثانية التى اعقبتها ، والتى بقيت فى الحكم حتى يوم ميسلون ، كل ذلك يسر لى الاطلاع على مقدمات القضية من أولها لآخرها اطلاعا مباشرا ، زد على ذلك أن لوزارة الأخيرة كانت قد عهـدت الى بمهمـــة التفاوض من الجنرال غورو عقب تقدم جيوشه نحو سفوح ميسلون ، فتسنى لى من جراء ذلك أن أطلع على تفاصيل الصفحة الاخيرة من القضية أكثر من أى

---

(١) يوم ميسلون ، ساطع الحصرى ص ٣ ٠

شخص آخر . ثم رافقت الملك فيصل الى أوربا بعد خروجه من سورية غداة يوم ميسلون . فأفسح ذلك أمامي مجالا واسعا لدرس جميع الوثائق الخاصة بهذه القضية الرسمية منها وغير الرسمية وبتفصيل تام) .

ويبدأ ساطع في كتابه دراسة تاريخية للتنافس الاستعماري على البلاد العربية ويعتبر هذه الدراسة ضرورة لازمة لفهم احداث سقوط الدولة السورية التي جلس فيصل الاول على عرشها .

ولذلك جاء كتابه الذي وضعه في دمشق في يوليو (تموز) من عام ١٩٤٥ في ذكرى مرور ربع قرن على الاحداث الهامة مقسما الى قسمين : القسم الأول يشرح المقدمات . والثاني يبين الوقائع والأحداث . ويسجل ساطع في القسم الاول من كتابه (يوم ميسلون) ما خرج به من قراءة الابحاث والكتب عن الصراع الاستعماري بين الدول الاوربية الكبرى ، وخاصة فرنسا وانجلترا على البلاد العربية ، وفي القسم الثاني عرض لما شاهده وسجله بنفسه خلال الوقائع والأحداث نفسها .

يعتبر ساطع أن أطماع فرنسا في سورية ترجع الى تاريخ قديم منذ الحروب الصليبية وتمشيا مع ذلك استمرت فرنسا في ارسال الارساليات الى الشام حتى بعد فصلها بين الدين والسياسه وجعل التعليم علمانيا .. ثم قويت رغبة فرنسا في احتلال سورية بعد احتلالها للجزائر عام (١٨٨٠) وتونس عام (١٨٨١) ، وكان لابد أن تصطدم في رغبتها هذه بعقبتين رئيسيتين الأولى المنافسة الدولية ، والثانية المقاومة العربية .

أما بالنسبة للعقبة الأولى ، فقد قررت فرنسا ذلك واستعدت لها ولم تقدم على ضربة ميسلون الا بعد تذليل هذه العقبة .. أما بالنسبة للعقبة الثانية وهي المقاومة العربية فيرى ساطع ان فرنسا

لم تعط لها أهمية تذكر ، وتوهمت ان ضربة ميسلون ستقضى على المقاومة العربية قضاء مبرما ، وكانت فرنسا فى ذلك خاطئة الخطأ كله ، فانه اذا كان يوم ميسلون بمنزلة الفصل الأخير من رواية المنافسة الدولية التى حامت حول سورية فانه (يوم ميسلون) كان بمثابة الفصل الاول فى المقاومة الوطنية القومية التى قامت فى سورية ضد القوات الفرنسية .

ولعله من المفيد ونحن نتناول بالبحث حياة ساطع أن نشير اشارة مقتضبة للظروف التى نشأت فيها هذه الدولة العربية السورية تحت حكم فيصل الاول والتي ظل ساطع يعطيها من الاهمية فى كتاباته الشيء الكثير ، ولما كان ساطع أحد الرجال المسئولين فيها بحكم المناصب التى اسندت اليه فيها ثم بفضل ما قام به من سفارة لدى القوات الفرنسية ، كل ذلك يجعلنا نرى من الضرورة أن نتناول نشأة هذه الدولة التى لم يتجاوز عمرها أربعة أشهر (مارس - يوليو عام ١٩٢٠) ، ويعتبر ساطع الحصرى هذه الفترة برغم قصرها من أخطر الفترات فى تاريخ الأمة العربية فى عصرها الحديث .

شعرت انجلترة خلال الحرب العالمية الاولى بضرورة الاستعانة بالشريف حسين شريف مكة .. فقد كانت تركيا بسيطرتها على بلاد الشام والعراق فى وضع تستطيع منه أن تهدد بريطانيا فى موقعين عند قناة السويس ، وسواحل الخليج العربى ، حيث توجد بالقرب منهما منابع البترول الخاصة بالشركة الانجليزية الفرنسية ، وكان لا بد للانجليز أن يعملوا على منع الاخطار التى قد تهدد سفنهم فى البحر الأحمر من منطقة الحجاز ، فضلا عن أنه منها (الحجاز) يمكن بث الالغام فى قناة السويس أو حشد القوات الى تنقل لمحاربة الانجليز فى مصر والسودان ، هذا من الناحية الحربية ، أما من الناحية الدينية فقد كان الحجاز على مر العصور والايام له مكانته الدينية فى العالم الاسلامى .

من أجل ذلك سعت انجلترة للتفاوض مع الشريف حسين حيث وعدته باستقلال البلاد العربية ودارت بهذا الخصوص المكاتبات المعروفة بمكاتبات حسين مكماهون ، وفى الوقت نفسه كانت انجلترة تفاوض فرنسا سرا فى مسألة تقسيم البلاد العربية بين نفوذ كل منهما • وتوصلا الى الاتفاقية المعروفة باتفاق سايكس ـ بيكو « نسبة الى المندوب الفرنسى فى المباحثات المسيو جورج بيكو • وكان قنصلا عاما لدولته فى بيروت خلال الاعوام التى سبقت الحرب، وكان زميله البريطانى مارك سايكس صاحب شهرة واسعة فى شئون الشرق بفضل كتاباته وأبحاثه) (١) ، وارفق بهذا الاتفاق بين الدولتين الانجليزية والفرنسية خريطة لمنطقة المشرق العربى لونت عليها المناطق التى تقرر أن تحتلها انجلترة باللون الاحمر (العراق من بغداد حتى الخليج العربى) والمنطقة التى تقرر أن تحتلها فرنسا باللون الازرق (الساحل السورى) ، كما لونت فلسطين باللون الاسمر ، وتقرر انشاء ادارة دولية فيها على أن يعين شكل الادارة فيها بعد استشارة روسيا بالاتفاق مع بقية الحلفاء ممثلى شريف مكة • كما تقرر طبقا لاتفاقية سايكس ـ بيكو أن تعترف كل من فرنسا وبريطانيا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رياسة رئيس عربى فى المنطقتين اللتين عرفتا بالمنطقة (أ) (داخلية سورية) والمنطقة (ب) (داخلية العراق) • ويكون لفرنسا فى المنطقة (أ) ولانجلترة فى المنطقة (ب) حق الأولوية فى المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسا فى المنطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب • بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية • (٢)

---

(١) ارجع الى الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين المجموعة الاولى التى نشرتها جامعة الدول العربية (ص ٨٦) .

(٢) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى وكذلك .
Gerorge Antonius : The Arab Awakening P. 448

كما تقرر طبقا للمادة الرابعة من إتفاقية سايكس - بيكو أن تكون حيفا تحت ادارة انجلترة على أن تكون ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها ، وأن تكون الاسكندرونة تحت ادارة فرنسا على أن تكون ميناء حرا لتجارة الامبراطورية البريطانية ٠

ويشاء الله ان تطيح ثورة البلاشفة فى روسيا بحكم القياصرة، وان تعلن الحكومة الجديدة على الملأ الاتفاقيات السرية التى عقدتها الحكومات السابقة على الثورة ، وتعلن الغاءها وعدم تمسكها بها ، وكان من بين ما أذاعته تلك الاتفاقية السرية المعروفة باتفاقية سايكس - بيكو التى وافقت عليها حكومة روسيا قبل الثورة بها ٠ اذاعت الحكومة البلشفية هذه الاتفاقية يوم ٢١ من فبراير عام ١٩١٨ فأثارت ثائرة العرب ، ولما لم تكن الحرب قد انتهت بعد فان الحكومة البريطانية قد بادرت تؤكد وعودها السابقة للعرب من حيث بقائها على وعودها السابقة مع الشريف حسين ، وتأييدها لاستقلال البلاد العربية حسبما تم من مكاتبات معه بهذا الخصوص٠

وفى ذلك الحين كانت قوات الثورة العربية قد تقدمت طبقا للاتفاق مع انجلترة من شمالى الحجاز الى العقبة فاحتلتها فى أغسطس من عام ١٩١٧ وفى أكتوبر من العام التالى (١٩١٨) دخلت القوات العربية مع القوات الانجليزية دمشق ٠ وفى نفس الشهر تمكن الفرنسيون من احتلال بيروت والاسكندرونة ، وبدأت الجيوش التركية ترغم على الجلاء عن البلاد السورية بأجمعها ٠ وبدأت المانيا تطلب وساطة ولسون لانهاء الحرب ٠

وعندما وقعت الدولة التركية على اتفاقية الهدنة فى مودرس كانت أوضاع (الولايات العربية) على النحو التالى : العراق بأجمعه تحت الجيش البريطانى أما بلاد الشام فكانت مقسمة الى ثلاثة أقسام : قسمها الساحلى الجنوبى من حدود مصر حتى رأس الناقورة

تحت احتلال الجيش البريطانى ، قسمها الساحلى شمال رأس الناقورة تحت احتلال الجيش الفرنسى ، وأقسامها الداخلية تحت ادارة الجيش العربى .

وكانت المطامع والنوازع السياسية التى تحوم حول البلاد العربية متضاربة ومتشابكة ، كانت هناك أمانى الاستقلال تجيش فى صدور رجال الثورة العربية ، ويدعم هذه الامانى ويقوى الامل فى تحقيقها المبادىء المشهورة التي أعلنها الرئيس الامريكى ولسون من ناحية ، ووعود بريطانيا المقررة فى مكاتبات (حسين ـ مكماهون) من جهة أخرى ولكن خلافا لكل ذلك كانت هناك أطماع فرنسا وانجلترة التقليدية فى حكم البلاد المذكورة واستعمارها ، والتى تضمنتها اتفاقية سايكس ـ بيكو . وهذا كله وبالاضافة اليه وعد بلفور المشهور . ويتناول ساطع ـ في كتابه الذى أسماه يوم ميسلون ـ اتفاقية سايكس ـ بيكو فى نقد لاذع . لقد قال عنها انها كانت تقضى بتقسيم البلاد العربية تقسيما كيفيا لا يتفق مع النزعات القومية ولا يراعى الضرورات الاقتصادية .

وعند انتهاء الحرب كان هناك تضارب بين المصالح البريطانية والفرنسية حول اقتسام البلاد العربية ، فاذا كانت اتفاقية سايكس ـ بيكو قد أقرت دولية فلسطين ، فأن انجلترة بعد فتحها لها لم تكن لتتركها ، خاصة وأنها أحست بأهميتها الاستراتيجية وقربها من قناة السويس .

ويرجع اهتمام بريطانيا بفلسطين الى ما قبل الحرب العالمية الاولى أيام كان كتشنر قنصلا عاما لبلاده فى مصر ، اذ أوضح للمسئولين فى الحكومة البريطانية آنذاك أهمية جنوب سورية (من حيفا على البحر الابيض المتوسط الى خليج العقبة على البحر الاحمر ، كسد يمنع الخطر عن قناة السويس ، وكطريق برى

للمشرق) • وفى سنة ١٩١٣ عهدت الحكومة البريطانية بناء على طلب كتشنر الى لجنة من سلاح المهندسين الملكى بها وبرياسة نيوكومب بمسح شبه جزيرة سيناء بأسرها • وجاءت نتيجة هذا المسح الذى قامت به اللجنة مؤيدة لرأى كتشنر بأن سورية الجنوبية شمالا الى حيفا وعكا وجنوبا الى خليج العقبة ضرورى للامبراطورية البريطانية سياسيا وحربيا •

وعندما أعلنت الحرب وتبوأ كتشنر مقعد وزير الحرب أحث حكومته على ضرورة التمسك بفلسطين ، لتكون منطقة نفوذ بريطانية والا تسمح لأحد غيرها ان يكون له نفوذ فيها • ولعل ذلك أحد الدوافع الرئيسية التى حدث بالحكومة البريطانية الى اصدار وعد بلفور •

ولما شعرت فرنسا بأن بريطانيا تريد التمسك ببعض المناطق دون البعض ، خلافا لما تضمنه اتفاقه سايكس بيكو ، رأت أنه لابد من تسوية أمورها مع انجلترة •• ويقال ان كلمنصو الذى كان رئيسا للوزارة الفرنسية خلال مفاوضات الصلح التى دارت عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى سأل لويد جورج رئيس وزراء انجلترة : قل لى ماذا تريدون منا ؟ فيجيبه لويد جورج : نريد فلسطين والموصل •

كان الاتفاق بين الدولتين الانجليزية والفرنسية أمرا ضروريا حتى يمكنها مواجهة حركة القومية العربية •• وتم التوصل الى اتفاقية تقضى بأن تبقى الموصل فى يد بريطانيا على أن تعطى لفرنسا حصة من نفطها ، وأن تترك بريطانيا لفرنسا القسم الداخلى من سورية • كان موقف انجلترة على هذا النحو يعنى أنها تخلت عن المطالب القومية العربية ، وذلك بتصريحها لفرنسا أن تتقدم من الساحل السورى غربا لتحتل بقية القسم الشرقى من سورية ،

والذى كانت ترابط فيه القوات العربية ، لكن قيادة الجيش العربى في سورية قررت المقـاومة والتصدى للقوات الفرنسية اذا ما بدأت تتقدم الى داخل البلاد ، وازاء ذلك قررت القيـادة العسـكرية الفرنسية تأجيل احتلالها للقسم الشرقى من سـورية حتى يحين الموعد المناسب ، وحتى تنتحل من الأعذار والاسباب ما يبرر لهـا ذلك .

لكن القيادة العسكرية للجيش العربى فى سورية سرعـان ما حولت نفسها الى ادارة مدينة ، ودعت الى مؤتمر يمثل جميـع أقسام سورية بحدودها الطبيعية ، وعرضت عليه مشروعا بقانون للتجنيد الاجبارى ، فصدق عليه المؤتمر بحماسة كبيرة فى ديسمبر من عام ١٩١٩ ثم اتبعت ذلك باعلان استقلال سورية بكل أقسامها بعد أن كان وضع الجيش العربي والحكومة في سورية غريبا فهـو من الوجهة القانونية جزء من جيوش الحلفاء تابع للالنبى .. ولم يكن هناك بد من اعلان الاستقلال وتم ذلك فى ٨ من مارس عام ١٩٢٠ وتلى على الناس من شرفة البلدية فى دمشق .

وقال المؤتمر السورى فى قراره التاريخى الذى أعلن فيـه الاسقلال : « لما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربى من حكم الترك وكانت الاسباب التى يستند اليها فى استقلال القطر السورى هى ذات الأسباب التى يستند اليها فى اسـتقلال القطر العراقى ، وبما أن بين القطرين صـلات وروابط لغـوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية تجعل كل قطر لا يستغنى عن الآخر فنحن نطالب باستقلال القطر العراقى » .

وهكذا لم يهمل المؤتمر السورى فكرة الوحدة العربية حتى وهو فى أشد اللحظات وفى أكثر الاوقات أزمة .. وكان من الطبيعى أن يثير قرار الاستقلال ثائرة كل من الحكومتين البريطانية والفرنسية

فسرعان ما صرح اللورد كيرزون وزير الخارجية أن بريطانيا العظمى لا تعترف لأية هيئة فى دمشق بحق التكلم عن فلسطين والعراق ، ولم تعترف انجلترة بفيصل ملكا ، وظلت تعـــامله على أنه أمير هاشمى ٠

أما فرنسا فقد بادرت هى الاخرى تتخذ الخطوات الكفيلة بالقضاء على هذه الدولة العربية الوليدة فى مهدها قبل أن تثبت أقدامها وتقوى ٠

وبادرت كل من فرنسا وانجلترة الى اصدار قرار من مؤتمر الصلح الذى كان منعقدا فى سان ريمو بوضع كل من سورية والعراق وفلسطين ولبنان تحت الانتداب ، ولقد عهد لانجلترة بمهمة الانتداب على العراق وفلسطين ووضعت سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ٠

ويعتبر ساطع هذا القرار الذى أصدره مؤتمر الصلح فى الخامس والعشرين من ابريل عام ١٩٢٠ من أخطر القرارات فلقد صدم العرب بهذا القرار من مؤتمر مفروض فيه تحقيق السلام واجابة رغبات الشعوب ، فاذا به تصبح مهمته تحقيق رغبات المستعمرين ٠

الانذار الفرنسى وسفارة ساطع :

بعد أن اعترف مؤتمر الصلح لفرنسا بحق الانتداب على سورية أخذت تستعد لغزو المنطقة الشرقية منها وهى المنطقة التى كان يحتلها الجيش العربى ، واعتمدت فرنسا الاموال اللازمة لحملة قررت أن تتقدم من غربى سورية الى شرقيها ، ووضعت تحت قيادة الجنرال غورو ما يقرب من مائة ألف جندى على نحو ما صرح هو به فى البرلمـان الفرنسى بعد حوادث ميسلون ٠ وحين تم تجهيز الحملة العسكرية قدم القائد الفرنسى الى الملك فيصل الأول عددا من المطالب فى شكل انذار ، وذلك فى الرابع عشر من يوليو عام ١٩٢٠ ٠

يبدأ الانذار بمقدمة طويلة يتهم فيها الحكومة السورية بتنظيم العصابات التى هاجمت الجيوش الفرنسية فى المنطقة الغربية لسورية كما يتهم هذه الحكومة بتحريضها للشعب العربى على كره الفرنسيين، وينتهى الانذار بتقديم عدد من المطالب يطالب الحكومة السورية اما بقبولها كلها أو رفضها كلها كمجموعة واحدة لا تقبل التجزئة ، وذلك خلال أربعة أيام أى قبل منتصف ليل ١٨ من يوليو عام ١٩٢٠ أما هذه المطالب فهى :

١ ـ وضع سكة حـــديد رياق ـ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسى ٠

٢ ـ قبول الانتداب الفرنسى ٠

٣ ـ الغاء التجنيد الاجبارى الذى قررته الحكومة الســـورية وتسريح المجندين ٠

٤ ـ قبول الاوراق النقدية التى أصدرها البنك السورى، وكان الفرنسيون قد أسسوا مصرفا ماليا سموه بنك سورية ولبنـــان واصدروا قرارا باعتبار العملة التى يصدرها هذا البنك عملة رسمية اجبارية ، وكانت المعاملات تجرى بين الناس بالعملة الذهبية ، وكانت الحكومة السورية قد أصدرت قرارا بعدم اعترافها بهذا المصرف ولا بالعملة التى يصدرها ٠

٥ ـ معاقبة من أسماهم الانذار بالمجرمين الذين استرسلوا فى معاداة فرنسا ٠

وقال الانذار انه ينبغى ان يصاحب حرية التصرف فى سكةحديد رياق حلب احتلال محطات رياق ، بعلبك ، حمص ، حماه ، حلب مع مدينة حلب نفسها ٠

كما جاء فى الانذار أنه فى حالة قبول الحكومة السورية للانذار تصدر الاوامر للسلطات السورية بعدم عرقلة سير الجيوش الفرنسية وفى حالة الرفض ستصبح الحكومة الفرنسية حرة فى أعمالها ٠

وبدأت الحكومة السورية تبحث الانـذار الفرنسى ، ثم قررت ايفاد أحد رجالها للتفاهم مع غورو ، ووقع الاختيار على ساطع ليقوم بمهمة السفارة لدى القائد الفرنسى ٠

وقبل أن يغادر ساطع دمشق الى (عاليه) لمقابلة الجنرال غورو دعاه الملك فيصل ، وأطلعه على برقية أرسلها لغورو بقبوله الانذار ، ورد غورو بالشكر ، وطلب ارسال برقية بالقبول النهائى مع ذكر الشروط بالتفصيل ٠ وفي الطريق لمقابلة غورو شاهد ساطع القوات الفرنسية وهى تزحف تجاه العاصمة السورية ٠ وتمت المقـــابلة بين ساطع والجنرال غورو ، وكان ســـاطع خير من توفده الحكومة السورية لأخطر مهمة يتوقف عليها مستقبل الدولة العربية السورية٠ ويوضح ساطع للجنرال الفرنسى أنه ليس هناك مبرر لتقـــدم القوات الفرنسية بعد (قبولنا للانذار وتسريحنا للجيش) ، لكن القائد الفرنسى وقد الجمته الحجة لا يجد ردا على ذلك سوى تمسكه بأن الفرنسيين لم يعودوا يثقون بالعرب ، ويقدم لساطع شروطـا يطلب من الحكومةالعربية قبولها، وتتضمن اقامة بعثة فرنسية مفوضة فى دمشق لها اختصاص الرقابة ، ودراسة طرق تطبيق الانتداب الفرنسى فى المنطقة الشرقية ٠ ووعد الجنرال غورو ساطع أن يصدر الاوامر للقوات الفرنسية بوقف زحفها تجاه دمشق ٠

لكن ساطعا يعود الى دمشق وهو جازم كل الجزم ان الفرنسيين (مصممون على احتلال بلادنا احتلالا تاما ، وعاملون على استكمـــال وسائل هذا الاحتلال ، مهما تقلبت الظروف والأحوال) ٠

لكن القائد الفرنسى سرعان ما نقض ما وعد به ساطع ٠ فقرر أن تتقدم قواته بحجة وصولها الى مكان يتوافر فيه الماء الكافى، ويكون قريبا من السكة الحديدية ، وعندما عاد ساطع الى دمشق قرر مجلس الوزراء السورى دعوة قناصل الدول لشرح القضية العربية لهم ،

وكما كلف مجلس الوزراء ساطعا بالتفاوض مع القائد الفرنسى كلفه ان يشرح القضية لممثلى الدول ، ويحسن ساطع عرض القضية وتفنيد حجج الفرنسيين ، ويختتم كلامه لهؤلاء الممثلين بقوله : على كل حال فلقد شهدتم كلكم القسم الاعظم من الحوادث بأنفسكم ، ان الحكومة قبلت شروط الانذار وشرعت تسرح الجيش ، وهو الامر الذى سبب هياج الاهلين واضطرت الحكومة الى استعمال السلاح لتسكين الاضطرابات ، ولقد علمتم ان الجيوش الفرنسية بدأت تزحف نحو دمشق ٠

يوم ميسلون :

وتدور المعركة بين القوات الفرنسية وبين القوات العربية بقيادة يوسف العظمة وزير الحربية السورى ، وذلك فى الرابع والعشرين من يوليو (تموز) عام ١٩٢٠ ، ولم يكن من المتوقع ان تصمد هذه القوات العربية طويلا أمام الجيش الفرنسى الزاحف ، الذى أحسن تسليحه واعداده بعكس القوات العربية التى كان ينقصها التسليح ، ويستشهد يوسف العظمة ، وتدخل القوات الفرنسية دمشق فى اليوم التالى مباشرة (٢٥ من يوليو عام ١٩٢٠) ، وتنتهى بذلك صفحة أول دولة عربية سورية ، ثم يأمر الفرنسيون فيصلا بمغادرة البلاد ، فيغادرها الى الحجاز ، ومعه ساطع ، ومنها الى حيفا ، ثم بورسعيد ، حيث ركبا الباخرة الى ايطاليا فى الخامس والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٠ ٠

وظل الأمل يراود فيصل فى امكان استعادة عرشه فى سورية فهو يوفد ساطع الحصرى الى تركيا فى محاولة للالتقاء بالكماليين وتنسيق العمل معهم ، وينفذ ساطع رغبة فيصل ولكنه يعلم حين يصل الى أرض الدولة التركية ان الكماليين كانوا فى ذلك الحين مغلوبين على أمرهم ، وانهم بدءوا يسعون للتفاهم مع الفرنسيين كى يتمكنوا من مقاومة الانجليز ٠

وحين يعود ساطع من تركيا يكلفه الملك فيصل الاتصال بالاستاذ بونفانتى أستاذ الحقوق فى الجامعة الايطالية بروما لوضع دراسة قانونية عن القضية السورية •

أما الانجليز فقد أخذوا يحولون أنظار فيصل عن سورية الى العراق ، ودعوه الى لندن لمباحثته فى هذا الخصوص (أما أنا (ساطع) فلم أر فائدة من مرافقته خلال هذه السفرة ، ورأيت العودة الى مصر والاتصال بالاخوان المجتمعين هناك) •

ساطع والنهضة العلمية فى سورية :

لا غبار على ساطع لو لم يقم بأى اصلاحات خلال المدة التى عاشتها تلك الدولة العربية السورية الاولى التى لم يتجاوز عمرها الشهور الأربعة فلقد ولدت فى ظروف مشحونة بالتوتر والتهديد يحيط بها العدو ، ويحدق بها الخطر من كل جانب ، الامر الذى يجعل شغلها الشاغل الاهتمام بأمر الدفاع عن نفسها وكيانها ، لكننا نجد ان ساطعا الى جانب نشاطه السياسى الذى مر بنا يقوم بعدد من الاصلاحات الهامة ، فهو بحكم عمله كوزير للمعارف فى هذه الدولة منذ أعلن استقلالها (٨ من مارس عام ١٩٢٠) حتى قضى عليها الاحتلال الفرنسى لدمشق (٢٥ من يوليو عام ١٩٢٠) يقرر تعريب التعليم فى سورية • كان التعليم يتم باللغة التركية ، والكتب المدرسية مطبوعة بهذه اللغة ، لكن ساطعا يقرر على الفور اتباع منهج قومى عربى فى التعليم، ويؤلف لجنة لجمع المصطحات العلمية المستعملة قديما وحديثا ، تمهيدا لانتخاب الأوفق منها ، واعداد معجم عربى ، ويؤسس المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ولكن الحوادث فى تطورها كانت أسرع من كل شىء فلم يمهل الفرنسيون هذه الدولة العربية لتمضى مع أول حركة قومية عربية ، فبادروا باحتلال دمشق على نحو ما سبق ذكره •

وكما وقف الجنرال اللنبى عند بيت المقدس يقول ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين ، يقف القائد الفرنسى الذى قاد القوات الفرنسية الى دمشق ، ويذكر أيام الحروب الصليبية • يقول هذا القائد الفرنسى : أنا فى دمشق !

ان هذا الاسم كان يمثل لى شيئا خرافيا عندما كنت اقرؤه فى سجلات عائلتى وأنا فى سن الطفولة •

ان الجد البعيد لجدتى من جهة أبى – لويز – كان قد وقع فى الاسر خلال الحروب الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ •• ، ونقل الى مدينة دمشق ، وجعل منه أهل دمشق فى ذلك الحين عبدا يشتغل فى أحد المصانع التى يصنع الورق فيها من القطن ، واشتغل جدى هناك شغلا شاقا خلال ثلاث سنوات ، وبعد ذلك فر الى دمشق وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبى بعد اجتياز آلاف المخاطر • وعندما عاد الى مسقط رأسه بعد غياب دام عشر سنوات أسس أولى طواحين الورق التى عرفتها أوربا

أو ليست العدالة العليا هى التي سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية أن يدخل المدينة المقدسة ظافرا منصورا ؟

ساطع فى العراق :

قلنا ان ساطعا عاد الى مصر فبلغها فى التاسع من ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٢٠ ، فأقام فيها مدة تقرب من العام ، اتخذ له سكنا ضاحية الزيتون ، وانصرف فى هذه المدة عن العمل السياسى وآثر أن يعود الى عمله الاول والى وظائفه التعليمية التى يستطيع من خلالها تحقيق أغراضه التربوية والقومية •

بدأ ساطع يعد نفسه للأعمال التعليمية بالعراق بناء على اتفاق

بينه وبين فيصل ، وكانت اقامته فى القاهرة. انتظارا لدعوة فيصل يدعوه فيها الى مواصلة الاعمال التعليمية بالعراق ، وأراد انتهاز فرصة اقامته فى مصر للوقوف على حالة التعليم فيها ، فكتب الى وزير المعارف المصرى (جعفر والى باشا) فى ذلك الحين خطابا يلتمس له التصريح بزيارة بعض المدارس المصرية ، وجاءته الموافقة ، وحين قام بهذه الزيارة آثر – حرصا على مصلحة مصر وحبها – أن يقدم للمسئولين فيها اقتراحاته بخصوص ما يراه واجبا من اصلاحات ، وأن يكتب لوزارة المعارف المصرية رأيه فى برامج التعليم المصرى .

كان أهم ما لفت ساطع من مساوى فى هذا التعليم المصرى هو ثنائية التعليم الابتدائى حيث كان يوجـــد فى ذلك الحين ما يعرف بالمدارس الأولية والمدارس الابتدائية ، ولكل من هذين النوعين براامجه ومناهجه ، كذلك كان اعتراض ساطع على تقسيم الثانوية العامة الى قسمى العلوم والآداب فى ختام السنة الثانية من سنى الدراسة الثانوية فى ذلك الحين مما يجعل الطالب فى شـــعبة الآداب لا يلم شيئا عن العلوم وطالب العلوم لا يلم شيئا عن التاريخ ، والى جانب ذلك يرى اهمال المدارس المصرية خصوص فى المدارس الاوليـــة والابتدائية لتدريس مادة التاريخ واعطائها المزيد من العناية ، ذلك أن ساطعا ينظر الى لتاريخ على أنه الاساس المتين الذى تقوم عليـــه التربية الوطنية .

وسنرى ان ساطعا سيستفيد من هذه الدراسة التى قام بها عن أحوال التعليم المصرى فيما يقدم عليه من اصلاحات بالعراق .

ثم جاءته دعوة فيصل للسفر الى العراق بعد أن تم تتويجـــه هناك ملكا فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٩٢١ .

سافر ساطع الى العراق وهو يشعر بثقل المسئولية التى ستلقى

عليه فيه ، ويحس بالاوضاع السيئة التى فرضها الاستعمار على البلاد العربية ، وعلى سورية والعراق بوجه خاص ، ويقول ساطع حين يدعى للسفر الى العراق : « نحن نعيش الآن فى أسوء الظروف العالمية وأضرها بالمصالح العربية فى سورية والعراق ، فلا بد أن نعمل تحت الظروف السيئة والقاسية ، دون أن نأمل فى أية مساعدة مادية ومعنوية من أية دولة من الدول الداخلة فى عصبة الأمم أو الباقية خارجها » .

أما أبرز وأهم مواطن الضعف فى العراق فكانت كما رآها ساطع على النحو التالى :

١ ـ كثرة العشائر البدوية التى تحيط بمعظم المدن .
٢ ـ قلة المتعلمين وقلة معاهد التعليم .
٣ ـ سوء وسائل المواصلات بين مختلف أنحاء العراق .
٤ ـ تخلف التعليم فى العراق منذ كان يحكمها الأتراك .

ازاء ذلك كله أحس ساطع بالمسئولية الكبيرة التى ينبغى أن يشعر بها كل غيور على مصلحة العراق وشعبه ، كما شعر بما ينبغى على الحكومة العراقية عمله فعليها أن تعمل عملا حثيثا لتلافى تأخر الحركة التعليمية فى العراق .

فضل ساطع على التربية والتعليم فى العراق :

ظل ساطع خلال شهور السنة الاولى التى جاء فيها الى العراق لا يتولى أحد المناصب ، وانما بقى فى معية الملك فيصل بمثابة مستشار فى أمور المعارف ، وكان عدم تولى ساطع لأحد المناصب طيلة هذه الفترة بناء على رغبته هو ، كى تكون فترة للدراسة والبحث والاستطلاع ووضع الخطة ، فهو يرى أنه لا بد من وضع خطط

مرسومة للاصلاح (ويجب على أن أضع هذه القاعدة نصب عيني على الدوام فى الاعمال التى سأقوم بها فى العراق ، قد تكون الاهداف الأساسية صعبة المنال ومستحيلة التحقيق مرة واحدة فلابد من وضع مخططات انتقالية ٠٠ ان هذه القاعدة تكتسب أهمية خاصة فى أمور التربية والتعليم ، فالمنهج الذى يوضع على أسس نظرية ومثالية بحتة دون الالتفات الى الأحوال الراهنة ـ من مستوى التلاميذ ومقدرة المعلمين ـ يبقى حبرا على ورق ، اذ لا بد للمنهج أن يأخذ بعين الاعتبار الاحوال الراهنة ، وفضلا عن ذلك كله يجب على المنهج أن يتطور ويرتفع كلما ارتفع مستوى التلاميذ والمعلمين) ٠

وحين وصل ساطع الى العراق وشعر بما ينبغى عليه عمله تمنى لو بقى فيه عشرة أعوام على الأقل ، كى يستطيع أن يجعل التعليم فى العراق يجتاز مرحلة التخلف الى مرحلة الانطلاق والتقدم السريع ٠

وأحسن ان كل المشاكل سهلة الحلول اذا ما صابر الانسان عليها ، وكانت لديه العزيمة والقدرة ، لكنه يشعر أن أضخم هذه المشاكل بالنسبة للعراق هى المشكلة السياسية ٠٠ فلقد حكم الانجليز العراق حكما مباشرا مدة طويلة ، ولا ينتظر منهم أن يتخلوا دفعة واحدة عن جميع السلطات التى كانوا يمارسونها ٠

ولقد صدق ظن ساطع وحدث ما توقعه ، فما كاد يعهد اليه بمنصب معاون وزير المعارف فى الخامس من فبراير عام ١٩٢٢ حتى بدأ الاحتكاك بينه وبين المستشار البريطانى لوزارة المعارف العراقية وكان اسمه (فارل) ٠ لقد كان (فارل) يشعر بأن النظام التعليمى الذى وضعته الادارة البريطانية هو النظام الامثل ٠٠ لكن ساطعا يؤمن بأن العراق ليس بحاجة الى أن يطبق نظم التعليم الانجليزية أو الفرنسية لا التركية ، وأن النظام الامثل

له هو ما ارتبط بأحوال العراق العامة وظروفه التاريخية ، وهذا ما ينبغي أن يكون شأن النظام التعليمي في كل بلد ، وأمام عناد (فارل) واصراره على عدم الأخذ بما اقترحه ساطع من اصلاحات لم يكن هناك مفر من اقصائه عن العراق اذا ما أريد اصلاح التعليم به ، وتم ذلك بناء على طلب من الملك فيصل الى السير برس كوكس المندوب السامي البريطاني •

باشر ساطع العمل معاونا لوزارة المعارف مدة كانت أقل من عام (٥/٢/١٩٢٢ - ١٧/١/١٩٢٣) انجز خلالها العديد من الأعمال• أما أهم هذه الاصلاحات التى حققها ساطع فهى اصلاح وتنظيم التعليم الابتدائى بوضع منهج جديد ، مبنى على أسس تربوية ، ومقترن بتوجيهات وطنية قومية ، لقد وجد ساطع أن نظام التعليم الابتدائى فى العراق شبيه بنظام التعليم المصرى ، فهناك ثنائية فى التعليم الابتدائى على غرار ما هو متبع فى مصر • ولما كان قد سبق له دراسة نظام التعليم المصرى خلال اقامته فى مصر ، وشعر بمساوىء هذا التعليم فقد رأى لزاما عليه أن يضع منهجا جديدا لهذا التعليم العراقى لا يعترف بنوعين من المدارس فى المرحلة الابتدائية (أولية وابتدائية) ، ويحذف فيما يضعه من منهج مادة اللغة الانجليزية فى السنين الاربع الأولى لصعوبة تعلم الطفل لغتين فى آن واحد ، ثم لاحساسه بضرورة تقوية التلميذ فى لغته العربية التى هى اللغة القومية •

ويعطى فى منهجه هذا اهتماما كبيرا بتدريس التاريخ ، فهو يرى أن الغرض الاصلى من تدريس التاريخ فى المدارس الابتدائية هو تعليم التلميذ العراقي تاريخ وطنه وماضى أمته ، بهدف تقوية الشعور الوطنى والقومي عنده ، ولذلك ينبغى أن يكون تاريخ البلاد العراقية والامة العربية محور الدروس التاريخية ، أما تاريخ

بقية البلاد وسائر الأمم فلا يبحث عنه فى الصفوف الاولية الا بنسبة علاقتها بتاريخ العراق وتاريخ العرب ·

ثم هو يشرح بعد ذلك فى هذا المنهج الذى وضعه لاصلاح التعليم الابتدائى فى العراق ما ينبغى على المعلمين اتباعه عند تدريس التاريخ من حيث تجنب ذكر الوقائع والاسماء والتواريخ الكثيرة التى تشوش عقل الطفل ولا تحببه فى التاريخ ·

فاذا انتقل ساطع من التاريخ الى الجغرافيا جعل الهدف من تدريس هذه المادة تنمية الوعى القومى حيث قرر أن يدرس التلاميذ الى جانب تاريخ العرب جغرافية البلاد العربية ، ووسائل الاتصال بين هذه البلاد ·· ثم هو يحرص أن يدرس التلاميذ كذلك الاناشيد التى تثير عواطفهم الوطنية ، وتقوى فيهم الروح القومية ·

لكن النهضة التعليمية التى أخذ ساطع يرسى قواعدها سرعان ما أثارت حقد الكثيرين عليه ، فالغى منصبه بحجة الاقتصاد فى النفقات المالية فى العراق ، ثم هو يعين بعد ذلك فى منصب مدير المعارف العام ، ويفرح ساطع بهذا المنصب لما ظنه سيعطيه من سلطات تنفيذية يحقق بها الاصلاحات التى ارتآها ضرورية للتعليم فى العراق ·· لكن الوشاية تلاحقه والدسائس تكادله الأمر الذى دفعه الى الاستقالة ·

يقول ساطع : « كنت احرص حرصا شديدا على اقامة صرح المعارف على أسس متينة دون الالتفات الى المظاهر الخداعة ، وأن أعمل عملا متواصلا لرفع مستوى التعليم ، وزيادة كفاءة المعلمين ، وأن أتخذ من التدابير كل ما يمكن اتخاذه لقطع دابر التساهل والمحاباة فى أمور التربية والتعليم » ·

لكن مصالح الطامعين والحاقدين لاحقت ساطع بالتشكيك فى

اخلاصه للتعليم ، فاتخذ أولئك الحاقدون من عدم ولادته بالعراق وسيلة للكيد له ، واستغلوا النوازع الاقليمية وقالوا : انه ليس عراقيا فلا يمكن أن يعمل لمصلحة العراق ، وأنه سورى يسعى لخدمة السوريين واستقدام المعلمين السوريين للعمل فى العراق .

كما اتخذ أولئك الناقمون على ساطع ما قام به من جهد فى محاربة التعليم الأجنبى سبيلا الى التشـــهير والتنديد به . رأى ســـاطع كثرة المدارس الايرانية فى العراق ، والتحاق الكثير من الاطفال العراقيين بهـــا ، وكان المدرسون بهـــذه المدارس يلقنون التلاميذ ما يتنافى مع الوطنية العراقية ، والقومية العربية ، فسعى الي الحد من نشاط هذه المدارس ، وأخذ ينشىء الى جانب كل مدرسة ايرانية مدرسة عربية ، وأخذ ييسر سبل الالتحاق بهذه المدارس العربية مما دفع الكثيرين الى الانصراف عن المدارس الايرانية الى المدراس العربية ، الأمر الذى ساعد على غلق الكثير من المدارس الايرانية .. وسرعان ما سعى أولئك القوم المحاربون لساطع الى اثارة الشيعيين العراقيين ، وقالوا : ان ساطعا يجامل السنيين على حساب الشيعة ، لكن الحقيقة أن ساطعا ظل بعيدا كل البعد عن أن يتأثر فى عمله بدين من الأديان ، أو بمذهب من المذاهب ، وانمـــا كان يصدر فى عمله عن عقيدة قومية ، وأسلوب علمى بعيد عن التعصب أو التخريب .

والى جانب ما حققه ساطع بالنســـبة للتعليم الابتدائى فى العراق ، رغب فى اصلاح التعليم الثانوى فيه ، وحـــين وجد أن السبيل لاصلاحه هو دعوة الكفاءات من خارج العراق اتخذ ذلك ذريعة للتهجم عليه ، بحجة أنه لا يريد ان يعطى الفرصة للمعلمين العراقيين للترقى ، فقدم استقالته من منصب مدير المعـــارف العام ، وتولى منصب استاذ فى دار المعلمين العليـــا فى الفترة من ٨/١ سنة ١٩٢٧ الى ١٩٣١/١٠/١ .

وكان الدافع الذى حدا بساطع الى طلب تعيينه فى دار المعلمين هو ايمانه أن السبيل الوحيد لاصلاح التعليم هو البدء باعداد المعلم الجيد ، وأنه عن طريق التدريس فى هذه الدار يستطيع أن يعد المدرس الكفء٠٠وقام ساطع بتدريس علم النفس وأصول التدريس والتطبيق التربوى ، كما اشترك فى لجنة فحص الكتب المدرسية التى شكلتها وزارة المعارف العراقية فى ذلك الحين ، وعين كذلك عضوا فى لجنة اصلاح البرامج المدرسية والى جانب ذلك كله قام ساطع منذ بداية عام ١٩٢٨ باصدار مجلة سماها مجلة التربية والتعليم ،والقى العديد من المحاضرات فى نادى المعلمين كما أجرى الكثير من اختبارات الذكاء ٠

لكن اليد التى مضت تحارب ساطع لم تيأس ، فسرعان ما نجحت فى اصدار قرار بالغاء دار المعلمين العالية فى سنة ١٩٣١ حيث ظلت مغلقة حتى سنة ١٩٣٥ ٠

تولى ساطع بعد الغاء منصبه فى دار المعلمين منصب مراقب التعليم العام فى الفترة من أول أكتوبر عام ١٩٣١ الى ١٢/٣١ سنة ١٩٣١ أى مدة ثلاثة شهور فقط ٠ كان المدير العام للتعليم فى ذلك الحين هو الدكتور سامى شوكت ٠٠ يقول ساطع : « كنت مخدوعا فى تفكيره القومى ، فاختلفت معه ازاء رغبتى فى استبدال عدد من مفتشى المعارف بآخرين مؤهلين تأهيلا عاليا » ٠ وكان السبب الذى حدا بالدكتور شوكت الى عدم موافقة ساطع على رغبته هو خوفه من غضب المستشار البريطانى ، عندئذ قرر ساطع التخلى عن وظيفته هذه ، مبديا رغبته فى العمل بكلية الحقوق ، فكان له ما أراد حيث عين مديرا لها ، مدة قاربت السنوات الأربع (١٢/٢٢ سنة ١٩٣١ الى ١٩٣٥/٩/١٥) ثم اسند اليه خلال السنة والنصف الأخيرة منصب مدير الآثار القديمة علاوة على منصبه ٠

وما يكاد ساطع يتولى منصب الرجل المسئول عن كلية الحقوق في العراق حتى يعد مذكرة بما ينبغي بشأنها من اصلاحات ، أهمها في نظره ضرورة الاهتمام بمكتبة الكلية (يجب الا ننسى أن المكتبات في كلية الحقوق تعتبر بمثابة المختبرات في كلية العلوم ، فهي آلات البحث ، ووسائل التنقيب لدى الطلاب ، كما أنه من الضروري أن نتخذ التدابير لحمل الطلبة على مطالعة كتب القانون المكتوبة باللغات الأجنبية) .

ثم يفجع ساطع بوفاة الملك فيصل في السابع من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، ويرى ان وفاته خسارة كبرى للعراق ، ويصفه ساطع بالذكاء والمرونة والنشاط والحيوية .. لقد كان ساطع وثيق الصلة بفيصل ومعه ، ثم كان من الطبيعي أن يحز في نفسه خسارته لصديق عمل معه في سورية ثم في العراق .

ويتولى ساطع مرة أخرى أحد المناصب الرئيسية في وزارة المعارف ، وهو منصب مدير التدريس والتربية العام .. تولى ساطع هذا المنصب لمدة عام واحد (١٦/٩/١٩٣٥ و ١٦/٩/١٩٣٦) بدلا من رياسة كلية الحقوق ، وظل معه منصب مدير الآثار القديمة ، ثم هو يطلب خلال توليه لهذا المنصب ايفاده الى مصر لتنظيم الروابط الثقافية وفق ما رسمه من خطة لذلك ، وحين عاد من مصر اعد مذكرة برأيه في السياسة التي ينبغي أن تتبع في تسيير أمور المعارف واصلاحها ، لكن تصرف وزير المعارف العراقي معه دفعه الى الى الاستقالة بعد ما رأى أن ما يقترحه من اصلاحات لا يؤخذ به .

وقصر ساطع عمله بعد ذلك على العمل في مديرية الآثار العراقية لكنه لا ييأس من أن يعمل ما وسعه العمل في سبيل اصلاح المعارف العراقية ، فيقدم لوزارة المعارف في الخامس عشر من يناير عام ١٩٣٦ خطة خمسية يراها كفيلة باصلاح أحوال التعليم العراقي .. وأهم ما تضمنته خطة السنوات الخمس هذه ما أشار اليه ساطع في

ضرورة التوسع فى نشر التعليم الابتدائى ، وانشاء المزيد من المدارس ، وأما بالنسبة للتعليم العملى فيطالب بفتح الورش الصناعية لتعليم التلاميذ ، كما يقترح بالنسبة للتعليم العالى تزويد كلية الحقوق ودار المعلمين العليا بالاساتذة ، ويرى ضرورة الاهتمام بكلية الطب كى تكون هى وكلية الحقوق نواة الجامعة العراقية فى المستقبل ، وذلك كله الى جانب ما اقترحه من اهتمام بالمكتبات العامة ، والمبانى المدرسية ٠

ساطع مديرا للآثار القديمة بالعراق :

لم يأخذ القائمون على أمر التعليم فى العراق بما كان يقترحه ساطع من اصلاحات ، فلم ير بدا من الاستقالة من مناصب التعليم ، قاصرا عمله فى مديرية الآثار ــ العراقية ، وكانت هذه المديرية أحوج ما تكون لشخص مثل ساطع يعطيها من عنايته ، ويوليها من اهتمامه الشىء الكثير ٠ فأسست مديرية الآثار القديمة فى العراق سنة ١٩٢٠ ، تحت اسم الدائرة الاركيولوجية وتولت أمرها السكرتيرة الشرقية للمندوب السامى البريطانى ، وظل يتولى أمرها بريطانيون حتى عين لها ساطع فكان بذلك أول مدير وطنى لها ٠

تولى ساطع امر الآثار فى العراق فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٣٤ ، وكانت سمعتها قد وصلت الى الحضيض ، فالآثار تسرق وتهرب الى خارج البلاد ، وليس هناك من رقيب ٠ وكانت جميع الحفريات تقوم بها بعثات أجنبية ٠

وما كاد ساطع يتولى أمرها حتى يقرر أن تقوم المديرية بحفريات فى اطلال سامراء ثم هو يضع لها قانونا يحكم الرقابة على الآثار وعلى المتقدمين لعمل حفريات ، وحين يدعى الى مؤتمر دولى فى مصر سنة ١٩٣٧ للحفريات الاثرية ، ويعرض القانون الذى وضعه حتى لقى من المؤتمر كل استحسان ٠

ويؤمن ساطع أن العمل في مجال الآثار شأنه شأن العمل في مجال التربيه والتعليم من حيث ان الهدف منهما ينبغي أن يكون خدمة القوميه العربية ، فما تكاد الحرب العالمية الثانية تعلن ، ويتوقف وصول البعثات الى العراق للقيام بالتنقيب ، حتى يفرز أن تمضي دائرة الآثار بأعمال التنقيب ·· ولقد وفقت الدائرة الى كشف مداخل نينوى في الموصل ، وبدأ يقيم المعارض التي تعلن الفكرة الصحيحة عن الأزياء التي كانت تستعمل في عهد الأمويين والعباسيين · وجهز مرسما بالدائرة لهذا الغرض ·

يرى ساطع في العناية بالآثار العراقية عناية بتاريخ العراق ، وهو أمر ينبغي أن يعطى له كل اهتمام ·· ونلمس ذلك في المحاضرة التي القاها على فريق الكشافة العربي في متحف الآثار العربية في بغداد عام ١٩٣٧ حيث يقول : « ان الامة التي تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها شأنها شأن فرد فاقد الشعور ، هي بمثابة فرد يغط في نومه ، أو قل فرد في حالة اغماء ·· ان اهمال التاريخ القومي بمثابة الاستسلام الى الذهول ·· واهم ما يجب ان نستلهمه من التاريخ هو الايمان بحيوية الامة العربية، وبامكان حصولها على مجد جديد ، لا يقل شأنا عن المجد الذى نالته على مر العبور ·· ثم هو يبث روح الأمل في نفوس الشباب العربي ويذكر لهم اسطورة اليونان القديمة عن الأمل » (١)

ثم يقول ساطع : « يجب علينا الا ننسى ان الامل هو اثمن

(١) خلاصة هذه الاسطورة ان الآلهة باندور حازت كل شيء ، وسميت لذلك عطية الكل ، وحين غضب جوبتر على هرقل أراد أن ينتقم منه بواسطة الآلهة باندور فسلمها علبة وطلب منها ألا تفتحها وتسلمها لهرقل ، لكن حب الاستطلاع دفع باندور لفتح العلبة فخرجت منها جميع الشرور . واندهشت باندور لذلك ، وحاولت تغطية العلبة ، غير أنه لم يبق فيها الا شيء واحد وهو الامل .

عوامل العمل .. يجب أن نحرص عليه كل الحرص .. فلا نترك سبيلا للقنوط يتسلل الى القلوب . ليكن قلب كل منا شبيها بعلبة باندور يحفظ الأمل .. ولا يكتفي بحفظه فحسب .. بل يسعى الى تغذيته وتقويته الى أن يتحول الى ايمان لا يتزعزع ، يدفعنا الى العمل المتواصل بروح التضحية والاخلاص » .

طرده من العراق :

ثم كان ان خضع العراق خلال وصاية الامير عبد الاله على الملك فيصل الثانى لحكم رجعى بغيض مناوىء لكل نهضة تقدمية أو حركة تحريرية .. ولقد ساعدت ظروف الحرب العالمية الثانية الانجليز على أن يحكموا قبضتهم على أمور العراق ، منتهزين فرصة وجود عميلهم عبد الاله . ونجحت فى القضاء على الانتفاضة التحرريه التى قامت فى ذلك الحين ، والتى تعرف بحركة رشيد عالى الكيلانى وتفصيل ذلك أن الحكومة البريطانية طلبت من الحكومة العراقية قطع علاقاتها مع ايطاليا ، اسوة بما فعلته مع المانيا .. وكان رشيد عالى الكيلانى رئيسا للوزراء فى ذلك الحين ، وأما وزارة الخارجية فكان يتولاها نورى السعيد الذى اشتهر بتأييده للاستعمار البريطانى، كان كل من نورى السعيد وعبد الاله يؤيدان طلب بريطانيا ، وذلك خلافا لما كانت تراه بقية أعضاء الحكومة ، وخشيت بريطانيا من نوايا رشيد الكيلانى وطلبت من عبد الاله ابعاده .. وقام الوصى على العرش العراقى على الفور بابلاغ ذلك الى رئيس ديوانه الذى أبلغه لرئيس الوزراء . لكن مجلس الوزراء العراقى قرر الاجتماع، وأصدر قرارا بعدم الاذعان للمطلب البريطانى ، ثم كان أن اجتمع العقداء الأربعة الذين كانوا على رأس القوات المسلحة المرابطة فى العاصمة العراقية (بغداد) وقرروا التدخل فى الأمر ، لكن رشيد عالى الكيلانى لفرط حبه للعراق ولوطنيته خشى على بلده من مغبة

هذه التطورات ، فقدم استقالته التي قبلها الوصي على العرش على الفور ، وأصدر أمرا بتعيين طه الهاشمي رئيسا للوزراء ٠

وما كاد يتولى منصب الحكم حتى يصدر اوامره باعتقال العقداء الاربعة ، لكنهم كانوا اسرع منه فتحركت قواتهم واجبروه على الاستقالة ، وفر عبد الاله فالتجأ الى الانجليز فى قاعدتهم بالحبانية ، واستدعى القادة العراقيون رشيد الكيلانى لتوليه أمر الوزارة ، وعهد بأمر الوصاية الى الشريف شرف ولكن عبد الاله ظل يشجع بريطانيا على عدم الاعتراف بالوضع الجديد ، فارسلت قوة عسكرية بقيادة الجنرال جلوب زحفت على بغداد واعادته الى منصبه ٠

عاد عبد الاله الى حكم العراق، وكان من الطبيعيأن تكون نفوس الثوار العراقيين ساخطة ، وكان من بين الساخطين ساطع الحصرى ، وأخذت تجمعات الثوار تبحث أوضاع العراق ، والاستبداد الذى خضع له ، والحكم العميل للاستعمار ٠ واجتمع ساطع مع بعض العراقيين فى منزل الصحفى المعروف الاستاذ روفاييل بطى ، وأخذوا يتذاكرون أحوال العراق ، وكان حكم ساطع على عبد الاله قاسيا وقال : ان رصاصة واحدة كفيلة بتخليص العراق منه ٠٠ ونقل ما قاله ساطع لعبد الاله ، وكان لابد من التخلص منه ٠

لم يكن هناك مفر من ان يتخلص عبد الاله من ساطع ، حتى ولو لم يقل ما قاله ، ولم يبلغه مابلغه ، فلم يكن العميل الاستعماري، وقد عاد الى حكم العراق على أسنة رماح الانجليز ، وفى حراسة دباباتهم ، أن يقبل وجود شخص كساطع معروف عنه نزعته التحررية وغيرته على أمته العربية ، وعناده للاستعمار ٠

وأصدر عبد الاله أمرا بسحب الجنسية العراقية من ساطع ، مستندا الى قرار كان موجودا آنذاك وينص على عدم منح الجنسيه

العراقية لكل شخص سكنت اسرته العراق بعد ١٩١٤ . وفى الحادى والعشرين يونيو عام ١٩٤١ جاء شرطى لساطع فى منزله يطلب جواز سفره ، وبعده بساعتين جاء رجل من قبل الحكومة يبلغه أن الحكومة قررت اخراجه من العراق ، واركبته القطار المتجه شمالا الى خارج حدود العراق (فى ١٩٤١/٦/٢٣) .

وغادر ساطع العراق بعد أن أقام فيها زهاء العشرين عاما ، وبعد أن أحدث بها نهضة تعليمية وثقافية لا ينساها له شعب العراق الى اليوم .

الفصل الثالث

القسم الثاني من حياة ساطع في البلاد العربية

١ ـ في لبنان

١٩٤١ ـ ١٩٤٤

لم يكن لما حدث لساطع على يد القوى الرجعية فى العراق ليفت فى عضده ،ولم يكن طرده من العراق أو نزع الجنسية العراقية منه دافعا له الى أن يكفر بما آمن به وعاش من أجله • كان ساطع يؤمن بأمته العربية الايمان كله ، وكان يعتقد أنها أحوج ما تكون الى جهود أبنائها المؤمنين بهاالعاملين من أجلها • وكان على يقين أن رواد النهضة العربية لا بد وأن تواجههم الصعاب ، لكنهم منصورن ان ثبتوا على ما نادوا به ودعوا اليه ، لا يتسلل اليأس والقنوط الى قلوبهم •

وعاش ساطع يحارب روح اليأس فى نفوس أبناء أمته العربية• يحدث الشباب العراقى بشأنه على نحو ما مر بنا ، وينادى بمقاومة هذا اليأس الذى تسرب الى نفوس البعض بعد حرب سنة ١٩٤٨ فى

فلسطين ، وبعد نكسة الانفصال بين الاقليمين الشمالى والجنوبى للجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ ، وبعد الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ على نحو ما سنسرده فيما بقى من حديث وفيما سيتسع له هذا البحث ٠

دراسته عن بن خلدون : أقام ساطع بعد أن اخرج من العراق فى لبنان وامتدت اقامته هناك حوالى أربع سنوات ، وخلال اقامته كتب الجزئين الأول والثانى من دراســـاته عن مقدمة ابن خلدون ٠

لقد أعجب ساطع كل الاعجاب بهـــذا الفيلسوف العــربى ، وسمى ابنه خلدون حبا وشغفا بهذا المفكر العربى ، وجاءت دراستهعن ابن خلدون تنبىء عن علم غزير ، وتعليقات اتسمت بســعة الأفق وخصب الفكر ٠٠ والواقع ان الشبه كبير بين الرجلين (ابن خلدون وساطع) ٠ عاش ابن خلدون وقد دمر التتـــار بغداد ، والاندلس يفلت من يد العرب ورأى ابن خلدون حصار يتمورلنك دمشق ، وشاهد ساطع حصار الفرنسيون لها ٠

وكما فشلت سفارة ابن خلدون لدى التتار ، فشلت سفارة ساطع لدى الفرنسيين ، أعجب ساطع بابن خلدون أثناء تدريسه لعلم الاجتماع فى دار المعلمين العالية ببغداد ، وتمنى لو استطاع أن يعد دراسة عن هـــذا العملاق العربى ٠ يقول ساطع : « ان كتـــابة دراسة منفصلة عن مقدمة ابن خلدون كانت من أعز الأمانى التى لم أنقطع عن التفكير فيها ، والعمل لاعداد وسائلها ، منذ مدة غير يسيرة ٠ انها كانت من جملة المشاريع الفكرية التى وضعتها لنفسى بغية انجازها ، فى الوقت الذى اتخلص فيه من أعباء الأعمال الرسمية ، وأتفرغ الى الدرس والتأليف فى المسائل التربوية والاجتماعية » ٠

ولقد شعر ساطع أن الفرصة قد واتته حين أقام فى بيروت بعد

طرده من العراق ، ويؤكد ســـاطع فى بحث عن ابن خلدون الذى أخرج الجزء الاول منه فى ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٤٢ والجزء الثانى عام ١٩٤٤ ، ان دراسته هذه ليست سوى بعض النماذج ، أو بعض الخطط لدراسات علمية يأمل أن تتم عن ابن خلدون ، فيستطيع من يقدم على هذه الدراســة العلمية أن يجد فى بحث ســاطع نموذجا ينسج على منوالها ويقدم على اتمامها ، فاذا تحقق الغرض المرجو من بحثه هذا عن ابن خلدون يكون قد أدى خدمة لذكرى مؤلفها العظيم ·

يعتقد ساطع أن الجيل المثقف الحاضر (وقت أن أعد بحثه عن ابن خلدون) مقصر فى أداء واجباته نحو هذا المفكر العربى العظيم تقصيرا كبيرا ، ان هذا التقصير لا يتجلى فى نظر ساطع فى ضآلة الدراسات فحسب ، بل فى رداءة الطبعات التى ظهرت فيها مقدمة ابن خلدون · ويصف ساطع جميع الطبعات العربية التى ظهرت للمقدمة بأنها ناقصة ومشوهة ومشوبة ببعض الأخطار المطبعية التى تشوه المعنى ، فضلا عن ضآلة الشروح التى لوجمعت فى محل واحد لما ملأت أكثر من ثلاث صفحات ·

ولقد أسدى ساطع خدمة كبيرة للتراث العربى حين أخذ يحقق بين الطبعات التى وجدت للمقدمة ، والنسخ الخطية التى عثر عليها · توصـــل ساطع الى أن أقدم طبعات كتاب بن خلدون هى طبعـة للمستشرق كاترمير فى ســـــنة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ميلادية ، حيث استند هذا المستشرق على أربع نسخ خطية ثلاث منها محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس ، واحداها فى المكتبة العامة فى ميونيخ ·· وأما أقدم الطبعات المصرية فقد تمت فى القاهرة تحت اشراف الشيخ نصر الهورينى حيث اعتمد هذا الشيخ على نسخة خطية ـ ذكرها عرضا باسم النسخة الفاسية · ونقل بالاضافة اليها فصلا واحدا من نسخة أخرى سماها النسخة التونسية ·· ثم هناك طبعة بيروتية

تحت اشراف الكاتب رشيد عطية والمعلم عبد الله البستاني ، كما أصدرت المكتبة التجارية بمصر طبعة مشكولة جديدة ، لكن ساطعا يؤكد أنه بمقارنة هذه الطبعة بطبعة بيروت يتضح ان طبعة المكتبة التجارية لم تراجع شيئا من النسخ الخطية ، بل كانت نسخة طبق الأصل من الطبعة البيروتية باغلاطها ونواقصها .

ثم يدرس ساطع النسخ المترجمة لمقدمة بن خلدون وينتهى الى القول ان هناك نسختين مترجمتين لها ، احداها باللغة التركية والثانية بالفرنسية ، ولما كانت الترجمة التركية أقدم من الطبعات العربية فلا جدال انها اعتمدت على نسخ خطية ، أما الترجمة الفرنسية فقد تمت على يد البارون دو سلان De slane ونشرت فى باريس فى ثلاثة مجلدات الأولى سنة ١٨٦٣ . والأخير سنة ١٨٦٨ م . ويقارن ساطع مقارنة لها أهميتها الكبيرة فى دراسة هذه المقدمة بين الطبعات بعضها ببعض مع ملاحظة النسخ المترجمة .

ثم هو يدعو الباحثين الى محاولة الحصول على النسخ المخطوطة لابن خلدون ودراستها وهو ما تعذر على ساطع القيام به ، وخاصة النسخة التونسية التى أشار اليها صاحب الطبعة المصرية للمقدمة (الشيخ نصر الهوينى) ، لأنها أقدم النسخ للمقدمة والتى كتبها ابن خلدون قبل هجرته الى مصر ، فاذا اتم ذلك أمكن الوقوف على التطورات التى حدثت فى اسلوب ابن خلدون وعقليته والتغيرات التى حدثت فى معلوماته ونزعاته خلال هذه المدة تحت تأثير حياته الجديدة وبيئته فى مصر ، يقول ساطع : « انى آسف كل الأسف على أننى لم أكن الآن فى وضع يمكننى من الحصول على النسخة المذكورة ، أو الوصول اليها لاتولى دراستها ومقارنتها بنفسى ، ولذلك أرانى مضطرا للاكتفاء بتسجيل رأيى فى أهمية هذه النسخة وخطورة هذه

المقارنة وأدعو الباحثين الذين يهتمون بأمر ابن خلدون ومقدمته الى القيام بهذه المهمة على ضوء الملاحظات التى سردتها آنفا » ٠

ثم هو يدعو الى دراسة الترجمة المفصلة التى كتبها ابن خلدون عنه بنفسه عن حياته ، والتى هى محفوظة (وقت أن نشر ساطع بحثه هذا عن بن خلدون) بحالة مخطوطة فى زوايا مكتبة فى القاهرة ، ومكتبتين فى استانبول ، وهو أمر يحول بين الغالبية وبين أبناء الامة العربية من الاطلاع عليها والالمام بها ٠

وأهم ما يركز ساطع حوله الحديث فى هذه الدراسة لمقدمة ابن خلدون نفيه لما حاول البعض الصاقه لهذا العلامة الكبير بأنه نعت العرب بأوصاف تحقر من شأنهم ، وأنه كان من الكافرين بالعروبة ٠ وكان بسبب هذا الفهم الخاطىء لكلمة العرب فى استخدام ابن خلدون ان هاجمه الكثيرون ، ومنهم مدير المعارف العام العراقى ، أثناء وجود ساطع بالعراق فى خطبة ألقاها على المعلمين العراقيين ، زاعما انه كان من الكافرين بالعروبة ، وقائلا بوجوب حرق كتبه ونبش قبره باسم القومية ٠ وانبرى ساطع فى ذلك الحين يرد على مزاعم المدير العراقى فى مقالة كتبها فى ذلك الحين ونشرتها له مجلة لبنانية ، ودعا ساطع الى انه ينبغى أن يكون لدى العرب (نظرة قومية متنورة) ، كما كتب بحثا آخر حول هذه المعنى فى صحيفة عراقية كانت تصدر فى ذلك الحين باسم جريدة البلاد ٠

ومن ثم كان أهم ما يعنى ساطع فى هذه الدراسة عن ابن خلدون أن يعود الى بحث هذه المسألة لأهميتها الخاصة عنه ، وعند كل مشتغل بالفكر القومى ٠

يوضح ساطع انه كان علماء اللغة وواضعوا المعاجم الآن قد

صاروا يميزون بين كلمة عربى وعرب وبين اعرابى واعراب ، غير ان هذا التمييز لم يكن قديما تماما • ويستشهد ساطع بما جاءت به معاجم اللغة العربية قديما وما تقوله : تعرب الرجل بمعنى أقام بالبادية وصار اعرابيا • وهناك من العوام – كما يقول ساطع – فى جميع البلاد العربية من يستعمل كلمة العرب بمعنى البدوى والفلاح • « فكثيرا مانرى العوام يقولون : ذهب الى العرب بمعنى ذهب الى البادية » • ثم يقول ساطع : « ان هذه العادة (قول العوام عن البدو بأنهم عرب) فى حديث العوام قد لفتت نظرى بوجه خاص أثناء كنت مديرا عاما للمعارف فى العراق، ولهذا السبب أصدرت بلاغا عاما بتاريخ أول كانون الثانى (يناير ١٩٢٤ ألفت فيه نظر جميع المديرين والمعلمين الى هذا الأمر وأحرم عليهم استخدام كلمة عربى بمعنى فلاح أو بدوى » •

ثم يناقش ساطع أقوال ابن خلدون فى هـذه الناحية وهو ما اتخذ سبيلا للتهجم عليه من ذلك قوله فى احد فصول المقدمة : (ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب) والدليل عند ابن خلدون على ذلك قوله : فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له ، فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصـــبه أثافى للقدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ، ويعدونها لذلك ، والخشب أيضا انما حاجتهم اليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، فيحزمون السقف عليه لذلك •

ويخلص ساطع عن قول ابن خلدون هذا ان مدار بحثه هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام • ثم ينتقل الى الفصل الذى يقول فيه ابن خلدون : « ان جيل العرب فى الخلقة طبيعى »• وفيه يقول : « واما من كان معاشهم من الابل ، فهم أكثر ظعنا وابعد فى القفر مجالا • فكانوا لذلك أشد الناس توحشا ، وينزلون من

أهل الحوافر منزلة الوحش غير المقدور عليه ، والمفترس من الحيوان العجم ، وهؤلاء هم العرب ، وفى معناهم ظنون البربر وزناتة بالمغرب، والاكراد والتركمان والترك بالمشرق ، الا أن العرب أبعد نجعة واشد بداوة • لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط ، ويؤكد ساطع أن المفهوم من هذه العبارات ولا سيما العبارة الأخيرة ما قصده ابن خلدون من كلمة العرب فلقد قصد بها بمالا يدع مجالا للشك أعراب البادية الذين يعيشون خارج المدن » (١) •

ثم يعود ساطع ليؤكد ذلك فيما جاء به ابن خلدون فى الفصل الأخير من مقدمته عن العلوم ، يشبهها الصنـــائع فيأتى بقول ابن خلدون من كلمة العرب فلقد قصد بها بمالا يدع مجالا للشك أعراب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب)•

ومعنى هذا فى رأى ساطع أن استعمال ابن خلدون كلمة العرب مقابلة لكلمة الحضر أمر لا يدع مجـــالا للشك فى انه كان يقصد بها البدو •

وينبرى ســـاطع فى الجزء الثـــانى من كتابه عن ابن خلدون للدفاع عن هذا المفكر العربى ، وعما يعتقد أن البعض تجنوا عليه ، ومن ذلك ما كتبه ــ كما يقول ساطع الاستاذ الدكتور طه حسين فى بحث له باللغة الفرنسية عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، والتى نقلها للعربية الاستاذ الكبير محمد عبد الله عنان • ويعتقد ساطع ان فيمـــا يقـــوم به من رد على أولئك الذين تجنوا على ابن خلدون واجب تدفعه اليه الامانة العلمية ، وليس بدافع التعقيب والتحزب

---

(١) يوافق المستشرق الفرنسى Deslane ساطع الحصرى فى رأيه بقوله
Les Arabes d' Ibn Khaldoun Sout Les Arabes Nomades.
كتب دوسلان فى المجلد الثالث من الترجمة لمقدمة ابن خلدون فى معجم الالفاظ الملحقة بها مقابل كلمة عرب العبارة الصريحة التالية ان عرب ابن خلدون هم الاعراب

له . ويرجو ألا يغمط الباحثون ابن خلدون حقه وذلك بمقارنة ما جاء به ابن خلدون بالقياس الى ما وصلنا اليه من معرفة وعلم « وانما ينبغي ونحن ندرس مقدمته ألا ننسى انه من رجال القرن الرابع عشر الميلادى ، فعلينا ونحن ندرس فصول هذه المقدمة أن نستعرض ما كان يقول به المفكرون فى هذا الصدد فى العصر الذى عاش فيه ابن خلدون وفى العصور التى اتت بعده » .

يطالب ساطع اذا الباحثين العرب ألا يطالعوا مقدمة ابن خلدون والا يقرءوها ، كما نطالع نحن ونقرأ المؤلفات العصرية غير ملقين بالا للقرون الطويلة التى تفصل بيننا وبين تاريخ كتابة المقدمة المذكورة ، فى حين أن قيمة المؤلفات القديمة ومنزلةالمفكرين القدماء – على حد قول ساطع – لا يمكن أن تقدر على هذه الطريقة . فكل عالم ومفكر يشترك بوجه عام مع معاصريه فى معظم آرائهم، فيشاطرهم أكثر اخطائهم ولا يمتاز عليهم الا فى بعض الآراء التى يوفق الى ابتكارها ، وبعض المعلومات التى يتوصل الى اكشافها . ولذلك فان منزلة الباحث والمفكر فى تاريخ العلوم والأفكار لا تتعين كما يقول ساطع بملاحظة جميع الآراء الصائبة والخاطئة التى جاءت فى كتاباته ، ومؤلفاته المختلفة ، بل تتقرر بملاحظة الآراء المبتكرة التى يسمو بها على معاصريه ، والحقائق الجديدة التى يضيفها الى المكتبات الفكرية البشرية .

ويخلص ساطع من هذا القول الى أن علينا أن نقارن المقدمة بكتاب من امثالها مقارنة شاملة كما يحق لنا أن نقارن الآراء الثمينة المستخرجة منها بما استخرج من أمثالها . ويقول ان دراسته لابن خلدون استهدفت ذلك بغية اظهار منزلة مؤلفها العظيم على هذا الأساس .

وظل ساطع يشعر أن عليه دينا ينبغى عليه الوفاء به تجاه

هذا المفكر العربي الذى غمطه الباحثون عامة والعرب خاصة حقه من الدراسة والبحث • لذلك لم تحل مشـــاغله دون المضى قدما فى دراسة كل ما يصل اليه عن ابن خلدون • ففى عام ١٩٥٠ سافر ساطع الى تونس (وكان وقتها يعمل بالجامعة العربية) لدراســة الآثار والذكريات المتعلقة بابن خلدون هناك • وكانت هذه زيارته الثانية لتونس فلقد اتيح له زيارتها من قبل سنة ١٩٣٩ خلال عمله فى العراق مديرا للآثار القديمة حيث سافر الى افريقية الشمالية لدراسة الآثار العربية القائمة بها ، وزار خلال هذه الرحلة المغرب والجزائر وتونس وانتقل منها الى صقلية وزار ايطاليا •

ولقد سعد ساطع ان وجـد الناس فى تونس يعرفون تماما الدار التى ولد فيها ابن خلدون وترعرع فيها ، وتقع هذه الدار فى أحد الشوارع المهمة من المدينة القديمة وهو الشارع المعروف باسم تربة الباى ـ وتشغل مدرســة الادارة العليا هــذه الدار منذ عدة سنوات • وقد وضع على جانب بابها لوحة رخامية تحمل اسم ابن خلدون وتذكر الناس بمولده فيها • وزار ساطع فى آخر شارع تربة الباى كتابا صغيرا تحت قبة جميلة يسمى مسيد القبة (وكلمة مسيد محرفة من كلمة مسجد ، والكتاب على حد قول ساطع يسمى فى تونس مسيد) ويروى ان ابن خلدون درس فى هذا الكتاب ، وأما قلعة ابن سلامة التى كتب فيها ابن خلدون مقدمته الشـــهيرة فموقعها معلوم لدى الجميع وانها تقع على بعد خمسة كيلو مترات من مدينة فرندا الحالية التابعة الى مقاطعة وهران فى الجزائر ، واطلال القلعة شاخصة الى الابصار هناك •

ويتأسف ساطع الحصرى لان الذاكرة الشعبية فى مصر لم تحفظ شيئا عن ابن خلدون وأن قبره غير معروف فى القاهرة التى عاش فيها مدة أربع وعشرين سنة •

وفى سنة ١٩٥٢ سافر ساطع الى استانبول للاشتراك فى المؤتمر الأممى الخامس عشر لعلم الاجتماع حيث قدم بحثا عن ابن خلدون باللغة الفرنسية وكان عنوان البحث الذى القاه :

علم الاجتماع عند ابن خلدون La socioliogie d'Ibn Khaldoun

وانتقد ساطع فى هـذا البحث الذى ألقاه آراء الاستاذ الفرنسى جاستون بوتول Gaston Bouthoule استاذ الدراسات العليا فى باريس ، فقد زعم هذا الاستاذ الفرنسى أن ابن خلدون كان من القدريين Fatalists أى ممن يعتقدون أن الامور تحدث بحكم القضاء والقدر • فانبرى ساطع يثبت أن ابن خلدون برىء من هذا الزعم ، وأنه كان يقول دائما هذه الامور تحدث على هـذا المنوال من جراء طبيعة الأشياء • كذلك انتقد ساطع ما قاله بوتول الفرنسى فى كتابه عن ابن خلدون والذى اسـماه ابن خلدون وفلسـفته الاجتماعية Ibn Khaldoun sa philosophie Sociale (١) حين قال أن ابن خلدون كان يعرف الشىء القليل عن التاريخ القديم وانه كان يعتقد مثل العوام أن الآثار الرومانية من مبانى العمالقة ، ومع تسليم ساطع ان ابن خلدون لم يكن يعرف شيئا عن التاريخ القديم ، وعن تاريخ الرومان بوجه خاص ، فانه لم يعتقد أبدا ان الآثار الرومانية من مبانى العمالقة • بل ان ابن خلدون على حد قول ساطع فند الروايات الشائعة بين الناس فى هذا الشأن • ثم تساءل ساطع عن السبب الذى دعا الاستاذ بوتول ان يقول ذلك ، ثم يفسره بانه (بوتول) لم يكلف نفسه عناء قراءة الفصل بكامله الذى كتبه ابن خلدون عن هذه الناحية ولذلك لم يطلع بوتول على ما كتبه ابن خلدون فى نقد وتجريح تلك الخرافات ، فتوهم ان ابن خلدون اعتقد بصحتها •

---

(١) قامت الدار المصرية للتأليف والترجمة بترجمة هذا الكتاب سنة ١٩٦٤ وقام بالترجمة الاستاذ غنيم عبدون •

واستشهد ساطع فى قوله بما جاء فى الترجمة الفرنسية للمقدمة التىقام به دوسلان Deslane ولم يكف ساطع عن دراسة ابن خلدون فاخرجت له دار المعارف فى السنة التالية لهذا المؤتمر (١٩٥٣) دراسة موسعة عن ابن خلدون ضمت الدراسة التى كان قد قام بها فى عام ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ • والتى نفدت طبعتها ، كما اشتملت هذه الدراسة الموسعة على درسة لتاريخ حياة ابن خلدون • ومن المعروف أن الباحثين قد استجابوا لدعوة ساطع التى دعا اليها فى كتابه الذى وضعه عن ابن خلدون عام ١٩٤٣ وطالب فيها بنشر مخطوط ترجمة ابن خلدون • فلقد نشر هذا المخطوط سنة ١٩٥١ بمعرفة لجنة التأليف والترجمة والنشر بعد التحقيقات التى قام بها والحواشى التى كتبها السيد محمد بن تاويت الطنجى ، ويهتم ساطع بهذا التعريف الذى كتبه ابن خلدون عن تاريخ حياته لماتضمنه من الوثائق والمعلومات التاريخية والأدبية •

بعد ذلك يقسم ابن خلدون بحثه فى هذه الطبعة الموسعة عن ابن خلدون ثلاثة أقسام •• القسم الأول نظرات وملاحظات عامة ، والقسم الثانى مكانة ابن خلدون فى تاريخ فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، أما القسم الثالث فقد خصصه ساطع لآراء ابن خلدون ونظرياته •

واذا ما اردنا ان نعرف الجهد الذى بذله ساطع فى دراسة ابن خلدون ما بين صدور كتابه الأول عنه سنة ١٩٤٣ ، وصدور الطبعة الموسعة بعد ذلك بعشر سنوات القينا نظرة على بعض الدراسات التى اضافها فى طبعته هذه والتى لم يتضمنها كتابه الأول •

جاء ساطع فى هذه الطبعة الموسعة بدراسة عن مؤلف المقدمة اسرته ، عصره ، حياته •:

ثم آثاره وابن خلدون فى الذاكرة الشعبية • حول ابن خلدون

وكونت · أسلوب المقدمة ومفرداتها اللغوية · وتأثير ابن خلدون فى كتاب الاتراك ومؤرخيهم · اكتشاف ابن خلدون فى أوربا ــ نقد كتاب البروفسور غاستون بوتول · خريطة تبين مســـارح حياة ابن خلدون · تاريخ ولادة ووفاة أهم فلاســفة التاريخ بعــد ابن خلدون ·

ثم يختتم ســـاطع بحثه عن ابن خلدون برجـاء الى باحثى المخطوطات العربية ألا يتوانوا فى البحث عن النســـخة التونسية للمقدمة وهى النسخة التى قدمها المؤلف الى السلطان الحفصى فى تونس قبل نزوحه الى مصر ، وكان ساطع يعتقد انه سيعثر على هذه النسخة فى دار الكتب المصرية عندما أقام فى القاهرة ، ولكنه لم يعثر عليها ، ثم كان يأمل أن يجدها فى تونس فسافر اليها سنة ١٩٥٠ على نحو ما سبق القول لـكنه لم يوفق فى بحثه · يدعو ســاطع الباحثين ألا ينقطعوا عن البحث عنها مؤكدا لهم أن اكتشاف النسخة المذكورة سيكون ذا قيمة علمية وتاريخية كبيرة ·

٢ ـ فى سورية

١٩٤٤ ـ ١٩٤٧

بعد أن أقام ساطع فى لبنان زهاء أربع سنوات (١٩٤١ ـ ١٩٤٤) دعته الحكومة السورية للعمل بها مستشارا فنيا للمعارف، وكان من الطبيعى أن تقع دعوة الحكومة السورية من نفسه ومن قلبه موقعا محببا ، ذلك ان لسورية مكانتها الخاصة فى نفس ساطع، فلقد عاصر فيها أحداثها السياسية التى أطاحت بأول حكم عربى شهدته سورية فى عصرها الحديث .. وخرج منها ساطع بعد استيلاء الفرنسيين عليها ، وهو يدعو الله أن يعطيه من العمر حتى يشهد يوم خروجهم منها ، وحقق الله لساطع ما تمناه ، فعاد اليها وهى قاب قوسين أو أدنى من حصولها على الاستقلال الذى تحقق لها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

عهدت الحكومة السورية لساطع مهمة دراسة نظم التعليم السورية ، ووضع ما يراه من مقترحات كفيلة باصلاحه ، وعكف ساطع على الفور على القيام بما عهد به اليه ، فدرس أحوال المعارف فى سورية وأعد ستة عشر تقريرا فى شأن اصلاح التعليم السورى: التقرير الاول والثانى عن اجراءات التعيين فى وزارة المعارف ، والروتين المعقد الذى يأخذ طريقا فى كل كبيرة وصغيرة من أمور الوزارة ، أما التقرير رقم (٣) الذى وضعه ساطع فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٩٤٤ فقد خصصه لبحث تشكيلات وزارة المعارف ، ثم وضع ساطع باقى التقارير تباعا التى تناولت التعليم الابتدائى (قدمه للحكومة السورية فى ٢٠ من ابريل عام ١٩٤٤)

والتقرير رقم (٦ ، ٧) عن التعليم الثانوى والمعلمين ودور المعلمين (قدمه للحكومة فى ٢٤ من ابريل عام ١٩٤٤)

التقرير رقم (٨) عن المبانى المدرسية (قدمه فى ٣ من مايو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (٩) عن الآثار القديمة والمتاحف قدمه فى ٣٠ من مايو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٠ ، ١١) عن التعليم الفنى والتفتيش (قدمه بتاريخ ١٤ من يونيو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٢) عن التعليم العالى والجامعة السورية (قدمه فى ١ من يوليو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٣) عن أنظمة الامتحانات العامة (قدمه فى ٢ من يوليو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٤) عن تنويع المدارس وتكييف المناهج (قدمه فى ٥ من يوليو عام ١٩٤٤)

تقرير رقم (١٥) عن الانظمة العامة والقوانين فى أمور المعارف (قدمه فى ٦ من يوليو عام ١٩٤٤)

ثم قدم ساطع بعد ذلك مشروعا بقانون عن نظام التعليم وآخر عن تشكيل وزارة المعارف ، وقد وافقت الحكومة السورية على المشروعين بقانون وقدمتهما للمجلس النيابى الذى وافق عليهما وأصبحا قانونين نافذين .

كما قدم تقريرا عن توثيق الصلات الثقافية بين سورية وسائر الاقطار العربية وكيفية السبيل الى تحقيقه .

وإذا كان الحديث فى هذا البحث لا يسمح بتناول كل هذه المقترحات التى قدمها ساطع مستهدفا بها اصلاح التعليم السورى، فاننا سوف نكتفى بالاشارة الى أهم ما احتوته هذه التقارير ·

طالب ساطع وزارة المعارف السـورية أن تسعى الى توحيد مصطلحاتها فى مجال المعارف مع سائر البلدان العربية · ولاحظ بالنسبة لتسمية الصفوف فى المدارس التجهيزية والاكمالية انهـا تسير من الاعلى للأسفل بمعنى أن التلميذ فى آخر سنة له بالمدارس الثانوية يعرف بانه فى السنة الاولى ، بينما تتبع عكس ذلك فى التعليم الابتدائى فتسمى الصفوف من أسفل الى أعلى · فيجب على وزارة المعارف السورية ـ على حد قوله ـ الا تقلد فرنسا فى هذه الناحية ·

واقترح ساطع الحصرى كذلك على وزارة المعـارف السورية أن تلغى اسم المدرسة التجهيزية ، وتسميها بالثانوية ، مثلما تفعل مصر وباقى البلاد العربية ، وكذلك اسم المدرسة الاكمالية الذى هو مقتبس من فرنسا ، لكنه فى سورية مطبق على غير المقصود منه عند الفرنسيين ، فالدروس الاكمالية فى فرنسا هى الدورة التى تضاف الى الدورات الثلاث الموجودة فى المدارس الابتـدائية بغية اكساب الطلاب بعض المعلومات الاكمالية ، وهذه الصفوف تكون عادة ملحقة بالمدارس الابتدائية ومستقلة عن المدارس الثـانوية ، لكن وضع المدارس الاكمالية التى وجدت فى سورية فى ذلك الحين كان مختلفا عن ذلك ، لأنها (المدارس الاكمالية) فى سورية تتولى مهمة الدورة الاولى من الدراسة الثانوية · وطالب سـاطع بأن يحتفظ بتعبير الاكمالية للدلالة على الصفوف التى تفتح لاتمام معلومات الطلاب بعد الدراسة الابتدائية ، وأما المدارس الاكمالية الحالية التى ما هى الا القسم الاول من المدرسة الثـانوية فيجب أن تسمى باسم خاص جديد ، واقترح تسميتها بالمتوسطة شأن ما هو حادث فى العراق·

أما عن الجـــامعة السورية التى كانت نواتها فى ذلك الحين معهدى الطب والحقوق ، فاقترح ساطع لاصلاحهما الاستعانة بعدد من الاساتذة الجامعيين غير السوريين ، ويفتخر ســاطع بأن هذين المعهدين كانا أول كليتين تدرسان علومهما باللغة العربية بين كل الكليات الجامعية فى البلاد العربية ، ثم يقول: «ان الجامعة السورية بحاجة شديدة الى اصلاحات كلية تتناول جميع الاسس التى تقوم عليهـــا ، ولا يمـكن أن يتم ذلك بغير الاستعانة بخبرات عدد من الأساتذة الجامعيين غير الســوريين • انى أعرف أن ظروف الحرب الحالية (الحرب العالمية الثانية) تحدد الوسائل التى يمكن الحصول عليها وتحول لذلك دون اتمام الاصلاحات المطلوبة ومع هذا اعتقد أنه يترتب على الحكومة السورية أن تشرع فى التفكير فى أمر بنايات الجامعة حالا وأن تقوم بالاصلاحات الجزئية التى يمكن انجازها الآن •

ثم أعد ساطع مشروعا بقانون لتنظيم أمور التعليم فى سورية، وقد لقى هذا المشروع موافقة الحكومة السورية ، وتصديق المجلس النيابى السورى ، فقد أقر المجلس هذا المشروع بقـانون بحماسة منقطعة النظير •

وأهم ما استحدثه ساطع من اصـــلاح هو تخليصه للتعليم السورى من أن يكون تابعا للتعليم الفرنسى ، مثلما جاهد فى العراق لتخليص التعليم فى العـــراق من تبعيته للتعليم الانجليزى ، كان ســـاطع يؤمن ان ظروف كل بلد تختلف عن الاخرى وأن النفــوذ الثقافى مقدمة للنفوذ السياسى ، أو هو مكمل له ، فاذا ما تخلصت بلد من سيطرة سياسية عليها فعليها أن تتخلص من التبعية الثقافية• وليس معنى ذلك كما يؤكد ســاطع الاستغناء عن ثمـــار الثقافات الاجنبية ، وانمـــا القصد منه تخليص المعارف السورية من قيود التبعية للمعارف الفرنسية ، وحين أقـــدم ساطع على ذلك هاجمه

الكثيرون فذكرهم بما قيل عنه فى العراق حين أقدم على اصلاح التعليم فيه حيث اتهمه البعض انه يريد أن يستبدل بالثقافة الانجليزية فى العراق الثقافة الفرنسية . لكنه الآن وهو يهاجم تبعية التعليم فى سورية للتعليم الفرنسى فهل معنى ذلك أنه عاد وارتمى فى أحضان الثقافة الانجليزية ؟

ويؤكد ساطع انه لا يشـــغل نفسه بأيهما أرقى هل الثقافة الانجلو ساكسونية أو الفرانكو لاتينية « انما أنا أبحث عما هو أنسب لنا وأصلح » .

وألغى ســاطع تعليم اللغـــة الاجنبية فى المدارس الابتدائية السورية ، على نحو ما فعل فى العراق ، لصعوبة تعلم الطفل لغتين فى وقت واحد ، حسبما قرر خبراء التربية والدارسون لأمور الطفل هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لصعوبة اللغـــة العربية ذاتها مما لا يدع مجالا للشك فى أن تعلم قواعد هذه اللغة ، وهــذا الخط يتطلب من أطفال العرب جهدا ذهنيا أكبر بكثير مما تتطلبه سائر اللغات . كما أنقص مدة التعليم الثانوى من سبع سنوات الى ست، وغير أسماء الصفوف فى هذه المرحلة الثانوية ، فجعلهـا تبدأ من أسفل الى أعلى ، وجعل مدة الدراسة الابتدائية خمس سنوات بعد أن كانت أربعة وجعل السنوات الأربع الاولى منها حلقة تامة والسنة الاخيرة متممة لها .

وضع ساطع نصب عينيه فى اصلاحه للتعليم السورى خدمة الهدف القومى ، فنصت المادة الاولى من مشروع قانون المعارف العامة الذى وضعه فى سورية ما يلى بخصوص واجب وزارة المعارف : مهمة وزارة المعارف تربية الجيل الجديد تربية صالحة من جميع الوجوه البدنية والخلقية والفكرية ليصبح كل فرد من أفراده قوى البدن حسن الخلق صحيح الفكر محبا لوطنه معتزا بقوميته مدركا لواجباته ومزودا بالمعلومات التى يحتاج اليها .

ولذلك اشترط ساطع (فى المادة ٤٥ من مشروع القانون الذى قدمه للحكومة السورية) أن تدرس جميع المدارس الخاصة الابتدائية والثانوية اللغة العربية ، وتاريخ العرب ، وجغرافية البلاد العربية ، حسب منهج وزارة المعارف ، وان ذلك أمر اجبارى ، ويجب ألا تقل دروس اللغـــة العربية عن خمس ساعات أســـبوعية فى الصفوف الابتدائية ، وعن ثلاث ساعات فى صفوف المدارس الثانوية ٠

وأعطى ساطع للجامعة السورية استقلالها وشخصيتها الخاصة، وتوخى أن تكون مهمة المدرسة شيئا أكثر من مجرد التعليم فمهمتها التربية فنجـده يقول : « لقد اعتاد الناس أن يتوخوا من المدرسة التعليم وحده ٠ انهم كثـــيرا ما يظنون ان روح المدرسة وجوهرها ينحصر فى الصفوف ، ان واجب المدرسة مراعاة التربية البـدنية والاجتماعية كما أن عليها مراعاة نفسية الطفل والتشويق والترغيب وغيره من أسس التربية » لقد ألم ساطع بكل ما قاله خبراء التربية فى مجال التعليم ، منذ بدأ يمارس العمل فى هذا المجال مع بداية أيام القرن العشرين بعد تخرجه من المدرسة الملكية فى القسطنطينية على نحو ما مر بنا ٠

ثم هو يقترح توثيق الصلات الثقـــافية بين سورية والبلاد العربية ، ويرى ساطع ان سورية كانت فى طليعة البلاد التى آمنت بالفكرة العربية وعملت من أجلها وان الشعب السورى الذى كان ولا يزال مؤمنا بالوحدة العربية ايمانا راسخا ، وكان ولا يزال أبعد الشعوب العربية عن التيارات الاقليمية التى تحد من فكرة القومية٠ من أجل هذا ينبغى أن تكون سورية فى طليعة البلاد العربية التى تسعى لتقوية الروابط الثقافية بينهـا وبين شقيقاتها العربيات ٠ واذا كانت السلطة الاجنبية (الفرنسية) التى حكمت ســورية منذ مدة قاربت ربع قرن قد خالفت هذا النهج وعملت على محاربة هذا الايمان فلقد استهدف الفرنسيون أن يبعدوا سورية عن التيارات

الرامية الى توحيد الثقافة العربية ، بل بذلوا الجهود لمحاربة فكرة الوحدة العربية بل فكرة الوحدة السورية ذاتها . ثم ينتقد ساطع ما أدخله الفرنسيون على قانون التعليم العالى السورى بحصر أستاذية الجامعة فيمن يحملون شهادة الدكتوراه من معاهد سورية وفرنسا فقط بينما تقضى منفعة التعليم والعلم بانتقاء أساتذة الجامعة من بين أرقى أرباب العلم والاختصـــاص بقطع النظر عن منشأ شهادة الدكتوراه التى يحملونها » . كذلك تضمن قانون التعليم السورى ان الشهادة الفرنسية تعتبر مثل الشهادة السورية لها الرجحان على شهادات البلاد الاجنبية الاخرى ولقد طالب ساطع بالغاء ذلك على الفور « ولا حاجة الى بيان أن تعبير البـــلاد الاجنبية الواردة فى القوانين القصد منه مصر والبلاد العربية الاخرى » .

ثم هو يحمل على القـــائلين بعدم امكان الوحدة الثقافية بين البلاد العربية وهو ما سنتناوله بالحديث فى موضع آخر من هذا البحث .

وأشار ساطع فى ذلك الحين بما وضعته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٤١ من مشروع لعقد مؤتمر تعليمى عربى غرضه البحث فيما يجب عمله لحل المشاكل التعليمية وتقريب المناهج الدراسية ، غير أن ظروف الحرب العالمية الثـــانية حالت دون تحقيق هـــذا المشروع فاستبدلت وزارة المعارف به مشروعا لمكتب التعاون الثقافى ، وأسس المكتب المذكور بعضوية مصر والعراق ، وعندما حصلت سورية على استقلالها دعتها مصر للاشـــتراك فى عضوية هذا المكتب ، ولبت سورية الدعوة . ورأى ساطع أنه أصبح من واجبات وزارة المعارف أن تتهيأ للقيام بالمهام التى ترتبت على عضويتها فى مكتب التعاون الثقافى ، ثم هو يطالبها بتشجيع تبادل الكتب والمجلات ومقـــاومة استخدام اللغة العامية ، لقـــد كان ساطع يرى ان دعاة الاقليمية يشجعون استخدام اللغة العامية فى البلاد العربية بغية القضاء على

أهم رابطة تجمع بين أبناء هذه الامة وهى اللغة ، وسنعرض لذلك عند حديثنا عن القومية كما تصورها ساطع ·

ووافقت الحكومة السورية على ضرورة تنظيم الصلات الثقافية بين سورية والبلاد العربية فعهدت الى ساطع أن يضمن مشروعه لاصلاح التعليم السورى ما يراه من مقترحات كفيلة بذلك · يعتقد ساطع أن واجب وزارة المعارف السورية ينقسم الى ثلاثة أقسام فى مجال توثيق وتنظيم الصلات الثقافية :

١ ـ رفع الموانع والحواجز التى تعرقل الصلات الثقافية وتحول دون توثقها ·

٢ ـ العمل لضمان التقارب بين مناهج الدراسة فى البلاد العربية المختلفة ، وتوحيد الاتجاهات الاساسية المرسومة لها ·

٣ ـ التعاون مع وزارات المعارف فى البلاد العربية الاخرى فى جميع الاعمال الانشائية التى تساعد على تكوين ثقافة عربية موحدة·

لقد عاش ساطع يؤمن بأهمية توحيد الثقافة العربية بين جميع البلاد العربية كسبيل الى وحدة عربية ، ومن أجل هذا استأثرت الثقافة العربية باهتمامه البالغ وسنتناول ذلك عند حديثنا فى فصل ساطع على الثقافة العربية · لكننا نكتفى هنا ونحن نتناول جهود ساطع فى اصلاح التعليم السورى بالقول انه كان يؤمن بأن أهداف التربية فى البلاد العربية بناء مجتمع عربى يختلف عن المجتمع الحالى تماما ، يقول ساطع : « نحن نشعر بالتأخر العظيم والنواقص الكبيرة التى يلى بها مجتمعنا الحالى ـ ولذلك نسعى وراء مجتمع جديد يختلف عن مجتمعنا الحالى اختلافا كليا · ونحن لا نجهل نوع هذا المجتمع بوجه عام · اننا نعلم ان الامة العربية ظلت متأخرة فى مضمار الرقى والحضارة تأخرا كبيرا ومحرومة من ثمار العلوم

والفنون العصرية الحديثة حرمانا أليما . ونجد ان بعض أبنائها فى بعض الجهات لا يزالون يعيشون كما يعيش أجدادهم فى القرون الوسطى — ان لم نقل فى القرون الاولى ، لذلك نريد أن نتلافى هذا التأخر ، ونصلح هذا النقص ، لكى تصبح أمتنا متمتعة بنعم الحضارة العصرية من جميع نواحيها ومتبوئة المكان الذى يليق بها نظرا لعظمة ماضيها . اننا نعلم أن الامة العربية غلبت على أمرها وحرمت من نعم الوحدة والاستقلال منذ عهد بعيد .

« وقد تقاسمتها الدول المستعمرة أخيرا ، وأخذت تسعى بكل ما لديها من قوة سلطان لترسيخ نفوذها المادى والمعنوى فى البلاد التى استولت عليها . والتفرقة الادارية التى حدثت بهذه الصورة عقدت المشاكل الاساسية ، كما زادت الحيرة والارتباك بتأثير النزعات الدينية والمذهبية من جهة والتسويات الاستعمارية من جهة أخرى ، كما أخذت تتصادم بمقتضيات المشاكل الاقليمية أيضا بصور شتى . ان كل هذه الاحوال ترينا بوضوح تام الواجبات التى تترتب علينا فى هذه الظروف ، فعلينا أن نسعى لتوحيد البلاد العربية لتكون أمة قوية عصرية تستعيد مجدها الغابر وتدخل فى مصاف الأمم الراقية . ولذلك نحن لا نستهدف فى تربيتنا المحافظة على المجتمع الحالى بل نسعى لجعل الجيل الجديد عاملا لتكوين المجتمع الراقى الذى ينشده على الدوام » .

وركز ساطع اهتمامه فى تربية النشىء العربى على الناحية الاجتماعية ورأى ان ما ينقص المواطن العربى ليس الخصال الفردية وانما هى الخصال الاجتماعية . وعلينا ان نعمل على تخليص الفرد العربى من الانانية ونعوده الايثار ونقوى فيه روح الاقدام والتضحية .

وفى معرض تأكيده لاهمية الجانب الاجتماعى فى التربية كتب ساطع :

« كثيرا ما يتناقش المربون فى مسألة تقديم وتفضيل المطالب الفردية على الاجتماعية أو الاجتماعية على الفردية فى الجهود والمقاصد التربوية . اننى لا اتردد فى ترجيح المطالب والخصال الاجتماعية نظرا لأحوالنا العامة لأن العرب بوجه عام أقوياء من حيث الخصال الفردية ضعفاء من حيث الخصال الاجتماعية ، فيجب علينا ان نجعل أمر ازالة هذا الضعف من أهم المرامى فى جهودنا التربوية .

« اننا نرى فعلا عددا كبيرا من أفراد العرب ينجحون نجاحا باهرا فى جميع أقطار العالم وفى جميع نواحى الأعمال .. نشاهد ذلك على الأخص فى المهاجر ، بين العرب الذين يعيشون خارجا عن مواطنهم الاصلية ، فى الصين ، الهند الشرقية ، امريكا الشمالية والجنوبية . كل ذلك يدل دلالة جلية على قوة الخصال والقابليات الفردية فى الأمة العربية .

« فيمكننا ان نقول : ان ما يحتاج اليه العربى قبل كل شىء وأكثر من كل شىء هو التربية الاجتماعية التى تقوى وتنمى فى نفسه روح التضامن والطاعة والتضحية فتضمن له النجاح لا لفرد قائم بنفسه فقط بل كشخص خادم لأمته ايضا .

« ولذلك اقول بلا تردد يجب علينا ان نهتم بتقوية الخصال الاجتماعية أكثر من اهتمامنا بتنمية القوى الفردية .

ونادى ساطع بأنه ينبغى على السياسيين العرب ورجال الاحزاب أن يبعدوا بنشاطهم عن نطاق التعليم والمدارس « فمن واجبنا أن نترك المدارس فى موقف حيادى تام تتفق جميع الاحزاب والاشخاص على احترامها احتراما حقيقيا » .

ويؤمن ساطع بأنه لا ينبغي ان تهدف التربية فى البلاد العربية الى تنشئة الفرد بأحسن ما يمكن من الصور ، على أمل أن يحل مشاكل المستقبل بنفسه ، دون أن نفكر فى شكل المجتمع القادم منذ الآن . فهى طريقة لا ينبغي للمربين العرب ان يؤمنوا بها و ن يتبعوها لأنها قد تلائم أحوال الأمم التى تسير فى مقدمة الحضارة ، والتى تستطيع ان تقول دائما (ان الزمان يخدمنى دائما) يرى ساطع ان الأمة العربية بعيدة عن هذه الأحوال بعدا كبيرا بل بعكس ذلك يجد كل فرد من أبناء الأمة العربية نفسه معرضا لتيارات معاكسة متناقضة ، ويجد أن معظم التيارات الحاكمة مخالفة لمصالحنا القومية .. فاذا ما تركنا الأمور على حالها دون أن نسعى للسيطرة على هذه التيارات ـ بقوة التربية ـ ودون أن نجتهد لتوجيهها نحو تكوين المجتمع الجديد الذى ننشره ـ عن طريق التربية نكون قد تركنا الاجيال الجديدة عرضه لتأثير العوامل الخارجية الأجنبية التى تخالف مصالحنا القومية مخالفة تامة .. ولهذا السبب نحن مضطرون لحشد جهودنا فى تربية الجيل الجديد نحو الغاية القصوى التى ننشدها وهي توحيد الأمة العربية وترقيتها .

وما أظننا بعد نكسة الخامس من يونيو بحاجة لأكثر مما نادى به ساطع . ولعل القارىء العربى يشاركنى الرأى فى أن بيان (الثلاثين من مارس ١٩٦٨) الذى اجمعت عليه الجمهورية العربية المتحدة حين تقرر العمل بكل الطاقات فى سبيل انشاء الدولة العصرية فى مصر جاء متمشيا مع آراء ساطع ومع مطلبه من أبناء الأمة العربية .

٣ ـ فى مصر
منذ سنة ١٩٤٧

عند ختام مدة السنوات الثلاث التى تعاقد فيها ساطع مع الحكومة السورية انتقل الى مصر وتولى التدريس فى معهد التربية العالى بالمنيرة حيث ألقى سلسلة محاضرات عن التربية الاجتماعية ، واحتياجات التربية والتربية الوطنية والقومية ، واستمر فى هذا العمل ثلاث سنوات (من ١٩٤٧ الى ١٩٤٩) وفضلا عن ذلك القى ساطع فى قاعة الجمعية الجغرافية باسم كلية الآداب جامعة القاهرة ست محاضرات فى نشوء الفكرة القومية . وقد نشرت هذه المحاضرات للمرة الأولى فى القاهرة سنة ١٩٥١ وسوف نتعرض للحديث عنها عندما نتناول دور ساطع فى مجال حركة القومية العربية .

وبعد تكوين جامعة الدول العربية وتشكيل ادارتها الثقافية عين ساطع مستشارا فنيا فى هذه الادارة اعتبارا من عام ١٩٤٨ .

شهدت هذه الفترة اضخم نشاط لساطع فى مجال الثقافة فبدأ باصدار سلسلة حولياته الثقافية .

صدرت الحولية الأولى لساطع سنة ١٩٥٠ تتناول الشئون الثقافية فى البلاد العربية من سنة ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠ .

ثم صدرت الحولية الثانية سنة ١٩٥٢ تتناول هذه الشئون من سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ .

كما صدرت الحولية الثالثة سنة ١٩٥٣ تتناول الفترة من سنة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ .

ثم كانت الحولية الرابعة سنة ١٩٥٤ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣ ٠

وصدرت الحولية الخامسة سنة ١٩٥٧ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣

وآخر هذه الحوليات هى الحولية السادسة صدرت سنة ١٩٦٣ تتناول الفترة من سنة ١٩٥٧ – ١٩٦٢ ٠

أما الهدف الذى رمى اليه ساطع من اصداره لهذه الحوليات الثقافية فهو ما كتبه فى فاتحة الحولية الأولى ٠ يقول ساطع :

« الفت هذا الكتاب لافتتح به سلسلة الحوليات التى ستنشرها الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية عن شئون الثقافة العربية كل عام ٠ وكان الباحث الذى يود أن يحصل على فكرة ولو اجمالية عن الاوضاع الثقافية فى أى قطر عربى يضطر الى مراجعة عدد من المطبوعات والكتب ، فأصبح من مهمة الحولية ان توفر هذه المهمة » وأهمية هذه الحوليات على حد قوله ان الثقافة العربية لم تكن من الثقافات المنطوية على نفسها بل انها من الثقافات الواسعة من الوجهة المادية والمعنوية ٠ لذلك فان الشئون العربية تسترعى انتباه الكثيرين مما يعطى اهمية لوجود مثل هذه الحوليات ٠

بدأ ساطع حوليته الأولى بدراسة الشئون الثقافية لخمس دول عربية هى مصر ، العراق ، سورية ، لبنان والاردن ، ولم يتناول فيها الشئون الثقافية للملكة السعودية واليمن لتعذره الحصول على بيانات عن كل منهما ، ثم تناول بالدراسة الشئون الثقافية للسعودية فى حولياته التى تلت ذلك ٠

تناول ساطع الاحوال الثقافية فى البلاد العربية تناول المحايد الذى يصف هذه الاحوال كما هى دون تعليق او نقد فنجده يقول :

« هذا ولا بد لى من التصريح اننى وصفت الاحوال الراهنة وصفا حياديا ذلك لاعتقادى ان للنقد مجالات أخرى غير صحائف هذه الحوليات التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية . ولم أبد رأيا شخصيا الا قولى فى موضع واحد من هذه الحولية .. فقلت يظهر من هذه النظريات السريعة التى ألقيناها على تاريخ المعارف فى مختلف الأقطار العربية ان الفروق التى تشاهد بين هذه الأقطار من حيث نظم التعليم واتجاهات الثقافة لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية وحاجاتها الحقيقية ، انما كانت من نتائج السياسات الأجنبية التى سيطرت على مقدراتها عن طريق الانتداب أو الاحتلال. فلا مجال للشك فى ان هذه الفروق ستتضاءل كلما تخلصت الدول العربية من النظم التى ورثتها عن عهود الاحتلال والانتداب ، وكلما عدلت النظم والاوضاع الناتجة فى بلادها وفق ما تقتضيه مصالحها الحقيقية بنظرات شاخصة نحو المستقبل البعيد والمثل الاعلى الذى تنطوى عليه فكرة العروبة الخالدة » .

ثم يقول ساطع : « واضيف اننى آمل املا قويا ان الذين بيدهم زمام أمور المعارف والثقافة فى مختلف الدول العربية عندما يلمسون الحقيقة التى سردتها سيشعرون شعورا قويا اقوى واوضح مما كانوا يشعرون به بوجوب العمل على ازالة هذه الفروق بكل اهتمام واندفاع .

ومن ثم يمكن القول ان ساطع استهدف من وضع هذه الحوليات التى بذل فيها جهدا كبيرا مرهقا ان تكون بداية الطريق لازالة الفروق الثقافية بين البلاد العربية فقد كان يعتقد كل الاعتقاد أن الوحدة الثقافية ينبغى أن تتحقق كبداية للوحدة السياسية بين الدول العربية وأنه مادامت الفروق الثقافية قائمة بقيت الاقليمية بظلها الكئيب باسطة سلطانها بين أبناء الأمة العربية .

كذلك وضع ساطع أثناء توليه منصب مستشار الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية مشروعا لانشاء متحف للثقافة العربية بهدف اظهار الفروق القائمة بين نظم التعليم ومناهج الدراسة فى مختلف البلاد العربية حتى تستفيد الدول العربية من تجارب بعضها البعض فى مجال التعليم ٠

ولذلك اقترح ساطع ان يجمع المتحف جميع الوثائق المتعلقة بالتعليم وتشكيلات وزارات التربية والتعليم وسائر الحركات الثقافية ، وان تستعين الادارة الثقافية بالكتب والانظمة والتقارير والصور التى تطلبها من وزارات المعارف المختلفة ٠ ووافقت الجامعة العربية على ما اقترحه ساطع وتم افتتاح المتحف بحضور ممثلى جميع الدول العربية سنة ١٩٤٩ ٠

واعد دليل مطبوع للمتحف وزع على الزوار الذين حضروا حفل الافتتاح وجاء فى الدليل ما يلى مما يوضح الغرض من المتحف ٠

رأت الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ان تأخذ على عاتقها مهمة تأسيس متحف الثقافة العربية لتحقيق غرضين :

١ ــ جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالثقافة ونظم المعارف ٠

٢ ــ عرض خلاصة تلك المعلومات بغية اعطاء فكرة واضحة عن حالة المعارف والمدارس فى كل قطر من الأقطار العربية ٠

وكان المقرر الا يبقى المتحف جامدا على شكل واحد بل يتبدل ويتجدد من حين لآخر ٠ وسنرى عند حديثنا عن الثقافة العربية ودور ساطع فى خدمتها ان المتحف قد تقلص وتوقف عن النمو حتى انحصر فى غرفتين وتحول الى ما يشبه المخزن ولم يتابع شئون التربية والتعليم فى البلاد العربية ٠ وقد انتقد ذلك ساطع فى كتابه الذى اسماه ثقافتنا فى جامعة الدول العربية ٠

ومضى ساطع يخدم فى اخلاص الفكرة التى عاش من اجلها ونذر نفسه فداء لها وهى فكرة القومية العربية ٠

ان اهم ما لقنه ساطع للاجيال من بعده ان القومية العربية ليست انفعالا عاطفيا وانما هى حركة لها أسسها العلمية ومن هذه الناحية جاءت ابحاثه العديدة الواسعة تخدم هذا الاتجاه وتدعمه ٠

ورأى ساطع ان الضرورة تقتضى انشـاء معهد للدراسات العربية يخدم هذا الغرض ويحقق هذه الغاية ٠ لقد كان ابعد الامور عن ذهن ساطع يوم جاهد من اجل انشاء هذا المعهد أن يكون سبيلا للحصول على الشهادات ومكانا أشبه بغيره من المعاهد العلمية ، انما كان يبتغى منه ان يكون معهدا للدرس والبحث تمر عليه اجيال المثقفين من ابناء الأمة العربية ليكونوا على دراية بأمور أمتهم يناقشون مشاكلها ويدرسون أمورها ٠ كان ساطع يريد لهذا المعهد ان يقوم بدور الموجه والمرشد فى مجال الدراسات العربية فلا يحاول فيه الاساتذة والمحاضرون عرض جميع الابحاث المتعلقة بالمواد التى يقومون بتدريسها ٠ بل يكتفون بالتوسع والتعمق فى ناحية محدودة من نواحى الموضوع ، ويتركون الطلبة يدرسون بأنفسهم ، فتكون قاعات المعهد للمناقشة والبحث وليست للتلقين أو الاملاء ٠

وخرجت فكرة ساطع الى حيز الوجود ، فتقرر انشـاء المعهد وافتتح للدراسة فى العام الدراسى (١٩٥٣ ــ ١٩٥٤) وعين ساطع مديرا له واستاذا للقومية العربية فيه ٠

وفى المحاضرة الافتتاحية التى القاها ساطع على طلبة المعهد(١) أوضح ما يتمناه من وراء انشاء هذا المعهد حيث قال :

---

(١) ألقيت المحاضرة بتاريخ ٧ من نوفمبر سنة ١٩٥٣ ٠

« اتمنى أن نوفق أنا وزملائى الاساتذة الى انجاز المهمة الملقاة على عاتقنا فى سبيل خدمة الأمة العربية عن طريق هذا المعهد خدمة صادقة .

« وانتهز فرصة هذا الاجتماع لتوضيح الغاية من انشاء هذا المعهد ، وتفصيل الخطة التى يتبعها لتحقيق تلك الغاية » .

ثم أوضح كيف اختلفت الأمة العربية عن سائر الامم اختلافا هائلا ومرجع هذا الاختلاف أن هناك فارقا كبيرا بين ماضى الأمةالعربية وبين حاضرها ، وكانت هناك فتوحات عربية كبرى قامت بها تلك الأمة العظيمة منذ أخذت على عاتقها نشر رسالة الدين الاسلامى حتى بلغت ارقى مكانة بين الأمم وصارت مؤلفاتها أثمن واغزر منابع العلم ، ثم استشهد ساطع بالكلمات العربية التى تسربت الى اللغات الأوربية ، وضرب مثالا لذلك كلمة موسيلين Moussiline التى تسمى بها ارقى انواع المنسوجات فى بلاد الغرب ، ترجع الى كلمة موصل المدينة العراقية الشهيرة كذلك كلمة دامسقو Damasco التى يعرف بها نوع آخر من القماش فى أوربا محرفة من اسم دمشق، ثم أوضح ساطع كيف اعترف رجال الفكر فى الماضى ان التبحر فى العلم والفلسفة لا يمكن ان يتم من غير درس المؤلفات العربية .

ثم كان ان تخلفت الأمة العربية من وجهة نظر ساطع فى ميدان الوعى القومى . وأرجع السر فى ذلك الى خضوع البلاد العربية الى السلطات العثمانية باعتبارها (دولة الخلافة الاسلامية) وكانت هذه السلطة المعنوية تخدر فى العرب روح القومية العربية . وتلا ذلك استيلاء الدول الاستعمارية وخاصة فرنسا وانجلترا على البلاد العربية وهما الدولتان اللتان — على حد قوله — تكرهان الحركات القومية وخاصة بسبب ما نجم عن تلك الحركات من وحدة ايطاليا ووحدة المانيا . وحين استولت كل من انجلترا وفرنسا على بعض

الاقطار العربية اخذتا تحكمانها بأساليب مختلفة ، واوجدتا فى كل قطر منها أنظمة ادارية وتشريعية واقتصادية وثقافية خاصة . ثم كانت حركات التحرير فى تلك الاقطار العربية التى لم تتغلب على النزعات الاقليمية المتولدة من انقسام البـــلاد العربية الى دويلات عديدة .

وكان ساطع يخشى أن التطور الطبيعى للبلاد العربية ينبىء باضعاف النزعات القومية ، لذلك لابد من مســـراع جدية تبذل فى سبيل مساعدة هذا التطور والاسراع فيه وهذا هو اهم اهداف هذا المعهد .

ان هدف هذا العهد هو المساهمة فى الاعمـــال التى ترمى آلى تعجيل التطور الذى ذكرناه آنفا ، وتقوية الفـكرة القومية العربية بين جميع الناطقين بالضاد

وقد حدد النظام الاســـاسى الذى اقره مجلس جامعة الدول العربية اغراض المعهد فى مادته الأولى بالعبارات التالية .

يعمل معهد الدراسات العربية على تحقيق الاغراض الآتية :

أولا : اعداد شباب عربى مثقف ثقافة عربية عالية .

ثانيا : نشر الثقــافة العربية عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة .

ثالثا : اقامة فكرة القومية العربية على اسس علمية صحيحة

رابعا : تكييف أسس الثقافة العربيــة بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة . لكن ساطعا يقول لطلبته انه لا يكتتفى من هــذا المعهد بهذه الاغراض فحسب .

« ولكننا ننتظر من اعمال المعهد ثمرة أخرى أهم واسمى من كل ما ذكرته آنفا الا وهى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع اشاعة الشعور بالوحدة العربية ، وبث الايمان بمستقبل هذه الأمة العربية » ٠

ثم يقول : « اننا سنسعى الى تقوية فكرة القومية العربية ، ولكننا سنفعل ذلك مستندين الى الحقائق العلمية على الدوام ، سندعم جميع دراساتنا من قانونية واقتصادية وتاريخية وأدبية بدراسات ومباحثات تحوم حول القوميات بوجه عام ، والقومية العربية بوجه خاص ٠

« وان اهم الثمرات التى نرجوها من اعمال هذا المعهد ومساعيه هى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع اشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الايمان بمستقبلها » ٠

وسيظل الاساتذة الذين عملوا مع ساطع الحصرى فى هذا المعهد يذكرون له غيرته عليه ٠ كان يتتبع كل ما يلقى فيه ويسعى وراء حل كل مشكلة بنفسه ٠٠ لم يؤمن بأن للانسان سنا ينبغى أن يخلد عندها الى الراحة ٠ فلقد بدأ ساطع العمل فى هذا المعهد وسنه قد تجاوز السبعين لكنه كان يعمل بحماسة الشباب ان لم نقل أكثر من حماسة كثير منهم ٠٠ لقد امتاز بقدرته المتواصلة على العمل فهو يحاضر فى المعهد ويشرف عليه اداريا بحكم منصبه ويعد البحوث ويراجع أبحاث الطلبة ويجتمع بهم ويتناقش واياهم ٠

وسوف يظل تلامذته الذين تتلمذوا عليه فى هذا المعهد يذكرونه بكل اكبار واجلال هم بالنسبة له اخوانه واصدقاؤه ٠ كان يريدهم رسلا لحركة القومية العربية كما كان ينبغى أن يكون طلبته

فى هذا المعهد الرجال المؤمنين بأمتهم العربية الغيورين عليها المجندين لخدمتها . من أجل هذا كان يريد أن يكون عند كل واحد منهم ما عنده من حماسة وان يكون كل فرد منهم فى ثورتيه .

ويفسر هذا سر حرصه الشديد على عدم السماح باى تقصير يبدو فى رسالة هذا المعهد ، ولما بدا له ان المعهد لم يحقق ماكان ينشده منه وما استهدف من وراء انشائه بادر على الفور الى تقديم استقالته منه سنة ١٩٥٨ واعتزل بعدها جميع الاعمال الرسمية .

رأى ساطع أن المعهد قد تناسى رسالته العلمية والقومية وانحرف عن السبل المؤدية الى تحقيق تلك الرسالة انحرافا كليا . لقد كان هدف المعهد من وجهة نظره الا يكون محلا لدراسات عالية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى لا يحاول الاساتذة والمحاضرون عرض جميع الابحاث المتعلقة بالمواد التى يقومون بتدريسها ، بل انهم يكتفون بالتوسع والتعمق فى ناحية واحدة محدودة من نواحى الموضوع ، على أن يترك للطلاب استكمال البحث فى بقية نواحيه ، لكنه لوحظ ان المعهد لم يعد يتمسك بهذه المبادىء .. واصبح الطلبة الذين يدرسون به يريدون الحصول على شهادة المعهد بأسهل الطرق وأيسرها دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الاطلاع والبحث ، ثم بدأت تشغلهم مشكلة الاستفادة من هذه الشهادة ومدى اعتراف الجامعات فى الدول العربية بها . وبمعنى آخر لقد اصبح الطلبة ينظرون لهذا المعهد نظرتهم الى أى معهد دراسى آخر لا تحدوهم المصلحة العامة ولا يدفعهم الدافع القومى .

ثم لاحظ ساطع ان المعهد قد ساير الطلاب فيما يرغبون فاصبح يمتحنهم فيما يملى عليهم من محاضرات .

ولم يقتصر انحراف المعهد من وجهة نظر ساطع عن المبادىء

والخطط الاساسية المقررة بل تعدى ذلك الى تقرير مواضيع المحاضرات وانتخاب المحاضرين ·

ويذكر ساطع انه في سنة ١٩٥٦ وزعت مذكرة على اعضاء مجلس ادارة المعهد تقول : من المعلوم لدى الجميع ان معهد الدراسات العربية العالية انما انشىء لتحقيق اغراض علمية وقومية سامية · وان المعهد الذى تعرض فى فترة من فتراته الى فكرة الغائه ثم عدل عن تلك الفكرة ينبغى أن يكون عند ثقة الأمة العربية فيه · وكان ينبغى على المسئولين عنه ان يواصلوا العمل والبحث فى احسن السبل وانجع الوسائل لتحقيق أغراض المعهد وتأدية رسالته على اتم الصور ·

ثم يقول ساطع : « لكن الذى حدث مع الاسف الشديد كان عكس ذلك · لقد اخذنا نتناسى رسالته السامية · وانى بناء على ذلك ارى من الواجب ان اسجل واعلن استنكارى لهذه الاوضاع والاتجاهات واقول بكل صراحة اذا استمرت الاحوال على هذا المنوال اخشى ان يتحول معهد الدراسات العربية الى مؤسسة تمنح الشهادات لجماعة من الطلاب ، وتوزع أجور المحاضرات لطائفة من الاساتذة ، دون أن تسعى سعيا جديا وراء تحقيق الاغراض العلمية والقومية التى انشئت من أجلها » ·

ويرى الحصرى انه حين تستمر سياسة المعهد على ما هى عليه : الطلاب يمتحنون فيما درسوه ويملى بعض المحاضرين محاضراتهم املاء وان يظل المعهد بعيدا عن التساؤل فى مجموع المعلومات التى اكسبها لطلابه واساليب البحث والتفكير التى تهيئوا عليها قبل منحهم الدبلومات أمر خطير كل الخطورة ، واثم ما بعده اثم فى حق الأمة العربية ، والقضية السامية التى ينبغى ان يجند الكل من أجلها ، وهى قضية القومية العربية ·

ثم يسوء ساطع ما وصلت اليه امور الابحاث فى المعهد حتى أصبحت الدراسات العربية خارجه أكثر من داخله ، فى الوقت الذى كان المفروض فيه ان يقوم هـــذا المعهد بدور المرشد الموجه لتلك الأمور والدراسات ٠

أما من حيث هيكل معهد الدراسات العربية التنظيمى فلقد انتقد ساطع تشكيل مجلس ادارته من حيث عدم اضافة أربعة أعضاء من ذوى الرأى فى البلاد العربية ، حسب النظام الأساسى ٠ كما انتقد زيادة عدد الطلاب فيه ، وعدم تحديد مدة للاســـاتذة الذين يعملون فيه ، الأمر الذى لم يترك امام المعهد مجالا كافيا للاستفادة من خدمات الكفابات الأخرى فى البلاد العربية ٠

ولقد عمل ساطع جهدا كبيرا فى سبيل اعداد مكتبـــة هذا المعهد وتزويدها بالمراجع المختلفة والمصادر التاريخية والاجتماعية السياسية والادبية وغيرها ٠ كذلك بدأ ساطع فى طبع سلسلة من الوثائق والنصوص وضعهـــا تحت تصرف الباحثين والدارسين من الاساتذة والطلاب ليدركوا واقع الامة العربيـــة ولينطلقوا من هذا الواقع الى تحقيق الوحدة العربية والمجتمع العربى التقدمى ٠

وكان من بين هذه الوثائق التى اهتم ساطع بها دساتير البلاد العربية التى اشرف على جمعها المرحوم الدكتور سعيد صبرى وقوانين العمال فى البلاد العربية التى أشرف على اعدادها وجمعها الدكتور محمد حلمى مراد وزير التعليم السابق فى الجمهورية العربية المتحدة وقوانين الجنسية فى العالم العربى التى أشرف الدكتور جابر جاد عبد الرحمن مدير جامعة القــاهرة الحالى على جمعها ٠ كما أشرف الاستاذ الدكتور لبيب شــقير على جمع اتفاقيات البترول ، كذلك جمعت قوانين الملـــكية فى العالم العربى التى أشرف على تفسيرها مجموعة من الاساتذة من مختلف البلدان العربية ٠

وما زالت هذه السلاسل والوثائق والنصوص فى مكتبة المعهد تشهد لساطع بالجهد الخارق والحماسة المنقطعة النظير فى خدمة أمته العربية ٠

وكان من بين الأمور التى ساءت ساطع النقص فى عملية تزويد مكتبة المعهد بالمراجع والكتب ، وتقل الاعتمادات المالية المخصصة لذلك ، بينما هو يقترح فى مذكرة له عام ١٩٥٧ ان يزاد الاهتمام بأمر المكتبة ، وان تعطى لجميع وسائل الدرس والبحث فيها مزيدا من العناية كما ينبغى ان تتخذ التدابير اللازمة لزيادة الاهتمام ٠ بجمع الكتب والمجلات التى تنشر فى البلاد العربية ، وكذلك التى تنشر عن تلك البلاد فى مختلف اللغات الأجنبية مع الحصول على محاضر جلسات البرلمانات والمؤتمرات المتعلقة بالشئون العربية ٠

وينبغى أن نؤكد هنا حقيقة هامة هى ان ساطعا حين قدم استقالته من معهد الدراسات العربية لم يفعل ذلك كفرا منه بما دعا اليه ونادى به ٠ لكن ساطعا حين آثر الاستقالة من جميع الاعمال الرسمية سنة ١٩٥٨ وآثر الاقامة فى غرفة متواضعة فى فندق لافينواز بالقاهرة مضى قدما فى جهاده من أجل أمته فتفرغ للتأليف والبحث ، وأخرج بعد استقالته عشرات الكتب ومئات الابحاث والمقالات التى تخدم قضية أمته العربية ٠

استقال ساطع من معهد الدراسات العربية لينبه جامعة الدول العربية الى الحال التى صار اليها هذا المعهد ، ودعا الجامعة فى تقاريره ومذكراته الى المبادرة للاصلاح المنشود لهذه المؤسسة العلمية التى طالما جاهد من أجل انشائها ، فلما اعيته الحيلة نفض يده لا تهربا من مسئولية وانما ليتفرغ بكل وقته ويخصص كل جهده لاخراج الابحاث والكتب التى تناولت القضية العربية من جانب

او من آخر ، وأكدت ايمانه العظيم بامته ، وحبه لها ، والعمل جاهدا من أجلها ٠

وظلت غرفته فى هذا الفندق المتواضع ملتقى لطلابه ومريديه وحوارييه ، وعاش ساطع على دخل كتبه المتواضع ورفض الكثير من العروض لمساعدته ماديا والتى عرضها عليه كثير من الشخصيات العربية ٠

وفى عام ١٩٦٥ اعيدت اليه الجنسية العراقية فعاد الى بغداد ليموت ويدفن هناك بعد ذلك بثلاث سنوات ، وعلى وجه التحديد يوم الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٦٨ ٠ وكان موته خسارة كبرى لامته فى ظروف كانت احوج ما تكون لجهاده ونضاله ٠٠ مات ساطع وامته تخوض معركة مصيرية مع اعدائها ، والمعركة تتطلب جهود كل المخلصين من أبنائها ٠٠ ومن أخلص لامته من ساطع التى أحبها من كل قلبه وجند قلمه دفاعا عن حقها ٠

لكن العزاء فى وفاته أن اعماله الكبيرة والكثيرة كانت خير ما ورثته امته عنه ، وكانت دعوته المخلصة المؤمنة هى النداء الذى حمله من بعده اجيال المثقفين العرب الذين طالما ناشدهم ساطع ان يعملوا من أجل امتهم ويخلصوا فى سبيلها ٠

كان ساطع يؤمن ان المعركة الدائرة مع العدو تتطلب كل الجهود وفى مقدمتها جهود المثقفين العرب ، وانه اذا كان الوطن العربى يتطلب من أبنائه فى هذه الأيام كل التضحيات فانه ينبغى على المثقفين ان يكونوا هم القادة وهم الرواد لانهم يعرفون قبل غيرهم أهمية هذه التضحيات ومخاطر التردد فى بذلها سواء كانت التضحية بالروح أو بالمال ٠ بدونها لا كرامة وبغيرها لا شرف ٠

واذا كان العمل باقصى طاقته هو أول متطلبات المعركة ،

فالمثقفون كانوا كما يراهم ساطع هم أولى الناس بالعمل المخلص الجاد من أجل أمتهم ، لانهم يعرفون أكثر من سواهم ما هو المصير لو تقاعس أفراد الشعب العربى عن العمل وتخلوا عن اداء الواجب ٠٠ كان ساطع يريد من أبنـــاء الأمة العربية ايمانا بحق هـذه الأمة ويطالبهم بالعمل من اجل هذا الحق والنداء فى سبيله ٠

يخاطب ساطع الأدباء فيقول :

على الأدباء أن يكونوا قوميين يشعرون بقوميتهم ويعتزون بها ويتحمسون لها ، لأن الأديب اذا آمن بالقومية العربية سيشعر حتما بآمالها وآلامها ، لما له من احســـاس مرهف ، وعاطفة مشبوبة ، وسيجد بطبيعة الحال أحسن الوسائل لاظهار شعوره هذا فى انتاجه الأدبى ، لما له من سعة خيال وقوة تعبير ، ويطالب ساطع الدول العربية أن تعمل على تشجيع ونشرالانتاج العربى الذى يخدم فكرة القومية العربية ، وهذا هو حق هذه الدول بل هو واجبها ، دون أن يقال انها تعرضت الى حرية الأدباء بالتوجيه ٠

ثم هو يبحث هل ينبغى ان يكون الادب للادب وفقــا لشعار الفن للفن أو أن الأدب فى خدمة المجتمع وفقا لشعار الفن للحياة ؟

وينتهى الى القول بأنه من الأمور التى لا خلاف فيهـا ، أن الأدب يتفاعل مع المجتمع تفاعلا مستمرا : يتأثر به ويؤثر فيه بدون انقطاع ، وان شدة تأثير الادب فى الحياة الاجتماعية والأخلاقية تحمل الأدباء مسئولية معنوية كبيرة ٠ وعلى الأباء — على حد قوله — ان يقدروا هذه المسئولية حق قدرها فيحرصوا على الا يكون انتاجهم الادبى ضارا بالمجتمع ٠

يقول ساطع : ان ما نطلبه من الأديب أن يقدر مدى ما يحدثه الأدب من تأثير ، كما يحق لنا أن نطلب من الأديب الذى يصـــور

مفاسد المجتمع وينقد أحواله أن يقدر مسئوليته المعنوية والا يهمل التفكير فى خير المجتمع ؛ ٠٠ ويطالب ساطع الحصرى الأدباء العرب أن يؤمنوا بوحدة الأمة العربية فيتمسكوا بالقومية العربية ولا يستسلموا لنوازع الاقليمية التى تنافى الوحدة العربية ، ولا يندفعون نحو فكرة العاميه التى تخدر العواطف القومية ٠ وعلى أدباء العرب أن يدركوا حق الادراك حاجة الأمة الى لغة موحدة ، فيتمسكوا باهداب اللغة الفصحى مع تجنب الجمود فيها ، وعليهم أن يواصلوا العمل فى سبيل تبسيطها حتى يصبح هناك معجم مفصل يتضمن جميع الكلمات المستعملة فى الكتب القديمة والحديثه على اختلاف أنواعها ٠ ثم يطلب ساطع من كل أديب عربى الا ينسى اننا نعيش الآن فى دور من أشد وأخطر الأزمات التى يجتازها الأمة العربية ، وبأننا أصبحنا فى حاجة الى أسلحة معنوية نحارب بها الأنانية والنفعية والرجعية والتواكلية والى آلات انتاج معنوية تساعد على تنشئة جيل عربى جديد يمتاز بروح التضحية والتفانى ٠

ويقول : اننى أشبه الانتاج الأدبى من جهة تأثيره الاجتماعى ببعض المصنوعات المادية منها ما يعمل عمل أسلحة الحرب والنضال مثل المدافع والرماح ٠

ومنها ما يعمل عمل آلات الحرث والانتاج مثل المحارث والمحركات ٠

ومنها ما يعمل عمل الزخارف والمصنوعات مثل الأساور والقلادات ٠

ولكل نوع من هذه الآلات والمصنوعات وظيفة خاصة ، ومهمة معينة فى الحياة الاجتماعية ٠ وكل مجتمع يحتاج الى كمية منها ٠

والمهم فى هذا المضمار هو تعيين وتحديد النسبة بين هذه الأنواع بصورة معقولة ، لا يمكن لأى مجتمع أن يعيش بالأسلحة وحدها ، ولا بالزخارف وحدها • ولا حياة لمجتمع يزيد فيه عدد الصاغة على الفلاحين والحدادين أو عدد النقاشين على النجارين وهكذا •

« ومما تجب ملاحظته فى هذا المضمار أن الحاجة الى كل نوع من أنواع الآلات والمصنوعات التى ذكرتها تتغير بتغير الظروف والأحوال •

« ومن المعلوم أنه – فى أدوار الكفاح العنيف – وفى عهود الأعمال البطولية من حياة الأمم • تتخلى النساء عن مصوغاتها فى سبيل توفير واستكمال الأسلحة التى تحتاج اليها البلاد •

« ولا أرانى فى حاجة للبرهنة على أن العالم العربى الآن فى مثل هذه الحالة •

ويحق لنا أن نطلب من كل أديب عربى أن لا ينسى اننا نعيش الآن فى دور من أشد وأخطر أدوار الأزمات التى تجتازها الأمة العربية ، ونحن الآن فى حاجة الى آلات انتاج معنوية تبث روح التضحية والتفانى أكثر مما نحتاج الى مجوهرات تزين المعاصم والصدور ، أو زخارف تزيد من بهرجة القصور » •

يطالب ساطع الأدباء بعمل ما يمكن تسميته بالتعبئة الفكرية من أجل المعركة الدائرة مع العدو ، ولا أرى أن للأدباء فى هذه الآونة واجبا أقدس من ذلك ولا مهمة أعظم من ذلك •

ومات ساطع الحصرى بعد أن أضاء بفكره العربى الأصيل مشعل ضوء يخفت ولا يظلم ، مات بعد أن نقل ايمانه العميق الصادق بقضية العروبة والوحدة الى الآلات بل الى الملايين من أبناء أمته بفضل ما خلفه من زاد فكرى ضمتها كتبه وأحاديثه •

ولقد رأيت ونحن نترجم لحياة ساطع أنّ أورد ثبتا بمؤلفاته ودرجة الأهمية فى ذلك أن بعضها فقد وبعضها معروف للبعض دون البعض الآخر ولقد أوردت هذا الثبت كما كتبه ساطع بخط يده فى أوراقه واضعا أمام كل مؤلف تاريخ طبعته الأولى ·

مؤلفات ساطع الحصرى

اسم الكتاب	سجل وتاريخ الطبعة الاولى
مبادىء القراءة الخلدونية ــ الألفباء	بغداد عام ١٩٢٢
مرشد القراءة الخلدونية ــ طريقة تعليم الألفباء	بغداد عام ١٩٢٢
مساعد القراءة الخلدونية	بغداد عام ١٩٣٤
دروس الاشياء	
للسنة الرابعة الابتدائية	بغداد عام ١٩٢٨
للسنة الخامسة الابتدائية	بغداد عام ١٩٢٨
للسنة السادسة مبادىء العلوم	بغداد عام ١٩٢٩
للسنة السادسة مبادىء الزراعة	بغداد عام ١٩٢٩
دروس فى أصول التدريس	
الجزء الاول ــ الاصول العامة	بغداد عام ١٩٢٨
الجزء الثانى ــ أصول تدريس العربية	بغداد عام ١٩٢٨
مجلة التربية والتعليم	
خمسة مجلدات	بغداد عام ١٩٢٨ــ١٩٣٢

الحولية الخلدونية لسنة ١٩٢٩ ، ١٩٣٠

رسائل الى بول مونرو

ـ فى نقد تقرير لجنة الكشف التهذيبى	بغداد عام ١٩٣٢
الاحصاء : محاضرات فى كلية الحقوق	بغداد عام ١٩٣٧

دراسات عن مقدمة ابن خلدون

ـ الجزء الاول	بيروت عام ١٩٤٣
ـ الجزء الثانى	بيروت عام ١٩٤٤
ـ الطبعة الموسعة	القاهرة عام ١٩٥٣

(تضم أبحاث الجزئين الاول والثانى مع أبحاث أخرى كتبت بعد السفر الى تونس وأعيد طبعها سنة ١٩٦١)

تقارير عن حالة المعارف فى سورية واقتراحات لاصلاحها

ـ الجزء الاول	دمشق عام ١٩٤٤
ـ الجزء الثانى	دمشق عام ١٩٤٥
آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية	القاهرة عام ١٩٤٤
آراء وأحاديث فى التربية والتعليم	القاهرة عام ١٩٤٤

أعيد طبعها فى السنوات التـــالية ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦١

(الطبعات الثلاث الاخيرة فى بيروت)

صفحات من الماضى القريب	بيروت عام ١٩٤٨
محاضرات فى نشوء الفكرة القومية	القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت فى الســنوات التـــالية : ١٩٥٤ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٤)

آراء وأحاديث فى العلوم والاخلاق والثقافة القاهرة عام ١٩٥١

آراء وأحاديث فى القومية العربية القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت فى السنوات ١٩٥٦ ، ١٩٥٩، ١٩٦٤ وقد أضيف اليها اعتبارا من ١٩٥٦ مقدمة جديدة والحق بها نقد لمقالة شفيق غربال)

آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع القاهرة عام ١٩٥١

(أعيد طبعها فى بيروت ١٩٦٠)

العروبة بين دعاتها ومعارضيها بيروت عام ١٩٥٢

أعيد طبعها فى السنوات التالية ١٩٥٥ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥

دفاع عن العروبة بيروت عام ١٩٥٦

أعيد طبعها سنة ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦١

آراء وأحاديث فى اللغة والادب بيروت عام ١٩٥٧

أعيد طبعها فى بيروت عام ١٩٦٥

حول الوحدة الثقافية العربية بيروت عام ١٩٥٩

ثقافتنا فى جامعة الدول العربية بيروت عام ١٩٦١

المحاضرة الافتتاحية لمعهد الدراسات العربية العالية القاهرةعام١٩٥٣

خريطة زمانية : البلاد العربية منذ ظهور الاسلام القاهرةعام١٩٥٣

ما هى القومية ؟ القاهرةعام١٩٥٩

(أعيد طبعها سنة١٩٦٣ وأضيف اليها نقد لكتاب هنرى هاوزر)

وهى عبارة عن أبحاث ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية

البلاد العربية والدولة العثمانية القاهرةعام١٩٥٦

(أعيد طبعها فى بيروت سنة ١٩٦١) بعد اضافة القسم الثانى المتعلق بالبلاد العربية بين الدولة العثمانية وبين الدول الاوربية وهى ألقيت على طلاب معهد الدراسات العربية العـــالية وأعيد طبع هذه الطبعة الموسعة سنة ١٩٦٥)

حول القومية العربية بيروت عام ١٩٦١

أحاديث فى التربية والاجتماع بيروت عام ١٩٦١

أبحاث مختارة فى القومية العربية القاهرة عام ١٩٦٤

الاقليمية بيروت عام ١٩٦٣

الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٤

الحوليات

حولية الثقافة العربية

ـ السنة الاولى حتى ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠	القاهرةصدرتعام١٩٥٠
ـ السنة الثانية عن ١٩٥٠ ـ ١٩٥١	القاهرةصدرتعام١٩٥٢
ـ السنة الثالثة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢	القاهرةصدرتعام١٩٥٣
السنة الرابعة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣	القاهرةصدرتعام١٩٥٤
السنة الخامسة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧	القاهرةصدرتعام١٩٥٧
السنة السادسة ١٩٥٧ ـ ١٩٦٢	القاهرةصدرتعام١٩٦٣

المذكرات

مذكراتى فى العراق ١٩٢١ ـ ١٩٤١	بيروت عام ١٩٦٧
الجزء الاول ١٩٢١ ـ ١٩٢٧	
الجزء الثانى ١٩٢٧ ـ ١٩٤١	بيروت عام ١٩٦٨

ثم يضيف ساطع الى ذلك انه بسبيل اصدار مذكراته عن الدولة العثمانية وسورية ومصر سنة ١٩٦٩ وهو العام الذى لم يشهده ساطع وشاء الله أن يتوفاه اليه قبل حلوله بأيام •

الفصل الرابع

العروبة عند ساطع
إيمان وعقيدة

عاش ساطع من أجل قضية الوحدة العربية ونذر نفسه وجهده لها ، وجند قلمه دفاعا عنها ، تلك حقيقة لا خلاف بشأنها ولا غبار حولها ، لقد خصص ساطع كل مجالات نشاطه وأعماله وأبحاثه من أجل هذه القضية الكبرى ٠

كتب يقول فى سنة ١٩٤٥ : « انى من الذين يؤمنون بالوحدة العربية ايمانا عميقا ، ومن الذين يقولون بوجوب العمل من أجلها عملا متواصلا دون توان أو تخاذل ٠

اننى أعتقد جازما بأن الوحدة العربية (ضرورية) لحفظ كيان الشعوب العربية ، كما أعتقد أنها (طبيعية) بالنسبة الى حياة الامة العربية وتاريخها الطويل ٠٠ فلا أشك أبدا فى أنها ستتحقق يوما من الايام ان عاجلا أو آجلا ٠

لا أدرى فيما اذا كان ما بقى لى من العمر سيسمح لى بادراك ذلك اليوم ٠

غير أنى أقول بكل اخلاص : اذا قدر لى أن أدرك اليوم الذى

ستتحقق فيه الوحدة العربية سأعتبر نفسى أسعد الناس جميعا وسأنسى كل ما كابدته من مشاق وآلام ٠٠ وسأترك هذه الحياة راضيا مرتاحا ٠٠ كأننى لم أتعب أبدا ولن أشعر بذرة من الألم »٠

لكن ساطعا وان لم يعش ليصبح أسعد الناس جميعا على حد تعبيره ، ولم يتحقق أمله الأكبر ومات قبل أن تصبح الوحدة العربية حقيقة واقعة ، لكنه عاش مع ذلك ليرى الايمان بالقومية العربية وقد أصبح هو التيار الغالب فى العالم العربى كله ، وليرى الاقتناع بضرورة تحقيق الوحدة العربية وقد أخذ يعم الأمة العربية بأسرها٠

واذا كانت أمنية ساطع الاولى لم تحقق بعد فانه كان يشعر بالرضا قبل وفاته من أنه استطاع على قدر جهده أن يؤدى دوره نحو أمته ٠ لقد عاش ساطع ليرى الفكرة التى آمن بها وكافح من أجلها وقد أصبحت المطلب الرسمى لكثير من الدول العربية وتصبح أغلى الامانى لدى الاغلبية الساحقة من أبناء هذه الامة العربية ٠

قضى ساطع الحصرى عمره مكافحا من أجل ايقاظ الشعور القومى العربى ، ساعيا الى نشر هذا الشعور وتعميقه ، مؤرخا لنشوء وتطور الفكرة القومية فى البلاد العربية ، مفندا وداحضا لادعاءات ومزاعم خصوم هذه الفكرة ، داعيا الى الوحدة العربية مؤكدا حتميتها شارحا ضرورتها الحيوية والملحة ، عاملا من أجلها ، مناضلا فى سبيل تعبئة أبناء الامة العربية بأجمعها وراء هذه الدعوة ٠

وبسبب ايمانه العميق بالرسالة التى كرس لها حياته ٠ واصراره الذى لم يتزعزع على مواصلة الجهاد فى سبيلها تعرض للكثير من ألوان الاضطهاد على نحو ما سبق لنا أن تناولناه عند عرضنا الموجز لحياته ٠

يحقد عليه الحاقدون فى العراق فيتهمونه انه معاد للثقافة

ونظم التعليم الانجليزيين وأنه نصير الثقافة الفرنسية فاذا ما عمل في سورية بعد العراق يتضح لهؤلاء انه مثلما حارب فكرة الاقتباس من النظم الانجليزية في معارف العراق يحارب الامر نفسه بالنسبة للنظم الفرنسية في معارف سورية . لكنه لم يكن عدوا للثقافات الاجنبية فلقد دعا أبناء الامة العربية الى زيادة حصيلتهم العلمية بالاطلاع على علوم الغرب وثقافاتهم . لكنه بالمرصاد لكل سيطرة ثقافية يراد فرضها على الامة العربية . فلقد رأى ساطع في هذه السيطرة الثقافية لونا من ألوان الاستعمار لا يختلف عن السيطرة السياسية . واذا ما تحررت الامة العربية سياسيا فلا ينبغي أن تبقى مستعبدة ثقافيا .

ويطرد من العراق وتسحب منه الجنسية العراقية ويحرم من معاشه فلا يزيده ذلك الا استمساكا بمبادئه واصرارا على دعوته .

كان يرى ان أولى الخطوات لتحقيق الوحدة العربية هو الايمان بحتمية هذه الوحدة طال الزمن على تحقيقها أو قصر . وكان يؤمن أن يوم الوحدة الشاملة آت لا ريب فيه .

يقول ساطع : كثيرا ما يسألونني : ما هي الطريقة العملية لتحقيق الوحدة العربية ؟ وفي بعض الاحيان يستهلون السؤال بمقدمة قصيرة :

انت تتكلم عن القومية العربية وتدعو الى الوحدة ولكنك لا تقول لنا : ما هي الوسائل العملية لتحقيق هذه الوحدة ؟ وأما أنا فأقول لهؤلاء على الدوام :

انى أعتقد ان أول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية في الاحوال الحاضرة هو ايقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الايمان بوحدة هذه الامة .

فعندما يستيقظ هذا الشعور تمام اليقظة، وعندما ينتشر هذا الايمان ويرسخ فى النفوس تمام الرسوخ تتوضح السبل وتتمهد الطرق أمام الوحدة العربية ·· وتزول العقبات وتنهار العوائق التى تعترضها بكل سهولة · ولكن اذا بقى الشعور بالقومية العربية على ما هو عليه من الضآلة والايمان بوحدة الامة العربية على ما هو عليه من الضعف تبدو آنفة العوائق بمثابة العقبات التى لايمكن اقتحامها· فتتوقف الجهود أمام أولى الصدمات وتنهار العزائم أمام أصغر المشاكل ·

ولذلك فأنا أسعى على الدوام وراء ايقاظ الشعور بالقومية وبث الايمان بوحدة الامة العربية ·

الايمان والمعرفة بالوحدة وحتميتها :

كان ساطع يؤمن أن أولى الخطوات نحو تحقيق الوحدة العربية هو الايمان بضرورة هذه الوحدة وبغير هذا الايمان تكون الدعوة الى الوحدة دعوة مفتعلة ·· فالوحدة كدعوة تحتاج من الداعين اليها الايمان الثابت الراسخ بها ·· والوحدة كضرورة تحتاج من جنودها الى الاصرار عليها والتمسك بها ·· والوحدة كطريق للخلاص مما فيه العرب الى مستقبل مشرق بسام تحتاج الى صبر والى عمل والى نضال مرير وشاق ·

كتب ساطع فى العدد السادس من مجلة العربى الصادر فى مارس (آذار) من عام ١٩٥٩ :

على كل واحد منا أن يؤمن أصدق الايمان بأن الوطن العربى يمتد من المحيط الأطلسى الى الخليج العربى وجبال زاغروس · ويشمل جميع البلاد التى يتكلم أهلها اللغة العربية ·· وأما الدول

والدويلات القائمة بين هذه المناطق فانها وليدة المناورات والمساومات والمقاسمات التى قامت بين الدول المستعمرة .

وكان الشعار الذى ردده ساطع فى كناباته فى هذه الناحية :
ما اغربنا !

اننا ثرنا على الانجليز ، ثرنا على الفرنسيين .

ثرنا على الذين استولوا على بلادنا وحاولوا استعبادنا .

كررنا الثورات الحمراء عدة مرات وواصلنا الثورات البيضاء عدة عقود من السنين . وقاسينا فى هذا السبيل ألوانا من العذاب وتكبدنا أنواعا من الخسائر ، وضحينا بكثير من الارواح .

ولكنا :

عندما تحررنا من نير هؤلاء أخذنا نستقدس الحدود التى كانوا قد أقاموها فى بلادنا بعد أن قطعوا أوصالها .

ونسينا ان تلك الحدود انما كانت حدود (الحبس الانفرادى) و (الاقامة الجبرية) التى كانوا قد فرضوها علينا .

لكن ساطعا كان يرى ان الايمان بالوحدة العربية ينبغى أن يقترن به ، بل تسبقه المعرفة بحقائق أمتنا العربية .. فهذه المعرفة سبيل الى الايمان بالوحدة العربية . لكنه يلفت النظر الى ان الايمان والمعرفة ليسا بالامرين المنفصلين ، بل يوجد بينهما ارتبـــاط قوى مما لا يترك لمسألة الاسبقية أهمية كبيرة .

يرى ساطع ان الايمان القومى شىء حديث العهـد بكل معنى الكلمة ، وانه لم ينتشر بعد انتشارا كافيا يسمح لنا بأن نقول انه أصبح متأصلا فى النفوس .

وهو يقول للشباب : ان جيل الامس ـ جيل الشيوخ مثلى ـ

كان يجد نفسه بين تيارات عديدة ، تدفعه أو تجذبه الى اتجاهات مختلفة ، تبعده عن الاتجاه القومى ، وذلك مثل التيارات والنزعات التى كانت تعرف باسم (الجامعة العثمانية) و (الجامعة الاسلامية) و (الرابطة الشرقية) • وأبناء ذلك الجيل كانوا فى حاجة الى التغلب على تلك التيارات القوية والقديمة ، لكى يتوصلوا الى الايمان بالقومية العربية • أما الجيل الحاضر - جيلكم انتم فهو لا يزال يتعرض الى تأثيرات مختلفة تنازع الايمان بالقومية العربية بل تعاديه ، فان هناك النزعات الاقليمية التى تربط نفوس الكثيرين بالدول التى قامت بعد الحرب العالمية ربطا يبعدهم عن الايمان بوحدة الامة العربية •• وهناك النزعات العالمية التى أخذت تتسرب الى نفوس البعض - بأشكال مختلفة - وصارت تزدرى النزعات الوطنية والقومية ، وذلك فضلا عن التيارات التى تعادى القومية العربية تحت ستار الدين ، دون أن تقدر حقائق الدين تقديرا صحيحا •

لذلك كان ساطع يؤمن أنه لا بد من أن نقتلع من أفكار أبناء الامة ما يشوش تفكيرهم فالفكر العربى عنده أشبه بالارض التى ينبغى لضمان نجاح زراعتها أن نقى هذه المزروعات والمغروسات من تأثير الرياح التى تهب من جهات مختلفة ، وكان يرى أن وضعنا فى البلاد العربية يختلف عن غيره من البلدان الأخرى التى سبقتنا فى مجال القومية ، واستطاعت أن تتم تطورها القومى وأن تكون دولا قومية تامة - حيث تنطبق فيها القومية على الوطنية تمام الانطباق - فى هذه الدول تأصل الايمان القومى وانتقل من الكبار الى الصغار عن طريق الايحاء والتلقين مثلما يحدث فى انتقال الدين ، ولكنه وحتى تصبح الأحوال فى بلادنا العربية على هذا النحو ، ينبغى أن تكون للمعرفة بالقومية أهميتها •• وكان ساطع يؤمن ان الاوضاع فى البلاد العربية ستتطور على نحو يصبح فيه الايمان القومى متأصلا

فى جميع النفوس ، فيتسرب الى قلوب الصغار وعقولهم من آبائهم وأمهاتهم ومن البيئة الاجتماعية التى ترعاهم .

ويرى ساطع الحصرى اننا فى نشر الفكرة القومية ، وبث الايمان بها ، ينبغى أن نلجأ لكل الوسائل ـ من تعريف ، واقناع ، وتلقين ، وايحاء ، وتحبيب وتحميس . يجب أن نخاطب العقول والقلوب ، يجب أن نهتم بجميع ضروب المعرفة والايمان .

وأما النسبة بين مبلغ اهتمامنا بكل واحدة من هذه الوسائل المختلفة ، فيجب أن تختلف باختلاف الافراد والجماعات ، وأن نأخذ فى الاعتبار أعمارهم ومستويات معارفهم وأنواع ثقافاتهم وألوان التيارات الفكرية والسياسية التى أثرت وما زالت تؤثر فيهم .. فيجب العمل وفق خطط متنوعة ، وبمعنى آخر ان ما يصلح فى هذا المجال لتلاميذ المدارس الابتدائية لا يصلح لطلاب الدراسات العالية، وما يصلح لهؤلاء الاخيرين لا يلائم سواد الناس .

فالايمان بالفكرة القومية والعمل فى سبيل غرس هذا الايمان فى نفوس وعقول أبناء الامة العربية هو الخطوة الاولى التى لا بد منها ، ولا غنى عنها لخدمة القضية العربية .

وحين يواجه البعض ساطعا أنه يحصر همه فى حدود الآراء والنظريات المتعلقة بالقومية دون الاهتمام بالناحية الايمانية ، يشير الى أقدم ما كتبه فى هذا المجال فى كتبه .. يحيلهم ساطع الى كتابه (آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية) ، فالى جانب ما تناوله فى هذا الكتاب من نظرات عامة ملقاة على قضية القومية من وجوهها المختلفة . الوطنية والقومية ، عوامل القومية ، بين الوحدة العربية والوحدة الاسلامية ، الوطنية والأممية ، بين العروبة والفرعونية ، الى جانب تلك الابحاث فى هذا الكتاب هناك بحث خاص عنوانه (الايمان القومى) . كذلك يطالبهم ساطع بالرجوع الى ما كتبه فى كتابه

(العروبة أولا) وما جاء فى فاتحته من كلمة صريحة عن وجوب بث الايمان بوحدة الامة العربية ·

ولا ينكر ساطع انه عالج القومية من الناحية النظرية لكنه لم يكن ليهمل الناحية العملية وفى مقدمة الناحيتين ينادى بأهمية الايمان فى مسألة القومية قبل أى عامل آخر ·

عالج ساطع الآراء الخاصة بالناحية القومية وتطرق الى كثير من المعلومات وكانت فى معظمها ردودا وانتقادات على ما كتبه ونشره كبار الاساتذة والكتاب والادباء اعتراضا على الاتجاهات القومية ودفاعا عن النزعات الاقليمية ، فمعالجة ومعارضة آرائهم لا بد وأن تكون بالآراء والمعلومات لأن الرأى كما يقول ساطع لا يمكن أن ينقض أو يهدم الا بالرأى ·

يرى الحصرى ان فى العالم العربى آراء ونظريات كثيرة لاتسلم بوحدة الامة العربية بل تعارضها معارضة شديدة ، وتعمل على بث الايمان بعكسها ، فلابد أن ننقد هذه الآراء والنظريات حتى لا تشوش فكر الشباب العربى وحتى يستنير هؤلاء الشباب بالآراء السليمة فى القومية للرد على دعاة الاقليمية ، أو منكرى الفكرة القومية ، ولكى يؤمنوا الايمان القومى : أى أن ساطع يهدف مما يكتب فى مجال القومية أن تتضح الحقيقة أمام أبناء الامة العربية من الزيف والحق من الباطل ، والصدق من الزيف والبهتان · واذا ما تحققت لهم هذه المعرفة كان ايمانهم بحق أمتهم وبقضية عروبتهم ثم بالواجب عليهم نحو أمتهم ·

وأهم هذه الحقائق التى يريد ساطع أن يحفظها كل أبناء هذه الامة العربية عن ظهر قلب أربع :

١ ـ حقيقة خاصة بالبلاد العربية :

ان جميع البلاد التى يتكلم سكانها باللغة العربية هى عربية مهما تعددت الدول التى تحكمها ·

ومهما تنوعت الاعلام التى ترفرف على بناياتها الحكومية ·

ومهما تعرجت وتشابكت الحـــدود التى تفصل بين أقسامها السياسية ·

انها بلاد عربية ·

ويقول ساطع : (بلاد العرب) ليست الجزيرة العربية وحدها، كما يزعم البعض ولكنها جميع البلاد التى يتــكلم أهلهــا باللغة العربية · من جبـــال زاغروس فى الشرق الى المحيط الاطلسى فى الغرب ، ومن شواطىء البحر الابيض وهضاب أناضول فى الشمال، الى المحيط الهندى ومنابع النيل والصحراء الكبرى فى الجنوب(١)·

٢ ـ حقيقة خاصة بالعرب :

يقول ساطع : ان كل من ينتسب الى البــلاد العربية ويتكلم اللغة العربية فهو عربى ، مهما كان اسم الدولة التى يحمل جنسيتها وتابعيتها بصورة رسمية ، ومهما كانت الديانة التى يدين بهــا ، والمذهب الذى ينتمى اليه ، ومهما كان أصله ونسبه ، وتاريخ حياة أسرته ·

---

(١) يستشهد ساضع بالنشيد المعروف :

بلاد العرب أوطانى من الشام لبغدان

ومن نجد الى يمن الى مصر فتطوان

ويقول ان ذلك يعبر عن شمول (بلاد العرب) تعبيرا فنيا رائعا (العروبة أولا : ساطع الحصرى ص ١١

والعروبة ليست خاصة بأبنـاء الجزيرة العربية ، ولا مختصة بالمسلمين وحدهم ٠

بل انها تشمل كل من ينتسب الى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية ٠

سواء أكان مصريا أم كويتيا أم مراكشيا ، وسواء أكان مسلما أم مسيحيا ، وسواء أكان سنيا أم جعفريا أم درزيا ٠ وسواء أكان كاثوليكيا أم أورثوذكسيا أم بروتستانتيا ٠

٣ ـ حقيقة خاصة بالدول العربية :

ان الدول العربية القائمة الآن لم تتكون ولم تتعـدد بمشيئة أهلها ولا بمقتضيات طبيعتها وانمـا تكونت وتعـددت من جراء الاتفاقات والمعاهدات المعقودة بين الدول التى تقاسمت البلاد العربية وسيطرت عليها ٠٠ والحدود الفاصلة بين الدول العربية لم تتقرر وفق مصالح البلاد وسكانها وانما تقررت بعد المساومات والمناورات الطويلة التى جرت بين الدول المستعمرة ضـمانا لمصالحها هى ٠ والفروق والاختلافات التى تشاهد الآن بين الدول العربية من حيث النظم الادارية والتشريعية والاتجاهات السياسية ، انما هى بأجمعها من مواريث عهود الاحتلال ٠ انها وليدة الاستعمار حديثة وعارضة٠

٤ ـ أما الحقيقة الرابعة التى ينبغى أن يعرفها أبنـاء الامة العربية حق المعرفة ويؤمنون بها أشد الايمان فهى عن الامة العربية٠

العرب أمة واحدة ، وما المصريون والعراقيون والمغـاربة ٠٠ الا شعوب وفروع لأمة واحدة هى الامة العربية ٠

رأى ساطع ان وضعهذه الحقائق الاربع أمام أبناء الامة العربية

هى الضرورة التى ينبغى علينا عملها كى نجعل من (المعرفة) سبيلا الى تقوية الايمان وتثبيت دعائمه فى الفكر العربى ·

ونبرى ساطع فى ثورية لاتعرف المهادنة يهاجم ضعاف الايمان بالوحدة ، والقائلين باستحالة وضع البلاد العربية المترامية الاطراف تحت راية واحدة ، ويستشهد فى سبيل ذلك بما حدث فى بلاد أخرى غير البلاد العربية ، لقد خرجت البلاد العربية عن سلطان الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى لكننا نجد أن الايالات السلافية والكرواتية ، والسلوفنية ، البوسنة والهرسك عندما انفصلت عن الامبراطورية النمسوية اتحدت فيما بينها ، ومع المملكة العربية ومملكة الجبل الاسود ، فكونت بذلك دولة سلافية واحدة·· أما الولايات العربية التى كان تعداد سكانها لا يختلف كثيرا عن تعداد يوغسلافيا فقد انقسمت الى دول عدة ·

كذلك يستشهد ساطع بأندونسيا التى استقلت عن هولندا عقب الحرب العالمية الثانية ، وكونت دولة واحدة ، مع أن مجموع سكانها كان يبلغ فى ذلك الحين حوالى ٧٦ مليونا ، منتشرين على مئات من الجزر المتباعدة ·

والباكستان كونت دولة واحدة عندما تخلصت من الاستعمار البريطانى مع ان جزءيها الشرقى والغربى ينفصل بعضهما عن بعض بأراضى هندية ، لا يقل طولها عن ألف وخمسمائة كيلومتر ، كذلك يضرب ساطع مثالا بالهند التى يبلغ سكانها أضعاف سكان الدول العربية ، ومع ذلك فهى دولة واحدة ·

ثم يتساءل ما أسباب هذا التباين بين وضعنا نحن العرب والاندونيسيين مثلا ! ويرجع السبب فى ذلك الى أن أندونيسيا خضعت لاستعمار أجنبى واحد هو الاستعمار الهولندى بينما نكبت البلاد العربية باستعمار دول أوربية عديدة : فرنسا

وانجلترة فى الدرجة الاولى ، ايطاليا وأسبانيا فى الدرجة الثانية • وتنوعت أساليب الاستعمار ما بين مباشر ومقنع بقناع الحماية أو الانتداب • وكافح كل جزء عن البلاد العربية على حدة فى سبيل استقلاله ، وأدى ذلك الى تكوين حكومة وطنية فى كل جزء من هذه الاجزاء تتمتع باستقلال جزئى مقيد بقيود عديدة •

أما من يتوهم الوحدة العربية بأنها خيال محض ، فالرد عليه عند ساطع ان فكرة الوحدة العربية قد اجتازت طور الخيال المحض، والأمنية البعيدة المنال ، ودخلت فى طور التنفيذ والتحقيق • يقول ساطع : « لسنا الآن فى بداية الطريق المؤدى الى الوحدة بل دخلنا فيه فعلا » •

أحداث التاريخ مؤيدة لفكرة الوحدة :

وفى مجال الرد على ضعاف الايمان بفكرة الوحدة العربية واستحالة تحقيقها يتخذ ساطع من أحداث التاريخ شاهدا ومؤيدا على أن الوحدة العربية آتية لا ريب فيها ، وأن ما حدث فى تاريخ العرب الحديث ينبىء عن قرب تحقيق هذه الوحدة •

الدليل فى ذلك عند ساطع ما حدث فى سورية عقب استيلاء الجيوش الفرنسية عليها عقب يوم ميسلون حين قضت تلك الجيوش على الدولة العربية القائمةفيها ، اذ قرر الجنرالغورو المندوب السامى الفرنسى والقائد العام للقوات الفرنسية تجزئة أراضى تلك الدولة ليتيسر له السيطرة عليها بأقل جهد مستطاع • ففى أول سبتمبر (ايلول) عام ١٩٢٠ سلخ عنها منطقة البقاع مع بعض المناطق الاخرى وألحقها بلبنان ، ثم بعد أسبوع فصل عنها حلب وأنشأ بها دولة ، ثم بعد ذلك بمدة وجيزة أعلن قيام دولة فى جبل العلويين ، وبعد بضعة أشهر أضافت فرنسا الى هذه السلسلة دولة جبل الدروز •

وظنت أن هذه الاجراءات ستضمن لفرنسا السيطرة على تلك البلاد بسهولة والى الأبد ٠

لكن تطورات الحوادث جاءت على عكس ما رغبت فرنسا فيه وتمنته ٠ لقد أوجدت هذه التجزئة استياء شديدا فى المحافل الوطنية ولذلك قرر ساسة فرنسا أن يخففوا من وطأتها بانشاء مجلس اتحاد بين دولتى حلب ودمشق ، ثم أخذ الفرنسيون يقومون بدعاية بغرض تعميق الانفصال عند أهل حلب ، ولذلك أمر المندوب السامى الفرنسى باجراء انتخابات عامة لتأليف مجلس يقرر دستور دولة حلب ٠٠ وعند اجتماع المجلس قرر على الفور انهاء الانفصال والاتحاد مع دمشق ، ولم يجد المندوب السامى مفرا من الموافقة على توحيد حلب مع دمشق ، وجعلها جزءا من الدولة السورية اعتبارا من بداية عام ١٩٢٥ ، وبهذه الصورة انتهت دولة حلب بعد أن استمرت أربعة أعوام وبضعة أشهر ٠

أما دولتا جبل العلويين وجبل الدروز فقد طالت مدتهما بسبب احكام الفرنسيين القبضة عليهما وحكمهما حكما مباشرا ، وظل الحال كذلك حتى سنة ١٩٣٦ حيث كانت ثورات الوطنيين تقاوم الاستبداد الفرنسى ، واتخذت هذه الثورات شكلا مسلحا فى بعض الاحيان ، وبناء على اصرار الوطنيين وافق الفرنسيون على ضم جبل الدروز وجبل العلويين لسورية ٠ ولكنه نظرا لعدم تصديق البرلمان الفرنسى على ذلك ظلت أوضاع هاتين الدولتين ، معلقة ومذبذبة الى أن قامت ثورة التحرير الاخيرة سنة ١٩٤٤ ٠ وتم ضم الجبلين الى سورية بصورة نهائية٠٠ وبهذه الصورة تكونت دولة سورية الحالبة من اتحاد دويلات حلب ، دمشق ، جبل الدروز ، وجبل العلوين ٠

كذلك يستشهد ساطع بما حدث فى المملكة العربية السعودية، كانت اراضى المملكة السعودية حتى العقد الثالث من القرن الحاضر

مقسمة بين أربع وحدات سياسية أمارة آل الرشيد شمال نجد ، سلطة آل السعود فى أقسام أخرى من نجد ، المملكة العربية الهاشمية فى الحجاز ، امارة الادربيسى فى الفسير ٠

ثم كان أن قام عبد العزيز آل السعود بعدة حركات عسكرية قضت على الاوضاع السياسية ولقد استغرق القضاء على هذه الأوضاع السياسية عشر سنوات :

أولا سنة ١٩٢١ : استولى على حائل ، وقضى على امارة الرشيد، ووحد بذلك جميع أقسام نجد ٠

ثانيا سنة ١٩٢٥ : استولى على الحجاز وقضى بذلك على المملكة العربية الهاشمية ٠

وفى سنة ١٩٢٦ : ادخل العسير تحت حمايته ، وفى سنة ١٩٣٠ استولى على سائر اقسامه وقضى بذلك على امارة الادريبى وضم القطر المذكور أيضا الى المملكة ٠

وبهذا تكونت المملكة العربية السعودية من اتحاد واندماج (امارتين وسلطنة ومملكة) ، وصارت تمتد لذلك من حائل الى العسير ومن جدة الى الظهران ٠

ثم يتساءل ساطع هل ما حدث من توحيد هذه المناطق الأربع جاء وفقا لمصلحة الامة أو ضدها ؟ هل أصبحت أحسن مما كانت عليه أو أسوأ ؟

فمما لا شك فيه على حد قول ساطع إنه لو بقيت هذه الدويلات لبقى التنازع ٠ ثم يرتفع ساطع ويسمو السمو كله حين يبعد العاطفة جنبا ، وينزع عن نفسه حبه للملك الهاشمى حسين بن على ، ويقرر أن الحركات التوحيدية التى قام بها الملك عبد العزيز بن السعود انتهت الى أوضاع موافقة لمصلحة الامة العربية ٠

« أقول ذلك مع كل ما أكنه من الاجلال والتعظيم لذكرى الملك حسين بن علي ٠٠ أقول ذلك لأني أنظر الى القضايا القومية بنظرات مجردة من النوازع الشخصية واضع مصلحة القومية العربية فوق كل اعتبار ٠ لا أقول يا ليته (الحسين بن علي) بقي على رأس ملكه حتى مماته ، ولا أقول يا ليت المملكة التي أسسها بقيت قائمة الى الآن ، بل أقول ان ما حدث على يد عبد العزيز بن السعود كان بمثابة خطوة من الخطوات الضرورية للسير في سبيل تحقيق الوحدة العربية » ٠

وساطع الحصرى الذى يقول ذلك نعرف من تاريخ حياته انه كان وثيق الصلة بالملك الهاشمى حسين بن علي ، ثم بابنه فيصل الأول ، فلقد خدم مع ابن الحسين (فيصل) فى سورية ثم فى العراق حتى وفاة الملك فيصل فى سنة ١٩٣٣ ٠

لكن الدارس لشخصية ساطع لا يأخذه العجب مما يقرره ساطع ومما يقوله ٠٠ فلقد عاش ساطع من أجل مثل أعلى ، وفكرة سامية ، لا تشوبها المصالح الشخصية ، ولا العلائق الفردية ، عاش ساطع من أجل قضية أكبر ولخدمة هدف أسمى ، وهذه هى العظمة كلها والاخلاص كله لأمته العربية التى بادلها ساطع حبا بحب ، ورأى أنها أحوج ما تكون للكلمة الجريئة المنزهة عن الهوى ، واذا كان هناك الكثيرون من أبناء الأمة العربية المعروف عنهم اخلاصهم لأمتهم ووفائهم لها ، فان هناك القلة المشككة التى تزيف الحقائق وتنشر الزيف والأراجيف ٠٠ رأى ساطع أن الامة العربية بحاجة الى الكلمة الصريحة التى لا تخدم مصلحة شخص ، وانما تخدم مصلحة الامة ٠٠ ذلك دين الأمة على أبنائها ، وواجب الأبناء البارين نحو أمتهم ٠

لقد رأى ساطع أن أقاليم سورية التى اتحدت لتكون الدولة السورية قادرة على أن تتحد مع غيرها من الدول لتكون وحدة للعالم العربى ، ورأى نفس الشىء بالنسبة للمملكة العربية السعودية التى

تكونت من اتحاد بعض الامارات العربية مع الحجاز الذى كان مملكة للحسين بن على ٠٠ وكانت نظرته الى القطر الليبى الذى تكون من برقه وطرابلس وفزان نفس نظرته الى المملكة العربية السعودية والى سورية والى غيرها من الأقطار العربية ، بمعنى أنه يرى أن اتحاد الدول العربية مع بعضها البعض شيء أشبه باتحاد أقسام القطر الواحد ٠

وأن الأمر ليس فيه استحالة أو صعوبة ، وانما الصعوبة فى نظرتنا نحن الى هذه الوحدة ٠ نحن ننظر الى الوحدة بمنظار الاقليميا فنرى الصعوبات والعوائق بل لقد أصبحت كل دولة من الدول العربية بؤرة لوطنية خاصة بها أخذت تستقطب ولاء الأهلين لها ، ولذلك تولد فى كل واحدة منها (نوازع المحافظة على الكيان السياسى القائم) وما نسميه اليوم باسم الاقليمية ما هو الا مجموع هذه النوازع التى تعمل فى اتجاه يخالف مقتضيات الوحدة العربية ويعرقل انطلاقها٠

ويتبين من ذلك ان الاقليمية ترتبط ارتباطا وثيقا بالدولة ، حتى أصبحت هذه الاقليمية نتيجة طبيعية لتعدد الدول العربية ، ويفسر ساطع السبب الذى من أجله أصبحت الاقلمية نتيجة طبيعية لوجود الدول العربية بأن الحياة السياسية الداخلية والخارجية فى هذه الدول تغذى بطبيعتها النوازع الاقليمية ٠

فكل دولة من الدول العربية صارت لها معالم خاصة مشهورة وملموسة ، وسلطات مغلبة تظهر وتثبت وجودها بشتى المناسبات ، لكل دولة علم خاص بها ، وشرطة خاصة بملابس وشارات خاصة وجيش خاص ونشيد رسمى خاص وأوراق هوية وجواز سفر وأوراق نقدية ونقود خاصة ٠

وبتعبير أقصر صار لكل دولة من الدول العربية سلسلة من الأمور الخاصة بها ، يراها كل فرد منذ نعومة أظفاره ، ويألفها

ويرتبط بها نفسيا ، ويشعر من جرائها بأنه يختلف عن غيره من أبناء الدول العربية الأخرى ·

وتصبح فكرة القومية العربية أمام تعدد الدول العربية مجرد فكرة فى الخواطر تختلج في الصدور ولا تجد ما يدعمها ويقويها من طبيعة الحياة الادارية والسياسية القائمة ، بل قد تجد منها معارضة شديدة وتصطدم على الدوام بالنوازع الاقليمية ·

وفضلا عن ذلك فان هناك عوامل كثيرة فى رأى ساطع تقوى وتنمى النزعات الاقليمية وتضر بالفكرة القومية ، فكل دولة عربية لها قوانينها واقتصادها الخاص بها ونظمها التعليمية وثقافتها الخاصة واذاعتها وصحافتها ، وفوق هذا كله وأخطر منه انه يتكون فى كل دولة طائفة من الزعماء والحكام والساسة الذين ترتبط منافعهم ومطامعهم بالاوضاع السياسية القائمة فينزعون الى المحافظة على كيان الدولة ولا يرضون بذلك الكيان ، داخل دولة موحدة ·

ثم هناك الى جانب هذه العوامل الداخلية عوامل خارجية عديدة تعمل فى نفس الاتجاه وتقوى النوازع الاقليمية · فالدول الطامعة فى خيرات البلاد العربية ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد والتحالف بين الدول العربية بل تعمل جاهدة على أن يزداد ويتفاقم · ولذلك تبذل كل ما فى وسعها من جهود لاثارة الروح الاقليمية فى مختلف البلاد العربية ·

والخلاصة التى يريد أن يصل اليها ساطع من ذلك كله ان الاقليمية وليدة تعدد الدول العربية ، وتعدد الدول العربية وليد الاستعمار ·

يجب على كل فرد عربى أن يكافح الاقليمية كما كان يكافح الاستعمار .

ويجب عليه أن يكافح الاقليمية أولا فى خبـــايا نفسه ثم بين بنى قومه بكل قواه .

ويجب ن ترسخ فى أذهان كل فرد عربى هذه الحقائق رسوخا تاما ولا يغيب عن باله أن الاستعمار الأوربى الذى جثم على صـدر مختلف الأقطار العربية قد خلف قبل أن يزول كثـــيرا من البذور والآثار الضارة .. وان أخطر هذه البذور وأضرها هو تجزئة البلاد الى دول ودويلات عديدة وفصل بعضها عن بعض بحدود مصطنعة ، وتوجيه كل منها اتجاها يختلف عن اتجاه غيرها حتى استطاع أن يهيىء البيئة الصالحة لتنمية (الروح الاقليمية) فى كل واحـــدة منها .

موقفه من تجربة الوحدة بين مصر وسورية :

سعد ساطع السعادة كلها واغتبط كل الاغتباط يوم تحققت أول تجربة للوحدة بين مصر وسورية وأرسل له اكرم الحورانى يوم اعلان الوحدة برقية يقول فيها :

فى فجر هذا اليوم الذى يتحقق فيه الأمل بتحقيق وحـــدة القطرين العربيين نتطلع الى الأحرار الملهمين الذين غذوا نفوس هذا الجيل بشعور القومية ليخبى فيهم روح الوطنية التى حملت هـــذا المشعل دون وهن فلكم شكر الوطن .

لكن التجربة الحبيبة الى نفس كل عربى واجهت ما كان ساطع

يحذر أبناء الامة العربية منه ، واجهت مقاومة من أصحاب المصالح الذين ترتبط مصالحهم ومنافعهم ومطامعهم بالنزعة الاقليمية، وواجهت حربا من جانب الاستعمار الذى ترتبط مصالحه هو الآخر فى تقوية الاتجاه الاقليمي واستمرار التباعد والتنابذ بين الدول العربية .

وكان لهذا كله ولغيره ان انتكست أول تجربة للوحدة فحدث ما ظل ساطع يصفه بخيانة ٢٨ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ من انفصال القطر السورى الشقيق من الوحدة التى ارتضاها ودعا اليها كل أبنائه المخلصين البارين بوطنهم وبأمتهم العربية .

وحين حدثت هذه الخيانة بادر ساطع دون هوادة يحمل فى ثورية حملة شعواء على دعاة الانفصالية . وجاء كتابه الاقليمية جذورها وبذورها يفضح كل من تناسى المبدأ فى سبيل السياسة .

لم يستبد اليأس بساطع يوم حدث الانفصال فما عرف عنه انه كان أسير اليأس فى يوم من الايام . لقد كان يشعر ان واجبه هو أن يقوى روح التفاؤل بين أبناء الأمة العربية لأن الاستعمار كان من مهمته أن يبث اليأس في مستقبل هذه الامة بين نفوس أبنائها . ومن ثم كان أول واجب دعاه المصلحين فى هذه الإمة أن يقاوموا روح اليأس وهذا ما فعله ساطع ونجح فيه .

رأى ساطع أن القومية العربية حركة ثورية لا بد أن تصطدم بردود الفعل من الخارج والداخل ، وان التحصن من ردود الفعل ان نعالجها بثورية لا تستسلم لفشل تجربة من التجارب .

وغداة الانفصال نشرت له جريدة الحوادث البيروتية رأيه فى خيانة ٢٨ من ايلول عام ١٩٦١ .

قال ساطع : « ان ايمانى بمستقبل الامة العربية الزاهر ووحدتها المحتومة .. لم يتزلزل ، على الرغم من النكسة الاليمة التى

منيت بها أخيرا ٠٠ وأما منطق البيان الذى أصدره بعض دعـــاة الانفصالية تبريرا لموقفهم فيشبه كل الشبه منطق من يقول :

هذا الوليد لا يزال غير سليم من العيوب ، فلنقتله الآن لكى نحييه بالشكل الذى نريده فى مستقبل الأيام » ٠

ولم يكن مهاجمة ساطع لأولئك الانفصاليين أساسه معارضته لحزب معين أو لنظام سياسى خاص ، فالمعروف أن ساطعا سما فوق كل الاحزاب فهو يقول :

« لم انتسب لأى حزب من الاحزاب السياسية لا فى العراق ولا فى سورية ، ان موقفى من الأحزاب السياسية موقف الباحث المنفرج بوجه عام »

هو مع كل حزب عربى ينادى بالوحدة العربية ، وضد كل حزب يعارض هذه الوحدة ٠

هو مع كل سياسى يسعى لهذه الوحدة ، وضد كل سـياسى يشكك فى أمرها أو يضلل بشأنها أو يتاجر باسمها ٠

أخذ ساطع يفند الاتهامات التى وجهت لتجـــربة الوحدة ٠٠ هناك من رأى فى الوحدة انها حرمت المدرسين السوريين من أن يكون لهم دروس إضافية يتقاضون عنها راتبا ٠ هناك من رأى فيها انهـا أضرت بالمحامين لأنها وجدت لجان مصالحة فصار الكثيرون من أصحاب الدعاوى يحلون قضاياهم فى اللجان المذكورة فلا يذهبون الى المحاكم! وهناك من قال ان الوحدة كانت ظالمة وحين يسأله ساطع عن أى نوع من الظلم يقصد ، فيجيبه القائل انه كان صاحب قضية قضـــائية فانتهى الحكم فيها الى حكم جائر وحين يسأله ساطع : وهل كان القـاضى مصريا ؟ يجيبه لا كان سوريا ٠ وهل القانون الذى حكم به وضع فى عهد الوحدة ؟ يقول لساطع لا كان القانون موجودا قبلها ٠

ويدهش ساطع وما علاقة هذه القضية بالوحدة ، ثم يقـــول

« لقد كنتم تنتظرون من الوحدة أن تأتي بالمعجزات كأنها تملك عصا سحرية تستطيع ان تغير كل الاحوال وتصلح كل الامور فى جملة واحدة ، فتحقق ما عجزت عن تحقيقه أرقى بلاد العالم ، وكأنها المدينة الفاضلة التى يسود فى أرجائها العدل المطلق والخير العميم ٠

كان ساطع وهو يتقصى الحقائق التى أدت الى الانفصال يريد أن يقف على أمور موضوعية فيخيب أمله من أن نظرة كل شخص للوحدة كانت نظرة من جهة مصالحه هو ٠

أما الساسة الذين أيدوا الانفصال وباركوه فقد أخذ ساطع يذكرهم بتصريحاتهم قبل الوحدة وأبانها وكيف باركوا هذه الوحدة وأيدوها ٠

ثم يتكلم عما عرف بالاخطاء التى بررت الانفصال أو تقـــال تعليلا له :

« اننى اعتقد ان كل من يربط بين الانفصال وبين الاخطاء يرتكب خطأ عظيما يدل على تقصير كبير فى الفهم السياسى ، فضلا عن ضعف شديد فى الايمان القومي ٠ لأن الخطأ والصواب من الامور الدارجة فى الحياة الفكرية والسياسية ، فلا يسلم من الخطأ فى بعض الامور أى انسان ، مهما كان عظيما وعبقريا » ٠

يستنكر ساطع الحديث عما يعرف باسم الاخطاء لأن الخطأ من خصائص العاملين والعظيم ليس من لا يخطىء ولا يفشل أبدا ، بل هو الذى يعرف كيف يستفيد من الأخطاء ، ويصحح الخطأ ٠ أن البحث فى الخطأ لمجرد معرفته أمر لا يقره انسان ، لكن البحث فى

الخطأ تمهيدا لاستخلاص الدروس العملية والاستفادة مما حدث أمر مفيد وضروري ٠

ويشير ساطع في اكبار واحترام للنقد الذاتي الشامل الذي أوضحه الرئيس عبد الناصر وأعلن نتائجه الى الرأي العام في صراحة وشجاعة بعد نكبة الانفصال ٠

ويصفه بأنه نقد ذاتي مشبوب بحرارة الايمان ومقرون بشجاعة أدبية لا مثيل لها في التاريخ ٠ ويرى ان هذا النقد الذي أوضحه الرئيس يدعو الى الانحناء أمام هذا الاخلاص وهذه الصراحة بكل تقدير واعجاب واجلال ٠

لم يكن لما حدث من نكسة تجربة الوحدة ليوهن من عزم ساطع بل على العكس زادته قوة على قوة ، واعطته مزيدا من الايمان بحتمية الوحدة ، برغم ما حدث من انفصال ٠ فالوحدة عند ساطع كالنهر الذي لا بد أن يشق طريقه ، برغم ما قد يعترض طريقه من معوقات ٠

أما الشكل الذي يتصوره ساطع للوحدة العربية ، فهو اتحاد يجمع بين هذه الدول يتوحد فيه دفاعها وتتوحد فيه سياستها الخارجية وثقافتها وأمورها الاقتصادية ٠

يقول ساطع ذلك ويؤكده في رده على نقد وجهته له جريدة العمل اللبنانية التي كانت تعبر عن حال حزب الكتائب اللبنانية (١)

كذلك يقول ساطع في رده على سؤال وجهته له صحيفة أخبار اليوم في سنة ١٩٥٤ عن رأيه في الوحدة ، وكانت الصحيفة قد وجهت هذا السؤال لعدد من الكتاب والسياسيين ٠ قال ساطع

---

(١) ارجع لذلك في كتاب ساطع : العروبة بين دعاتها ومعارضيها

في رده : أعتقد ان اتحاد الاقطار العربية العام سيكون ـ ويجب أن يكون على أساس « النظام الفدرالى » لا أشك فى أنه سيحدث (اندماج تام) بين بعض الاقطار ، ولكنى أعتقد أن ذلك لن يكون عاما .

وأما (الامبراطورية ذات المركزية التامة) فيجب أن تستبعد من الأذهان لأن نظام المركزية الشديدة الذى ألفته الحكومات العربية القائمة الآن لا يتلاءم مع حاجات العصر الحديث ولا يضمن مصالح الشعوب الحقيقية .

وأنا أعتقد بوجوب تخليص الدول العربية من المركزية التى اعتادتها الى الآن . فمن الطبيعي ألا أحبذ تأسيس مثل هذه المركزية فى الدول العربية العامة التى ستتكون من اتحاد هذه الدول فى مستقبل الأيام .

ثم هو يدعو الى الاعتماد على المجالس البلدية والمحلية فى ادارة البلاد العربية لأن عدم تقدم الحياة الديموقراطية الحقيقية فى البلاد العربية يتأتى فى الدرجة الاولى من اهتمامنا بالانتخابات النيابية وحدها ، وعدم تقديرنا لوجوب الاهتمام بالمجالس المحلية » .

ويؤكد ساطع أن قوله هذا لا يصح أن يؤخذ على أنه تعارض مع دعوة الوحدة مثلما حدث ذات يوم أن جاءه من قال له معروف عنك انك وحدوى تام فكيف تقول ذلك . ويرد عليه الحصرى بأنه ما قاله ليس فيه خروج على الوحدوية لأنه تكلم عن اتحاد الأقطار العربية العام ، وأكد انه سيحدث اندماج تام بين بعضها غير ان ذلك لن يكون عاما من أول الامر ، ومن ثم يجب أن يكون بين هذه الاقطار كلها اتحاد فدرالى (١) .

---

(١) الاقليمية جذورها وبذورها : ساطع الحصرى ص ٧٩ . الطبعة الاولى

وهنا يتعين علينا توضيح حقيقة هامة وكثيرة ما اتخذت سبيلا لطعن ساطع فى آرائه . لم يكن ساطع فى دعوته الى اتحاد فدرالى بين الدول العربية يرمي من ذلك الى تثبت الفوارق الاقليمية بين هذه الدول ، وانما كان يستهدف من ذلك الا تكون هناك كما قال امبراطورية ذات سلطة مركزية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يريد أن تكون للمجالس المحلية والشعبية فى تلك الاقطار العربية سلطاتها ودورها الفعال .

والدليل على ذلك انه هاجم في سنة ١٩٦٢ المشروع الذى قدمه بعض الساسة فى سورية لاعادة الوحدة بين سورية ومصر والذى نشر فى مايو (آيار) من تلك السنة .

جاء فى هذا المشروع ان يكون شكل الوحدة على النحو التالى :

دولة الوحدة دولة واحدة اتحادية برئيس واحد ونائب رئيس واحد حكومة اتحادية ومجلس نيابى ومجلس اتحادى ومحكمة اتحادية وادارات ومؤسسات ومجالس ولجان اتحادية .

وان الشرط فى الرئيس ونائب الرئيس الا يكونان من اقليم واحد وانتماؤهما من الاقليمين يرمز الى التكافؤ بين الاقليمين ، والى المشاركة فى أمور الدولة الواحدة .. أما الهيئة التشريعية فتتألف من مجلسين مجلس نيابى ينتخب على أساس عدد السكان ومجلس اتحادى ينتخب على أساس التساوى بين ممثلى الاقليمين ، وكل تشريع يصدر عن المجلس النيابى لا يقر الا اذا وافق عليه المجلس الاتحادى ، **وبهذا يضمن عدم تسلط الاقليم الكبير على الاقليم الصغير، ويتحقق تكافؤ الاقليمين بالدولة الواحدة ..**

هاجم ساطع هذا المشروع بكل قوة على أساس انه يهتم بالفوارق الاقليمية فهو مشروع يتكلم عن (واقع هذه الفروق) ويحتم

العمل على ضوء أحوال الاقليم الواقعية · لقد رآه مشروعا تم التفكير فيه بعقلية التجزئة كما قال وأعد بدوافعها ومن ثم فهو مشروع تطل فيه الاقليمية برأسها ، مآله الفشل ولا خير يرجى منه ·

وحين يجد من يبرر الانفصال بأن الدافع اليه هو المحافظة على الكيان السورى ينبرى ساطع للرد على ذلك مستعينا بالخرائط فيقول ان ما يزعمه البعض من الوجود أو الكيان السورى أساسا لطعن فكرة الوحدة هو زعم لا أساس له من الصحة ولا سند له من التاريخ · فسورية الحالية بحدودها التى هى عليها حديثا لم تكتسب الا منذ الاربعينات من هذا القرن بعد أن اندمجت اللاذقية وجبل الدروز وحلب مع دمشق على نحو ما سبقت لنا الاشارة اليه ·

ومضى ساطع يحمل فى غير هوادة دفاعه عن قضية العروبة وعن ضرورة البذل فى سبيلها بكل غال · ويفند قول القائلين بأن الشقاق طبع فى العرب ·

بهذا كتب ساطع فى مجلة الرسالة جوابا على سؤال لصديقه الاستاذ الكبير أحمد حسن الزيات ·

يسأله الاستاذ الزيات هل الشقاق طبع فى العرب ؟ فيجيب ساطع :

صديقى الاستاذ

لقد اطلعت على السؤال الذى وجهتموه الى فى مقالكم بعنوان : هل الشقاق طبع فى العرب ؟ يا صديقى الأستاذ لا يوجد فى طباع الأمة العربية ما يجعلها شاذة عن سائر الامم فى الاتفاق والانشقاق

يجب علينا أن نعرف ذلك حق المعرفة ، كما يجب علينا ان نعتقد اعتقاد جازما بأن طبائع الامم لا تبنى على وتيرة واحدة على مر العصور ان الماضى لا يقيد الحال مطلقا ·· يجب علينا أن نتخلص من نزعة الاشتغال بالماضى كثيرا وان نقلع عن الالتفات الى الوراء · فلا يجوز أن نحاول تبرير مساوينا الحالية بنقائص أسلافنا الاقدمين · لا ريب ان حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التى منينا بها أخيرا كانت فى منتهى الفظاعة (كتب ساطع ذلك بعد عام ١٩٤٨ مشيرا الى حرب فلسطين) ·

ولا يريد ساطع ان يحلل الاسباب التى أدت الى نتائج حرب عام ١٩٤٨ فى فلسطين ، وانما يرى أن هناك سببا آخر ربما كان أبعد أثرا وأشد خطرا من كل ذلك هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم اقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم ، اننا لم نستجمع بعد قوانا المادية والمعنوية ونحشدها لتحقيق هدفنا الاسمى، بل اننا عملنا بتراخ وتردد بدون عزم قوى ·· ومهما يكن الامر يجب علينا ، ألا نقطع الامل فى النجاح فى المستقبل وألا نتأخر عن اعادة الكرة بايمان عظيم ·

ثم هو يرى ان العقبات فى سبيل تحقيق الآمال لا يجب أن تكون سبيلا الى القنوط واليأس فيقول : « يجب علينا ألا ننسى انه ما من أمة وصلت الى الكمال الذى تنشده الا بعد ان اجتازت عقبات كثيرة وذاقت مرارة الفشل مرات عديدة ، واضطرت الى تضحيات كثيرة ·· ان الأمم الحية الوثابة تتغط بالنكبات فتندفع الى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن · وأستطيع أن أقول ان الايمان القوى والعظيم بامكانيات أمتنا ، والعمل الحازم المتواصل لتحقيق غايتنا ، والاستعداد التام للكفاح مصحوبا بروح التضحية الحقيقية ومدعوما بالأمل الذى لا يقهر ، هى أهم ما يترتب علينا من واجبات

« وبناء على هذه الملاحظات أستطيع أن أقول بلا تردد : لا يجوز لنا ان نترك مجالا لتسرب الخور والقنوط الى أنفسنا ، ويجب أن نعلم علم اليقين ان النكبة لا تصل الى حدها الاقصى الا عندما تثبط العزائم . فعلينا الا نستسلم للقنوط والخور » .

وهكذا ظل ساطع يبث الايمان في نفوس أبناء أمته العربية ينزع عنهم روح اليأس ، ويبث فيهم روح التفاؤل، لكن التفاؤل الذى دعا اليه ساطع ليس تفاؤل التواكل المستسلم للأمور انما كانت دعوته الى تفاؤل مصحوب بالعمل ، تفاؤل نستفيد منه من أخطاء الماضى وتجارب الاحداث ، يدعونا ساطع أن نخرج من النكبة بالدروس التى تجنبنا الوقوع فيما وقعنا فيه من قبل .

ومع نكسة الخامس من يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ ظل ساطع الحصرى على ايمانه بأن الوحدة العربية هي الدرس الذى ينبغي أن نخرج به منها ، لقد هزت هذه النكسة ساطع من الاعماق لكنها لم تبلغ به اليأس ، لقد رأى ان العدو خطط لنفسه على أساس استحالة وحدة العرب فلا سبيل لمواجهته الا بوحدة تنسق بين امكانياتهم وتوفق بين جهودهم .

مصر والبلاد العربية عند ساطع :

كانت لمصر عند ساطع مكانتها الخاصة ومنزلتها الحبيبة الى قلبه، كان يشعر أنها بالنسبة للعالم العربي بمثابة القلب من الجسد لها مكانتها ولها فاعليتها ودورها الهام المؤثر فى هذا العالم . اختار ساطع مصر للاقامة فيها بعد أن اعتزل المناصب ، وظل فيها حتى سمح له الرئيس الراحل عبد السلام عارف بالعودة الى العراق فأقام هناك حتى توفى .

لكن الذين كانوا على صلة بساطع عن قرب يعرفون تماما مدى

ما كان يكمنه لمصر من حب وغيرته عليها ودفاعه عنها. ومنذ أقام ساطع فى البلاد العربية (١٩١٩) وهو دائم التردد على مصر لا يترك فرصة تسنح له الا وقدم لزيارتها ، أو أقام فيها باحثا فى نظمها متقصيا فى أحوالها .

سافر الى مصر سنة ١٩١٩ .. في بداية عمله فى سورية بغية لاطلاع على أحوال مدارسها والكتب المدرسية المطبوعة فيها على نحو ما سبق لنا ذكره . وبعد خروجه من سورية عقب احتلال الفرنسيين لها . قام فى مصر واتخذ له بيتا فيها حتى دعاه فيصل الأول للعمل في العراق . ثم تتابعت زيارته لمصر أثناء عمله فى العراق فجاء اليها سنة ١٩٣٥ عندما عين مراقبا عاما للتعليم العراقى ، جاء ساطع الى مصر موفدا من الحكومة العراقية لتنظيم العلاقات الثقافية بين البلدين .

ثم جاءها سنة ١٩٣٧ .. عندما كان مديرا للآثار القديمة موفدا من الحكومة العراقية لحضور مؤتمر الحفريات الدولى الذى انعقد فى القاهرة ، وقد انتخبته منظمة التعاون الفكرى التابعة الى عصبة الأمم الى عضوية لجنة المتاحف الاممية . ومر بمصر فى عام ١٩٣٩ خلال عمله فى مديرية الآثار القديمة حين سافر الى افريقيا الشمالية لدرس الآثار العربية فيها حيث زار المغرب والجزائر وتونس وانتقل منها الى صقلية وزار ايطاليا .

ثم سافر ساطع الى مصر سنة ١٩٤٦ عندما كان مستشارا فنيا لوزارة المعارف فى سورية حيث استفاد من أجازته السنوية التى لم يكن قد استنفدها وجاء الى مصر حيث زار أماكنها الاثرية وسافر الى الاسكندرية والأقصر وأسوان .

ثم أقام فيها ساطع بعد أن ترك عمله فى سورية مدة قاربت العشرين عاما حيث كان يعمل بالجامعة العربية ومعهد الدراسات

العربية العالية ، ثم اختارها بعد أن استقال من كل أعماله وتفرغ للبحث والتأليف •

مصر عند ساطع عربية لحما ودما وحين يسأل السائل ساطعا : متى كانت مصر مع العرب ؟ فيجيبه على الفور ومتى كانت مصر بعيدة عن العرب ؟ يكتب ساطع فى مجلة الرسالة ناقدا لنظام التعليم فى مصر وينهى بحثه بقوله :

أرجو الا يعتبرني أحد متطفلا على مصر بهذه الملاحظات ، فانى عربى صميم ، أدين بالعروبة التى تملأ كل جوانحي واهتم بمصر قدر اهتمامى بسورية والعراق • ولا أكون مغاليا اذا قلت اننى أهتم بمصر أكثر مما أهتم بسورية والعراق ، لأنى أعرف أن مصر بحسب أوضاعها العامة أصبحت القوة المؤثرة على العالم العربى بأجمعه •
فأعتقد لذلك ان كل تقدم يحصل فى مصر لا يخلو من النفع لسائر البلاد العربية ، كما أن كل نقص يعيش ويستمر فى مصر لا يخلو من ضرر العدوى الى سائر البلاد العربية ، فكل خدمة تسدى الى مصر انما تسدى الى البلاد العربية جميعها » •

ثم يناقش ساطع ما أثاره بعض المفكرين المصريين عما اذا كانت على مصر أن تتجه نحو الرابطة الافريقية ، أو رابطة البحر الابيض المتوسط ، أو الجامعة الاسلامية •

ويناقش ساطع هذه القضايا التي أثارتها صحيفة أخبار اليوم فى عددها الصادر فى ١٩٥٠/٣/٢١ بسؤال للأستاذ فتحى رضوان قال فيه : « من أنا ومن انت ؟ لست أسأل عن اسمى أو اسمك أو صناعتك أو عملى أو عملك وانما أسأل من يكون هؤلاء الذين يقيمون فى هذه الرقعة من الارض التى تسمى مصر ؟ فهل المصريون عرب ؟ وهل هم عرب جنسا عرب سياسة أم عرب ثقافة ؟• أم هؤلاء المصريون افريقيون ؟ أم هم من أهل البحر الابيض المتوسط؟

فسياستهم وثقافتهم وتقوم على تقوية العلائق السياسية والثقافية بدول وشعوب هذا البحر ولا سيما دول الجزء الشرقى والجنوبى منه ؟ أم هؤلاء المصريون من أوربا وبلادهم قطعة منها كما كان يقول الخديو اسماعيل ؟ » .

ولبى الاجابة على سؤال الاستاذ فتحى رضوان عدد كبير من الكتاب والسياسيين ونظمت دار الهلال ندوة اشترك فيهــا عدد من الشخصيات المصرية الكبيرة فى ذلك الحين .

بادرساطع يناقش هذه القضايا ، ويقول : قد يعترض على معترض ان السؤال موجه الى المصريين والمقصود منههو حمل المصريين على التفكير فى قضاياهم القومية فلماذا تحشر نفسك فى هذه المناقشة وانت لست من المصريين ؟

ويجيب ساطع على ذلك مؤكدا ما كان يقوله فى كل مرة : انه يهتم بمصر قدر اهتمامه بسورية والعراق أو بأى بلد عربى ، انه يعرف أن لمصر دورها المؤثر والفعال فى العالم العربى ، فهو حريص على مصلحتها حرصه على مصلحة كل بلد عربى .

ثم يتساءل ساطع : اذا كان من المعلوم ان مصر تقع فى أقصى الشمال من القارة الافريقية فهل يحتم وضعها الجغرافى على المصريين ان يعتبروا أنفسهم من الشعوب الافريقية ؟ وهل يترتب على مصر من جراء هذا الوضع ـ أن تجعل الرابطة الافريقية محورا لسياستها العامة فتسعى وراء توحيد شعوب هذه القارة ؟

يجيب ساطع على ذلك بقوله : لا يجوز للمصريين أن يعتبروا بلادهم افريقية محضة وساطع بقوله ذلك لا يقصد ان يهمل المصريون أمور القارة الافريقية ولا العمل على تنسيق سياستهم وأمورهم مع سياسة وأمور اخوانهم الافريقيين ، لكنه يرمى الا تكون السياسة

المصرية موجهة على أساس ان مصر بلد افريقى محض فتنسى ما عداه من أمور ·

وساطع حين قال هذا وقرره فى الاربعينات من هذا القرن كان يبغى أن يجعل المصريين غير منطويين على أنفسهم يشعرون بعروبتهم وبأن مصر جزء لا يتجزأ من العالم العربى ·

يقول ساطع : « لقد تعرضت البلاد العربية المختلفة فى الماضى القريب ولا سيما خلال العقد الثالث من القرن الحاضر — لاحداث وعواصف سياسية عديدة ومتنوعة ·

« خلال تلك السنين كان معظم الأقطار العربية — ولا سيما القطر المصرى — منطويا على نفسه لا يهتم بما يحدث فى غيره ، ولذلك بقيت تلك الأحداث خارج نطاق اطلاع معظم المثقفين واهتمامهم فى مختلف البلاد العربية » ·

ويقصد ساطع من اثارة هذه القضايا « ان ينير السبيل أمام تفكيرنا السياسى ويساعد على توجيهه الوجهة السليمة فى بحر القضايا العربية الذى يزداد تلاطما يوما بعد يوم ·

هو اذا لا يدعو مصر أن تنسى انها جزء من القارة الافريقية وأن مصيرها مرتبط بمصير هذه القارة ، لكنه يدعوها الا يكون ذلك سببا فى ان تنسى انها جزء من عالم عربى تحيط به العواصف وتسيطر عليه المطامع الاستعمارية ، فينبغى على مصر أن تؤكد وجهها العربى وسياستها العربية وثقافتها العربية ·

وهذا يوضح قوله « واذا أمعنا النظر فى وضع مصر من حيث اللغة والثقافة وجدنا أنها (مصر) تقع فى وسط عالم عربى واسع الارجاء يمتد من شواطىء المحيط الاطلسى فى الغرب الى هضاب ايران فى الشرق » ، فمصر من هذه الوجهة عنده قريبة جدا من

الوجهة الثقافية من البلاد امعربية ثم هو يستعين بما قاله الباحثون الجيولوجيون ان مصر تؤلف (وحدة طبيعية) مع الجزيرة العربيــة وسورية ووادى الرافدين ٠

كذلك ينكر ساطع على القائلين قولهم بأن مصر تنتمى الىرابطه البحر المتوسط ويقول ان هذه الفكرة لاتنتمى الى تفكير علمىصحيح٠ ويحذر المصريين من ان تجد هذه الفكرة قبولا لديهم « انى أحذر المصريين من ان ينخدعوا بهذه الآراء السياسية المقنعة من ان يفكروا فى جعل شئون البحر الابيض المتوســـط محورا لسياسة مصر الداخلية أو الخارجية » ٠

ان الساعين الى بث هذه الفكرة استهدفوا من ورائها فى نظر ساطع ابعاد المصريين عن فكرة العروبة اذ قالوا لهم (للمصريين) لا علاقة بينكم وبين العرب ٠ أنتم من شعوب البحر الابيض المتوسط مثلنا ٠

كذلك كان موقف ساطع من نفس الفكرة القائلة بالرابطــة الاسلامية ٠ هو لا ينكر ان الرابطة الاسلامية أهم وأقوى بكثير من الرابطة الافريقية ورابطة البحر المتوسط على أساس أن الربطة الاسلامية رابطة معنوية تستمد قوتها من العواطف الدينية ٠

وموقف ساطع على هذ النحو مرجعه كما سنبين عند حديثنــا عن أسس القومية عنده ٠ ان الدين وان كانت له أهميته ودوره الفعال ، لكنه عند ساطع ليس بأحد الاسس التى تبنى عليهـــا القوميات ٠ فالمصريون ليسوا كلهم مسلمين ومن ثم فهو يؤكد ان الرابطة الوطنية والقومية يجب أن تتقدم ــ بهذا الاعتبار ــ عــلى الرابطة الدينية فى الشئون السياسية ٠

كذلك يرى ساطع أن عصر القرن العشرين هو عصر انفصــلت

فيه العلائق السياسية عن العلائق الدينية واختلفت عنها اختلافا كليا ٠

ثم هو يستعين بأمثلة التاريخ التى تثبت ان الاتفــاق فى الديانة بين الدول لم تمنع من نشوب الحروب فيما بينها ٠ فمثــلا فى سنة ١٨٥٤ اتفقت انجلترة وبروسيا وسردينا مع السلطنــة العثمانية ضد روسيا وأرسلت هذه الدول جيوشها وأساطيلهـــا الى القرم لتحارب بجانب الجيوش العثمانية المسلحة ضد روســيا المسيحية ٠٠ كذلك نجد ان ايطاليا لم تحجم عن الاغارة على الحبشة مع ان الامبراطورية الحبشية كانت مسيحية مثل ايطاليا ٠ ثم هناك حركة مصطفى كمال فى تركيا ومساعدة روسيا له ضد اليونان ٠٠ كل هذا يستشهد به ساطع للدلالة على ان الدين لم يعد هو الباعث لحركات الدول ٠ فاذا ما خشى ساطع ان يعترض عليه معترض بأن ما يقوله قد يكون صحيحا بالنسبة الى العالم الغربى ، ولكنــه غير صحيح بالنسبة الى العالم الاسلامى ، يقول فى معرض الرد على ذلك : ان الامم الاسلامية كثيرة ومتنوعة ومنبثة فى أقطار متباعــدة من طنجة فى الغرب الى أقاصى الصين والجزائر الاندونيســية فى الشرق ٠

ولم يحدث فى التاريخ ان أتحدت مصر مثلا مع أندونيســيا أو نيجيريا فى أى عهد من العهود الاسلامية ، وهى لم تتحد حتى فى العصور التى كان الشعور الدينى يسيطر خلالها على كل شىء ويطغى على السياسة فى كل الاقطار ٠ فكيف بهذا العصر الذى تعقــدت خلاله العلائق الدولية تعقدا هائلا وتباعدت عن الاعتبارات الدينية تباعدا كبيرا ؟

ويرى ساطع انه حتى فى الامم الاسلامية المتقاربة بعضها لبعض مثل العرب والترك والفرس قد اختلفت فى الماضى وما زالت تختلف

فى الحاضر فى الأمور الثقافية وفى الاتجاهات السياسية ٠

وأنا أعلم ان هناك من يختلف مع ساطع فى رأيه فى الاسس التى تكون القوميات ، لكنه يجب أن تكون نظرتنا لآرائه نظرة تضع فى حسابها ان ساطع عاش من أجل فكرة واحدة ملكت عليه فؤاده وأمسكت بزمام نفسه ، وعاش مدافعا عنها مناضلا من أجلها ، تلك هى فكرة العروبة ، وأنه بدأ يدعو الاقطار العربية الى أن تؤكد وجهها العربى ، وسياستها العربية ، وايمانها بالكيان العربى فى وقت لم تكن فكرة القومية العربية سوى ضوء خافت باهت فى نفوس أبناء الأمة العربية فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ٠

وجاء ساطع يدعو للفكرة القومية العربية وينبه لها ويجسمها ويدعو بها ، وكان تركيزه فى دعوته على مصر التى كانت النزعات المختلفة تتجاذب أبناءها ٠٠ هناك من يؤكد أصلها الفرعونى ، وهناك من يخرج بفكرة رابطة البحر المتوسط أو الرابطة الاسلامية وغيرها ، بينما الرابطة العربية لا تجد تأييدا قويا بين المصريين ٠

ومن هنا كان دور ساطع وفضله الكبير وتحمسه لفكرة الرابطة العربية التى تربط مصر بالبلاد العربية ٠

يرى ساطع ان المصريين بأجمعهم يتكلمون ويتخاطبون ويتفاهمون باللغة العربية ومن ثم فهم (عرب) بهذا الاعتبار ٠

ولا مبرر للتساؤل عند ساطع فيما اذا كان المصريون عربا جنسا ودما لأنه من الحقائق الثابتة التى يؤكدها انه لا يوجد على الارض أمة ينحدر جميع أفرادها من أصل واحد ٠

ولما كانت اللغة ٠ أهم الاسس فى تكوين القوميات عنده ولما كانت لغة المصريين هى العربية فجميع المصريين يتكلمون باللغة ولا يوجد بينهم جماعة تبقى خارج نطاقه هذه الرابطة ٠

لهذا السبب يترتب على مصر من وجهة نظره « ان تخصص لشئون هذا العالم الموقع الاول في سياستها الخارجية مع العلم أن هذه السياسة يجب أن تتحول بالتدريج من سياسة خارجية الى سياسة داخلية · ويجب على مصر ان تسعى وراء توحيد العالم العربى وان تكون أشد العاملين اندفاعا فى هذا السبيل » ·

وينتهى ساطع الى القول الى أنه ينبغى التأكيد بأن مصر عربية ومستقبلها مرتبط بمستقبل العروبة أشد الارتباط ، ويترتب على المصريين أن يقولوا نحن المصريين عرب ، مصر وطننا الخاص والعالم العربى وطننا العام مصر وطننا الأصغر والعالم العربى وطننا الأكبر·

على المصريين أن يقولوا ذلك ، ويؤمنوا به ، ويعملوا وفق ما يقتضيه هذا القول وهذا الايمان ·

ثم هو لا ينكر على المصريين حقهم فى اعطاء المزيد من الاهتمام لما فيه مصلحة مصر أولا وذلك للرد على القائلين بانكار فكرة العروبة على أساس من زعمهم انه ينبغي الاهتمام بما فيه مصلحة مصر فقط· يرى ساطع ان كل تقدم يحققه القطر المصرى يعود بالنفع على جميع البلاد العربية فهو لا ينكر على المسئولين فى مصر ان يعطوا مزيدا من الاهتمام لما فيه مصلحة مصر فان مصلحة العرب مع مصلحتها وكل ضرر يصيبها يصيب العرب ·

أما القائلون بالنزعة الفرعونية فلا يمكن لاحد أن ينكر فضل الحضارة الفرعونية وان افتخار المصريين بهذه الحضارة لا يتعارض مع افتخارهم بحضارتهم العربية ، هذه الحضارة التى يقول عنها ساطع انها لم تكن خاتمة لماض سحيق ، بل هى فاتحة لمستقبل باهر ·

وهذا المستقبل الباهر سيشهد قيام الدولة العربية المتحدة مع تقدم الآمة العربية الناهضة نحو أعلى مراتب العلم والحضارة ٠

كان ساطع يقول ذلك للمصريين فى وقت كانت هناك اصوات ترتفع بان المصريين مصريون أولا وأخيرا وكان هناك من يقول نحن مصريون قدماء ولا شىء غير ذلك فانبرى للرد على هؤلاء يقول لهم أنتم عرب أولا : انا اعرف ان المصريين الذين يقولون ذلك قليلون الآن ٠ ولكننى لا أشك فى أن عدد هؤلاء سيزداد بسرعة ٠ كلما ازداد اتصال مصر بسائر البلاد العربية وكلما تعمق المفكرون والكتاب فى درس (مصالح مصر الحقيقية ، المادية والمعنوية) وفى بحث (تاريخ مصر) بنظرات قومية واعية ، متحررين من الاراء القبلانية الموروثة من العهود الماضية التى وجهت تلك الابحاث أسوأ الاتجاهات ، وأبعدتها عن جادة الصواب ٠

وستظل الاجيال فى مصر تذكر بالعرفان والتقدير فضل ساطع ونضاله وحرصه على تأكيد الوجه العربى لمصر ، وتثبيت دعائم القومية العربية فيها ، ودعوته المستمرة والمتكررة للمصريين أن يكونوا جنودا لهذه القومية ، ودعاة لها مؤمنين بها مدافعين عنها ٠

كان ساطع يرى أن فى الشعوب العربية قوى كامنة يمكن أن تتحول الى قوى فاعلة اذا ما بذل الجهد فى هذا السبيل ٠ ووجه الاهمية فى ذلك انه نادى بالوحدة العربية فى وقت كان اليأس قد بلغ مداه عند الكثيرين من ابناء الأمة العربية ٠

وحين يبلغه أن البعض يعارض فكرة الوحدة على أساس ان العرب

---

(١) جاء هذا القول على لسان الاستاذ فكرى أباظة فى رده على السؤال الذى وجهته أخبار اليوم والذى سبقت الاشارة اليه ارجع الى كتاب ساطع الحصرى : العروبة أولا ص ١١٥ ٠

ضعاف والوحدة لن تفيدهم في شيء ، ينبرى ساطع لتنفيذ ذلك مؤكدا ان اتحاد شعوب الامة العربية ليس بمثابة ضم اعداد الى اعداد بصورة حسابية ، ولا ربط شيء بأشياء بطريقة ميكانيكية ، ولا ضم مساحة الى مساحات بصورة هندسية ، انما يكون بمثابة خلق كائن جديد وعضوية جديدة تصبح فيه الشعوب المتحدة بمثابة الاعضاء في البدن الواحد • ثم يقول ساطع • علينا ان نكف عن اعتبار انفسنا وشعوبنا اصفارا •• وعلينا ان نكف عن تشبيه قضايا اتحاد الأمة بعمليات جمع الاعداد •

ويرد على القائلين بان الوحدة العربية حلم جميل أبعد ما يكون عن التحقيق خصوصا بعد حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ • يقول ساطع: أفلا يحق للقائلين كذلك ان يعكسوا هذه القضايا فيقولون : ان تحقيق الوحدة العربية أصبح من أوجب الواجبات علينا ، لأننا خسرنا حرب فلسطين ولم نحل دون قيام اسرائيل التى تهدد مستقبلنا فى عقر دارنا ، فى مسرة حياتنا • يجب أن نسرع فى العمل لتحقيق الوحدة العربية ، لكى نستطيع أن نحارب فى المستقبل صفا واحدا كرجل واحد • وأكرر هنا ما كنت قلته من قبل اننا خسرنا حرب فلسطين لأننا كنا سبع دول واضيف الى ذلك الآن يجب علينا أن نتعظ من دروس حرب فلسطين ، فنسعى لتكوين دولة عربية متحدة لكلى لا نخسر فى حروب المستقبل » •

كان ساطع يقول ذلك فى سنة ١٩٥٥ • ولقد مضى على قوله ذلك أربعة عشر عاما ، وما أظن اننا بحاجة لشيء مثل حاجتنا لما قاله ساطع ونادى به • حين يسأل عن سر خسارة العرب لحرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، مع انهم كانوا سبع دول يرد على الفور انهم خسروا الحرب لانهم كانوا سبع دول ولم يكونوا دولة واحدة •

واذا كان ساطع قد غادر هذه الحياة الدنيا فان آراءه وأفكاره

باقية خالدة على مر الزمن ، والوحدة العربية التى نادى بها أصبحت تفرض نفسها هـذه الأيام كضرورة ملحة لا مفر منها فى مواجهـة المعركة المصيرية التى تفرض نفسها هذه الايام على الوطن العربى • وما أظن احدا يستطيع ان يقول ان هناك بغير هذه الوحدة سبيلا الى درء الخطر الاستعمارى الصهيونى الذى يبذل هذه الأيام كل جهده ليفرض ارادته على الأمة العـربية • لقد رسـم الاسـتعمار والصهيونية سياستهما على أساس أن هناك فرقة تفرق بين العرب، ولا سبيل لتحبيط خططهما الا بوحدة تجميع شمل العرب فى معركة المصير •

وهذا ما نادى به ساطع وظل يدعو اليه ، يجب على كل فـرد أن يكافح الاقليمية كما كان يكافح الاستعمار ، ثم نجـده يقول : ما اسعد الامم التى حققت وحدتها القومية وما أشقى الامم التى ظلت بعيدة عن تحقيق وحدتها القومية • ، ان أخطر واخطر البذور التى تركها الاسـتعمار هو تجزئه البلاد (العـربية) الى دول ودويلات عديدة وفصل بعضها عن بعض بحدود مصطنعة •

وحين قامت الثورة المصرية فى الثـالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، كان ساطع اسعد الناس بقيامها لقد رآها تحرر البلاد من عهود الفساد والخمول والاسـتسلام • يقول الحصرى : « أما مصر بعد أن كانت بعيدة كل البعد عن التفكير فى سياسة عربية أخذت تشعر بعروبتها بصورة تدريجية ، حتى ان شعورها هذا أخذ يزداد بسرعة ويضطرم اضطراما ، بعد كارثه فلسطين (١٩١٨) التى ايقظت النفوس النائمة من سباتها العميق ـ ولا سـيما بعد قيام

(ثورة ١٩٥٢) واعلان الجمهــورية التى حررت البــلاد من عهود الفســاد والخمول والاستسلام وقيضت لهــا زعيما شابا يتوق الى الاصلاح ويؤمن بالعروبة ويعمل بروح ثورية ٠ وانتهت الجمهورية المصرية الى اعتناق (العروبة) بصورة رسمية وأخذت تعمــل فى فى سبيلها على رءوس الاشهاد بحزم وثبات » ٠

الفصل الخامس

القومية عند ساطع

تعد الدراسة التى قام بها ساطع الحصرى عن القوميـــة من أوسع وأعمق وأغزر الأبحاث التى قام بها أى باحث تعرض بالدراسة للحركات القومية ، كذلك تعد هذه الدراسة بالنسبة لساطع محور كل أبحاثه فهى من هذه الناحية اهم وأعظم ما قام به من دراسة ٠

ومرجع اهتمام ساطع بدرسة القومية أنه كان يؤمن ان الايمان بالقـــومية العربية مكمل له بل من لوازمه أن يتوسع أبنـــاء الأمة العربية فى دراسة الفكر القومى حتى يتحقق هذا الايمان ويرسخ ولا تعصـــف به العواصـــف فتقتلعه أو تهب عليه الرياح فتلقى به جانبا ٠

وضع ساطع نصب عينيه هدفا ،واعتنق فكرة ، وآمن برسالة ، وأختط لنفسه خطأ ، ووجه مجال نشاطه من أجل أمنية عزيزة غالية عند كل عربى آمن بأمته وبشعبه وببنى قومه ٠

لقد عاش ساطع من أجل خدمة قضية القومية العربية فسعى الى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع اشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية عن طريق دراسة أسس هذه الوحدة ٠

ومن هنا جاءت مؤلفاته العديدة التى تناول فى بعضها القومية

والوطنية بصـورة مباشرة مثل كتابه (آراء واحاديث فى الوطنية والقومية) وبحثه الذى اسماه (ماهى القومية ؟) وجمع فيه المحاضرات التى ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية العالية فى هذه الناحية وكتابه الذى خصصه لنقد أراء كثير من الكتاب عن القوميات واسماه (حول القومية العربية) • ولقد توجه الكثيرون بالسؤال لساطع أن يزودهم بقائمة عن مؤلفاته التى تتناول موضوع القومية فرتبها لهم حسب درجة ماجاء فيها من حديث عنها •

يقول ساطع : سألنى البعض ان أزوده بقائمة تامة عن مؤلفاتى التى تحوم حول موضوع القومية العربية وبناء عليه ارتب مؤلفاتى المتعلقة بالقومية على النحو التالى :

اراء واحاديث فى الوطنية والقومية ــ محـاضرات فى نشوء الفكرة القومية ــ ماهى القومية ؟ آراء وأحاديث فى القومية العربية ــ العروبة بين دعاتها ومعارضيها ــ العروبة أولا ــ دفاع عن العروبة ــ صفحات من الماضى القريب ــ آراء واحاديث فى اللغة والأدب ــ آراء واحاديث فى التاريخ والاجتماع ــ حول وحدة الثقافة العربية ــ البلاد العربية والدولة العثمانية ــ يوم يسلون ــ آراء واحاديث فى التربية والتعليم ــ آراء وأحاديث فى العلم والاخلاق حولية الثقافية العربية ــ رسائل الى بول مونرو ــ تقارير عن أحوال المعارف فى سورية ــ واقتراحات فى اصلاحها •

وأهم ما يسجله التاريخ لساطع أنه وضـع للقومية العربية أسسا علمية ووجه الأنظار اليها وأشاع الروح فيها وقوى الايمان بها • كان ذلك خطه الذى رسمه لنفسه ومنهجه فى ابحاثه وكانت تلك عقيدته • حين يعمل فى مجال التربية والتعليم يسعى لبعث العامل القومى وتقويته ويضع المنـاهج الدراسية التى يراها كفيلة بتحقيق ذلك ، وحين يضع تقارير الاصلاح لخطط التعليم يضـع

نضب عينيه الخطط الكفيلة بتقوية الشعور القومى وتغذيته . وحين يعمل فى غير ذلك من مجالات فالمهم عنده هو كل ما يعود على الفكر القومى ، وكل ما يقوى دعائمه مثلما رأينا مجهوده فى هذه الناحية حين كان يعمل فى الآثار فى العراق مثلا .

كان ساطع يؤمن بأن القومية العربية ولدت متأخرة بسبب الاحتلال العثمانى للبلاد وما كان للسلطان العثمانى خليفة المسلمين من نفوذ معنوى كان كفيلا بتأخير حركة القومية العربية ، وظهور حركات مناوئة للقومية العربية مثل حركة الجامعة الاسلامية فهو يقول :

« لقد اعتدنا أن ننظر الى التاريخ العثمانى كامتداد للتاريخ الاسلامى ، وصرنا لا نشعر باننا أبناء أمة مغلوبة على أمرها مستسلمة لسلطان أجنبى عنها . نسينا أن لنا قومية خاصة متحيزة عن الأتراك العثمانيين وعن سائر المسلمين ، حتى اننا لم نتنبه الى ان هذه الأمة أخذت تفقد شخصيتها بسبب اهمال لغتها » .

يبدأ ساطع فى دراسة للقومية العربية بتوضيح معنى كلمة قومية وقرينها فى اللغات الأجنبية حتى لا يحدث لبس وتشويش على عقول المثقفين العرب كما يقول ساطع ـ وهم يقرءون عن القومية باللغات الأجنبية .

يوضح ساطع أن الفرنسيين أصبحوا يستعملون كلمة ناسيونالزم بمعنى غير معنى القومية وأصبحوا يقصدون منها الوطنية وصاروا يطلقونها على الأحزاب اليمينية أو صاحبة النزعة الوطنية المتطرفة على الرغم من كون هذه الأحزاب مخالفة لمبدأ القوميات . فاذا ما جاء القراء العرب يقرءون عن القومية قرءوا ما كتب تحت كلمة ناسيونا لزم فقد وقعوا فى خطأ كبير . ويقترح ساطع لمنع هذا

التشويش على ذهن القارىء ان تسمى النزعات والمذاهب التى تتصل بمبدأن القوميات بما (الناسيونا ليتارزم) على أن نترك كلمة ناسيو نالزم الى المعنى التى اعطتها اياها الأحزاب السياسية فى فرنسا وايطاليا ٠

أسس القومية عند ساطع :

أولا ـ اللغة :

يأخذ ساطع بوجهة النظر القائلة ان أس الاساس فى تكوين الأمة هو وحدة اللغة ، والمعروف ان أشهر من نادى بهذه النظرية المفكر الالمانى هردر Herder الذى عاش ما بين ١٧٤٢ ـ ١٨٠٣م ٠ قال هردر : ان اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذى تتشكل به وتحفظ فيه وتنتقل بواسطة أفكار الشعب ٠ وان قلب الشعب ينبض فى لغته ٠ ويقتبس ساطع فى ابحاثه أقوال هذا الفيلسوف الألمانى ويؤيدها ولا سيما قوله هل لشعب ماثروة أثمن من لغة اجداده ٠ فى تلك اللغة تكمن كل ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين وفيها ينبض كل قلب الشعب ويتحرك كل روحه ٠

كذلك يدرس ساطع آراء واقوال الفيلسوف الألمانى الشهير فيخته Fichte الذى أخذت دراساته اهتماما خاصا باللغة والمعروف ان فيخته أخذ يؤكد على عامل اللغة فى بناء القوميات خلال محاضراته فى جامعة برلين ، كما أخذ يؤكد للالمان تمسكهم بلغتهم كسبيل الى بعثهم أمة ناهضة تنبض فيها روح القوة والنشاط ٠

ويناقش الحصرى فى استفاضة بالغة دور المستعمرين ـ يقينا منهم بأهمية اللغة ـ فى احلال لغاتهم محل لغات البلاد المفتوحة ٠ وابرز مثال على ذلك دور الفرنسيين فى الجزائر حين احلوا اللغة الفرنسية محل اللغة العربية فى المعاملات والتعليم والثقافة ٠٠ فلقد

جاء فى احد التعليمات التى صــدرت فى أوائل الاحتلال الفرنسى ما كتبه مسئول فرنسى : ان ايالة الجزائر لن تصبح حقيقة ممتلكة فرنسية الا عندما تصبح لغتنا هناك قومية : ثم يخلص ســاطع الى القول ٠٠ لما كانت اللغة بمنزلة القلب والروح من الأمة فان الشعوب التى تتكلم لغة واحدة تكون ذا قلب واحد وروح مشتركة ، ولذلك تكون أمة واحدة ويجب عليها اذا ان تكون دولة واحدة ٠

وتلك هى القضية التى تبناها ساطع ولم يرض عنها بدلا ٠ يرى ساطع ان اللغة هى أس الاساس فى تكوين القــوميات ثم هو يرد ردا مستندا الى دراسة علمية على المعارضين لهــذا القول ٠ فالمعارضون لساطع فى اتخاذه اللغة أساسا للقومية يستندون فى قولهم الى ان هنــاك دولا مثل سويسرة وبلجيكا جمعت بين أبنائها وحدة قومية على اختــلاف لغاتهم ، وهــناك دول انفصلت بعضها عن بعض على الرغم من وحدة لغاتها ، مثل دول أمريكا الشــمالية والجنوبية ٠ ونجد ساطع يناقش حالة كل دولة على حدة ، يتناولها بالدراسة التاريخية والارقام والبيانات والتى يخلص منهــا جميعا الى أن وجود مثل هذه الدول لا يتعــارض مع القول بأن اللغة هى الاساس الاول فى الكيان القومى ٠

ففى سويسرة يتكلم الاهالى اللغة الالمانية والفرنسية والايطالية ولم يحدث ان تجزأت الى دول عديدة حيث تكون كل من هذه الدول وحيدة اللغة والسبب فى ذلك كمــا يوضــحه ساطع أن خصائص سويسرة الجغرافية تجعل من المستحيل تجزئتها الى دول عديدة ، وأما اقتسامها بين الدول المجاورة فيصطدم بمشاكل دولية هائلة ، ويخل بالتوازن القائم بينهم اخلالا خطيرا ٠

وبناء على ذلك اتفقت كلمة الدول على ان بقــاء سويسرة على حالهــا كدولة عازلة ومحــايدة أوفق لمصلحة الجميع ٠ وتوصل

السويسريون الى ايجاد نظـام حكم خاص بهم يضمن لجميع طوائف السكان التعايش والتآزر مع المحافظة على ما لكل منها من لغة وثقافة وخصائص تمام المحافظة ، فالاتحاد السويسرى يتألف من عدد من المقاطعات السويسرية (الكانتونات Cantons) حيث تتولى حكومة الاتحـــاد الشئون الخارجية والدفاع الوطنى وبعض الامور المتعلقة بالمواصلات التى تهم جميـع الكانتونات • ويترك للكانتونات ماعدا ذلك من شـــئون حيث أصبح لكل منها شعارها وعلمهـا الخاص ودســـتورها • وممـــا تجب ملاحظته ان تشـــكيلات الكانتونات السويسرية وتقسيماتها راعت مقتضيات اللغة الى أقصى حد فأغلبها وحيد اللغة • ويخلص ساطع من ذلك الى القول ان سويسرا دولة لا أمة ، دولة تضم عدة قوميات وأحوالها لا يمكن أن تتخـــذ ذريعة للتقليل من شأن اللغة فى حياة الامم والدول •

فاذا ما انتقل ساطع من الحديث عن سويسرة الى بلجيكا — التى يتخذها المعارضون لعامل اللغة كأساس فى بنـاء القوميات — انها تتكون من شعبين مختلفين الفالون Wallons ولفلامان Flamand يتكلم الاول الفرنســية ويتكلم الثـــانى الجرمانية • ولم ينصهر الشعبان فى قومية واحدة وبرغم الحركات الاجتماعية التى قام بها الفلامان منذ سنة ١٨٤٠ وتذمر الفلامان من الاوضاع المجحفة بهم واحتجاجهم على سياسة تغليب اللغة الفرنسية على لغتهم ، وبرغم ثورة عام ١٨٤٨ مما اضطر الحـكومة الى تأليف لجنة لدرس مطالب الفـــلامان ، وتقديم الاقتراحات اللازمة بشأنها وحركات الاحتجاج والمطالبة التى ازدادت شدة بعد سنة ١٨٧٠ ، واضطرار الحـكومة الى الاعتراف بكثير من الحقوق للفلامان ، برغم هذا كله لم يحدث انصهـــار واندماج بين الشعبين الفالونى والفلمندى اللذين يتكون منهما سكان بلجيكا •

أما الولايات المتحدة الامريكية والقول بان سكانها يكونون أمة

منفصلة عن انجلترة برغم ان لغة سكان البلدين واحدة فالرد عند ساطع هو الظروف التاريخية التى تكونت فيها الولايات المتحدة الامريكية • فلقد بدأ نزوح المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية من أوربا وفصل المحيط الاطلسى بينهم وبين وطنهم الأم ، وكان هذا المحيط فى وقت قدوم المهاجرين يسبب فاصلا شاسعا بسبب عدم تقدم وسائل المواصلات على النحو الذى صارت عليه الآن • ولم تصبح اللغة الانجليزية اللغة البيتية عند جماعات كثيرة جدا من الامريكيين الا فى وقت حديث نسبيا •

وبعد أن يناقش ساطع تاريخ الحركة الاستقلالية الامريكية ويبين احصاءات بالمهاجرين الذين قدموا الى الولايات المتحدة الامريكية قبل اعلان حرب الاستقلال ينتهى الى القول ان هؤلاء المهاجرين لم يتم انصهارهم وتمازجهم الا على مراحل طويلة وبصورة تدريجية ، ويخلص الى القول ان سكان الولايات المتحدة الامريكية انحدروا من مختلف الاقطار الغربية وتكونوا تكونا خاصا خلال مدة قرن وثلاثة أرباع القرن ــ فى ظروف استثنائية لا مثيل لها فى سائر أنحاء العالم •

ومن ثم فليس من المعقول على حد قول ساطع أن تعتبر قضية انفصال الولايات المتحدة الامريكية عن المملكة البريطانية دليلا على عدم ارتباط القومية باللغة •

وما دامت اللغة لها هذه الاهمية عند ساطع على اعتبار انها الاساس الاول الذى يسبق ما عداه من أسس فى تكون القوميات ، فلقد صار من المنتظر أن تحظى اللغة العربية باهتمام كبير وواسع من جانبه •

والمعروف ان ساطعا لم يكن من علماء اللغة كما قال هو عن نفسه ولا من رجال الادب ولكنه أعد الكثير من الابحاث حول اللغة

العربية على أساس انها العامل الاول والاساس الهام في كيان القومية العربية . يقول ساطع « : اضطررت الى القيام ببعض الابحاث اللغوية والى اطالة التأمل في قضاياها ـ تارة بنظرات تربوية وتعليمية ، وطورا بنظرات علمية واجتماعية وقومية ، وذلك بشتى المناسبات وفي مختلف الاوقات . وقد توصلت بذلك الى طائفة من الآراء والملاحظات نشرت بعضها في بعض المجلات ، وتركت بعضها الآخر في حالة مذكرات ومسودات » ، ثم جمع ساطع عددا من هذه الابحاث التي نشرت والتي لم تنشر في كتابه الذي أسماه (آراء وأحاديث في اللغة والادب) .

وينبرى للرد على القائلين بأن اللهجات الموجودة في البلاد العربية دليل على واقع التجزئة بين هذه البلاد . يفند ساطع ذلك ويقول : أنا لا أسلم بوجود لهجة عراقية متجانسة مثلا عند حدود العراق ومختلفة عن لهجة الجيران والاخوان(١) .

ثم تشغله قضية الفصحى والعامية . حين تتحد الدول العربية هل سيتكلم الناس اللغة الفصحى وينبذون العامية . يشعر ساطع بصعوبة ذلك خصوصا وأن قواعد الفصحى في حالتها الحاضرة معقدة كل التعقيد ، وصعبة أشد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجة الدارجة بعدا كثيرا . فالعرب اليوم بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بكل منها جميع الناس في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية. ووضع العرب اليوم على هذا النحو مخالف من وجهة نظره لمقتضيات الحياة القومية السليمة من وجوه عديدة :

فان كل أمة من الامم تحتاج الى لغة موحدة تزيدها تجاوبا وتماسكا فتكون بهذا الشكل لغة موحدة ، لان مهمة اللغة لا تنحصر

---

(١) العروبة بين دعاتها ومعارضيها : ساطع الحصرى .

فى ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون فى قرية واحدة أو مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون الى اقليم واحد أو قطر واحد ، بل هى ضمان التفاهم ووسيلة المكاتبة والمخاطبة بين جميع أبناء الامة ومن ثم نفتقر نحن العرب اليوم الى (لغة) يتفاهم بها جميع الناس فى جميع الاقطار العربية ·

ثم يناقش ساطع السبيل الى ذلك : هل هو نشر لغة من اللغات الدارجة أى لهجة من اللهجات العامية على جميع البلاد العربية ؟ ذلك أمر غير منطقى وغير عملى ·

اذا لا مفر من السعى وراء نشر اللغة الفصحى بين جميع طبقات الشعب فى كل قطر من الاقطار العربية ·

لكن قواعد اللغة العربية الفصحى فى حالتها الحاضرة وكما يراها ساطع معقدة كل التعقيد فيتساءل : ألا يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحى ونشذبها تشذيبا معقولا يكسبها شيئا من السهولة من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية · أفلا نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة باللغة الفصحى تطعيما يبعدنا عن حذلقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس فيوصلنا الى فصحى متوسطة ومعتدلة ·

ويرى ساطع ان السبيل الى ذلك هو أن نبدأ بدراسة للمعاجم العربية · فهو ينظر الى هذه المعاجم على أساس انها تحتوى على كثير من الكلمات المهجورة التى لم يعد أحد يشعر بحاجة الى استعمالها ومقابل ذلك فهى خالية من عدد غير قليل من الكلمات التى استعملها ولا يزال يستعملها أشهر الادباء والعلماء فى أهم آثارهم العلمية والأدبية ، ومع ذلك يرى ان واجب علماء اللغة هو دراسة اللغات العامية واللهجات المحلية المنتشرة فى مختلف البلاد العربية · ما أنواعها ؟ وما هى خصائص كل نوع منها من حيث الكلمات والالفاظ والتعابير ؟ وما هى حدود انتشار كل واحدة من تلك

الكلمات والاساليب والتعابير ؟ وما أسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية وبعضها عن بعض من ناحية أخرى ؟ لا يوجد بين الكلمات الدارجة فى بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ·

وفضلا عن ذلك يطالب ساطع علماء اللغة أن يتتبعوا التطورات التاريخية لها · فمن المعلوم ان اللغة كائن حى ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو تبعا لنمو الافكار وتنوع الحاجات · فان نظرة فاحصة سريعة الى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية فى مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريبا ، منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى — يكفى للتأكد على ان اللغة تتطور · فلقد حدثت تطورات كثيرة فى لغة الدواوين ، لغة الصحف وفى لغة التخاطب · ويخلص من ذلك الى انه لا ينبغى أن تبقى الأبحاث اللغوية محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة بل يجب أن تخرج الى ميادين الحياة الاجتماعية تدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ فى تلك الميادين بصورة فعلية · وكان علماء اللغة القدماء على حد قوله يتجولون بين القبائل يدونون ما يسمعونه وما يلاحظونه ، فلا ينبغى لعلماء اليوم أن يتقاعسوا عن العمل فى هذا السبيل بحجة الاكتفاء باللغة الفصحى فعلينا أن نعلم علم اليقين ان تغيير الاشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميسها · فاذا ما انتهت هذه الدراسة النظرية للمعاجم والعملية للحياة الاجتماعية لا بد أن يبدأ على الفور وضع معاجم جديدة مختلفة عن المعاجم القديمة والحالية ·

ويلاحظ ساطع على المعاجم الحالية كثيرا من أوجه النقص ، ومثال ذلك أنها ما زالت تضع للاشتقاق الوضع الاول من الاعتبار فتهتم بانساب الكلمات قبل كل شىء وفوق كل شىء فلا تقترن بشىء من حق الاستقلال للكلمات المشتقة · ويورد الامثلة لكثير من الكلمات التى ليس لها كيانها المستقل فى معاجمنا حتى الآن · مثال ذلك

كلمة الاستقلال ما زالت المعاجم تعتبرها تابعة لكلمة (قل) . ويتعجب ساطع كيف ان كلمة كهذه لها تأثيرها الكبير فى النفوس وتتكرر مئات المرات فى القصائد الوطنية والأناشيد المدرسية وفى الصحف والاذاعات ليس لها كيان فى قواميسنا ؟ وعلى كل من يريد التعرف اليها فى القاموس أن يطرق باب (قل) . وهناك مئات من الكلمات غيرها مثل كلمة الاقتصاد ، المدرسة ، الاستراحة ، الاستئناف .

يقول ساطع : « أنا لا أدرى بماذا انعت معاجمنا لاتباعها هذه الخطط العوجاء وسكوت علمائنا عن هذه النقائص الفادحة . غير اننى أميل الى تعليل هذا الاستمرار وذلك السكوت بتأثير عاملين أساسيين :

أولا : عمل قانون الالفة الذى يجعل الانسان لا يشعر بأكره الروائح ولا ينتبه الى أفدح النقائص عندما يألفها ألفة طويلة ولاسيما عندما تكون ألفته هذه اجتماعية .

ثانيا : عمل روح المحافظة على القديم والحرص على بقائه على قدمه .

اننى أعتقد ان الخروج على هذه النزعات والعادات بوضع معاجم عصرية بالمعنى المشروح آنفا ـ أصبح من أهم الواجبات التى تجب على رجال العلم والتعليم ، ومحافل اللغة والادب ووزارات التربية والمعارف ـ فى جميع البلاد العربية »

أما الخطة التى ينبغى السير عليها لوضع هذه المعاجم فهى كما يراها :

أولا : وضع معجم مختصر يحتوى على الكلمات التى يستعملها الناس ، ويحتاج اليها طلاب المدارس الابتدائية ، ترتب فيه الكلمات حسب نظام حروفها الهجائية ، ويكتب ازاء كل واحدة منها معناها

الاصطلاحى ، كما يشار الى مادتها الاصلية ، والى كيفية اشتقاقها من تلك المادة ٠

ثانيا : تبذل الجهود لتنظيم معجم أكثر تفصيلا من ذلك يكون مرجعا لطلاب المدارس الثانوية والعالمية ، ورجال الطبقة المثقفة بوجه عام على أن يرجع الى المجلات العلمية والادبية عند تعيين كلماته ٠

ثالثا وأخيرا : يجب السعى لوضع معجم مفصل عام يتضمن جميع الكلمات المستعملة فى الكتب القديمة والحديثة على اختلاف أنواعها وتواريخها ٠ وأما المعاجم القديمة فتبقى كمراجع أساسية يرجع اليها العلماء والاختصاصيون ٠

وتمنى ساطع أن تظهر هذه المعاجم على وجه السرعة ٠ كتب فى سنة ١٩٥٧ يقول : « أنا لا أدرى كم يكون طول المدة التى ستمضى بين كتابة هذه الاسطر وبين ظهور هذه المعاجم ٠ لا أدرى ماذا يكون مبلغ نوع المساهمة التى يؤديها كل من الكتاب والناشرين والهيئات العلمية والدوائر الرسمية فى تحقيق هذا المشروع عن طريق العمل المباشر أو التشجيع أو المساعدة ٠٠ ومع هذا أتمنى من كل قلبى أن تتضافر جهود الافراد والهيئات والحكومات فى هذا السبيل بكل الوسائل الممكنة لكى تقر أعيننا بمعاجم عصرية من هذا القبيل ٠٠ قبل أن يمضى وقت طويل » ٠

لقد كان ساطع فى دعوته الى القومية العربية يري ان أقوى رباط وأمتنه بين أبناء الامة العربية هى لغتهم ٠ وكان حريصا ان يظل هذا الرباط قويا متينا لكنه يرى اللهجات المحلية واللغات العامية تهدد هذا الرباط اذا لم يتحرك علماء اللغة لعمل شىء من شأنه وقف هذا الخطر ٠ ومن ثم أخذ يطالبهم المرة تلو المرة بذلك ٠ والعجيب ان ساطعا الذى ذكر في مقدمة كتابه (آراء وأحاديث فى اللغة والادب) أنه ليس باللغوى ولا بالأديب قد خرج علينا بأبحاث

قيمة فى اللغة والادب معا فى هذا الكتاب اعترف وما زال يعترف بفضلها رجال اللغة والادب • فهو يبحث فى الادب العربى ونظرية الاقليمية فيه وينكر هذه الاقليمية فى الأدب العربى ، وان لم ينف التنوع فى هذا الادب ، كذلك يدرس اللغة اللاتينية دراسة مقارنة باللغة العربية ، ويرد على القائلين أن حالة العربية الفصحى الآن لا تختلف عن حالة اللاتينية الكلاسيكية قديما ومصيرها سيكون شبيها بمصير اللغة المذكورة حتما • ويفند قول القائلين أنه ما دامت اللاتينية الأصلية ماتت واندثرت بعد أن كانت لغة العلم والادب فى معظم بلاد الغرب فلا بد أن يحدث ذلك للغة العربية ، وأنه من الخير أن تتوحد الجهود لجعل العامية لغة الكتابة والعلم والادب • يعقد ساطع المقارنة التاريخية بين العربية واللاتينية •

وبعد بحثه الموسع فى هذه الناحية يجمل الفوارق العظيمة التى ميزت تاريخ اللغة العربية عن تاريخ اللغات اللاتينية ويرجع هذه الفوارق الى عدة عوامل منها ان اللغة العربية لم تتعرض الى هجمات وغزوات لغات جديدة كما تعرضت اليها اللغات الرومانية(١) (وهو المصطلح الذى اتفق عليه الباحثون لتسمية اللغات واللهجات التى نجمت عن اختلاط اللاتينية بلغات البلاد التى فتحتها الامبراطورية

---

(١) يستدرك ساطع ذلك ويخشى أن يرد عليه معترض على هذا القول وعلى ماتبرره من أن البلاد العربية لم تبتل بتفتت سياسى فيفسر ذلك تفسيرا تفصيليا فى كتابه آراء وأحاديث فى اللغة والادب ان اللغة العربية قد تعرضت لغزوات لكنها لم تكن بالدرجة ولابالعنف الذى تعرضت له اللغات الرومانية من جراء استيلاء القبائل الجرمانية على البلاد التى كانت فيها اللغات الرومانية . كذلك ابتليت البلاد العربية بتفتت وانقسام لكن هذا التفتت لم يصل الى درجة التفتت التام الذى حدث فى العالم الغربى حيث أصبحت كل مدينة وكل مقاطعة مستقلة ومنطوية على نفسها (ارجع الى صفحات ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من كتابه آراء وأحاديث فى اللغة والادب) .

الرومانية) كذلك يرى ساطع ان البلاد العربية لم تبتل بتفتت ساسى واداري واقتصادى مثل الذى ابتليت به البلاد الرومانية فى عصور الاقطاع الطويل • وأهم من هذا كله ان الديانة الاسلامية حفظت اللغة العربية من الاندثار ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات •

ويبدو أن ساطعا أراد أن يضرب المثل لعلماء اللغة على أن فى الامكان عمل شيء كثير مما نادى به ، فهو يسافر الى تونس ويدرس اللهجة التونسية ، ويقارن بينها وبين اللهجة المصرية ومن المعروف أنه سافر الى تونس لدراسة الآثار المتعلقة بابن خلدون كما سبق لنا ذكر ذلك ، لكنه يريد أن ينهز فرصة وجوده فيها ليدرس لهجة البلاد ، ويكتب عنها بحثا تحت عنوان (قطوف لغوية فى تونس ١٩٥٠) سرد فيه ملاحظات حول الأمور اللغوية فى تونس ، ويأتى بنماذج من البيانات والاخبار التى تنشر فى الجريدة الرسمية والصحف اليومية بهدف اعطائنا فكرة واضحة عن الاسلوب الرسمى السائد فى تونس •

ومن قبل زيارته تونس بسنوات زار ساطع الاندلس سنة ١٩٢٦ وحرص على أن يدخلها من الجنوب من جبل طارق والجزيرة الخضراء متصورا نفسه مرافقا للجيوش العربية ، وهى تتقدم فى غزوها لهذا البلد العريق • ويسعد كل السعادة وهو يلاحظ الاسبانيين ينطقون كثيرا من الكلمات العربية فى كلامهم ، ويبحث فى عدد الكلمات العربية الباقية فى اللغة الاسبانية ويستفسر من أحد مستشرقى الأسبان عن ذلك ويرجع الى القواميس الاسبانية التى تذكر نحو خمسة آلاف كلمة ، وأما الكلمات العربية الاصل الدارجة بين الناس فلا تقل عن الألف •

كذلك يدرس ساطع أسماء الشهور فى البلاد العربية ويشرح سر اختلافها • هذا كله الى جانب دراسته للنحت فى اللغة العربية والمصطلحات العلمية فى هذه اللغة •

ونجده يقول : نحن نعتقد أن التوسع فى النحت أصبح من أهم حاجات اللغة العربية ونظن أيضا أنه لا سبيل بدون ذلك الى اغنائها بما تحتاج اليه من الاصطلاحات العلمية • المتنوعة الجديدة • اننا لا نقصد من (النحت) تركيب الكلمات العربية من بعض الجذور الأعجمية ـ كما يقترحه بعض الكتاب ـ بل نقصد (النحت الاصولى) الذى أدخل فى اللغة العربية عددا غير قليل من الكلمات والتعبيرات المختزلة مثل بسملة ، حبرمة •• تلك الكلمات والتعبيرات المختصرة التى تفتقر العلوم الحديثة الى أمثالها افتقارا شديدا •

ثم هو يدرس مشكلة كتابة الاعلام الاجنبية بالحروف العربية ويرى أنها تتطلب مزيدا من الاهتمام والعناية ، ذلك أنه اذا جاز لنا ان نتصرف فى الكلمات التى نقتبسها من اللغات الاخرى كما يحلو لنا • فنفرغها فى قالب عربى ، ونلفظها كما نلفظ سائر الكلمات العربية ، الا أنه لا يجـــوز لنا أن نتصرف فى الاعـــلام مثل هذا التصرف ، فلا بد من ان نلفظ أسماء الاشخاص والمدن والانهـــار والجبال •• كما يلفظها أصحابها دون تحريف ، ثم يتساءل ما هى السبيل أن نجعل القارىء العربى يلفظها من غير تحريف أو تغيير ؟ ويرى أن ذلك ينبغى أن يكون مثار اهتمام الباحثين يدرسونهـــا ويعالجونها بعناية بالغة • وفى مجال كتابة هذه الاعلام يرى ساطع أنه من المستحسن المفيد جدا ان تكتب باللغة اللاتينية بجـــانب كتابتها بالحروف العربية فى جميـــع الكتب التى تفوق مســــتوى الدراسة الابتدائية وفى جميع المطبوعات الى تخاطب المثقفين الذين يعرفون الحروف اللاتينية وذلك لضمان لفظ تلك الأعـــلام وفق ما يلفظها أصحابها •

وما أظن أن أحدا ينكر على ساطع فضله الكبير واهتمـــامه الواسع باللغة العربية فلقد رأينا عندما درسنا دوره فى مجـــال التربية والتعليم مدى حرصه على أن ينال تدريس اللغة العربية الحظ

الاوفى والقسط الأكبر بين المواد الدراسية خاصة فى المراحل الاولى من التعليم ورأيناه يجاهد فى سبيل عدم تعليم الطفل فى البلاد العربية لغتين فى وقت واحد حرصا منه على أن يتفرغ اهتمامه الى لغته القومية ، ثم مررنا مرورا سريعا على أبحاثه فى اللغة والادب كما سنرى عند حديثنا عن الثقافة العربية ودوره فيها مدى ما أداه ساطع من خدمة للغة العربية . ومرجع ذلك الاهتمام كما سبق القول انها عنده الرباط الاساسى بين أبناء الامة العربية ، وان هناك من يبذل الجهد فى سبيل أن يكون هذا الرباط واهنا ضعيفا حتى لا يلتئم الشمل وتتم الوحدة العربية المنشودة .

ومن هنا كانت اللغة العربية عند ساطع - وهى اللغة القومية للعرب - لها كل الاهتمام وفائق العناية ، خاصة وأن لغتنا العربية من وجهة نظره تجتاز طور انتقال وانقلاب بعد عهد ركود وجمود ، فلا يجد ابن اللغة العربية أمورها مهيأة له ، وسبل التعبير معبدة أمامه ، فيضطر الى تولى بعض الابحاث اللغوية بنفسه ، والى التفكير فى الكلمات والتعابير التى يحتاج اليها فى أبحاثه وكتاباته ، ومن ثم كانت اللغة العربية وهى فى حالتها الحاضرة بحاجة الى اهتمام جميع المفكرين والباحثين واللغويين منهم وغير اللغويين .

ثانيا - التاريخ :

أما الأساس الثانى فى تكوين الامة وبناء القومية عند ساطع الحصرى فهو وحدة التاريخ بعد وحدة اللغة .. فهو يرى أن الوحدة فى التاريخ واللغة هى التى تؤدى الى وحدة المشاعر والمنازع ، ووحدة الآلام والآمال ، ووحدة الثقافة .. وبكل ذلك يشعر الناس أنهم أبناء أمة واحدة ، متميزة عن الأمم الأخرى .. اللغة عنده تكون روح الأمة وحياتها والتاريخ يكون ذاكرة الامة وشعورها .

واذا كانت اللغة عند الحصرى هى الروح والحياة ، فان التاريخ

هو الوعى والشعور · ويرى أن الأمة التى تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها هى بمثابة فرد فاقد الشعور ، بمثابة فرد غاط فى نوه ، مريض فى حالة اغماء · ان اهمال التاريخ القومى عند ساطع بمثابة الاستسلام للذهول · ونجده يكتب فى العدد الثالث من مجـــلة العربى الصـــادر فى فبراير عام ١٩٥٩ ، ان الوقائع والانقلابات السياسية التى توالت منذ قرن وصف قرن والأبحاث الاجتماعية التى تناولت تلك الوقائع والانقلابات طول هذه لمدة ، دلت دلالة دلالة ناطقةعلى أن العناصر الاساسية فى تكوين القومية هى وحدة اللغة ووحدة التاريخ وما ينتج عن ذلك من مشاركة فى المشاعر والمنازع وفى الآلام والأمال ولا شك فى ان جميع الناطقين بالضاد ، جميع أبناء البلاد العربية تتوفر فيهم هذه العناصر والمقومات الأساسية ولذلك فهم يكونون أمة واحدة · وأما الدول والدويلات ، والامارات والمشيخات العديدة التى انقسمت اليهـا البلاد المذكورة ، والحدود التى فصلت بين هذه الأقسام المختلفة ، فليست الا عوارض طارئة، نتجت عن مصالح السياسة الاستعمارية ، فلا بد من أن تتهدم وتتلاشى أمام تيار العروبة الجارف · ومن دواعى الغبطة والابتهاج أن هذه الحقائق الهامة صارت تنتشر خلال السنوات الاخيرة ، بسرعة كبيرة ، فى مختلف الاقطار العربية ، وأخذت تتغلغل فى نفوس مختلف طبقات شعوبها ، وتتحول الى الايمان بوحدة الامة العربية، على الرغم من تعـدد دولها · « فيحق لنا أن نبتهج أشد الابتهـاج بتطور فكرة القومية العربية بهذه الصورة ، الى عقيدة سياســية واجتماعية تترسخ فى النفوس ، وتتغلب فيها على النزعات الاقليمية الناجمة عن الظروف السياسية الماضية » ·

كذلك نجد ساطع يفند قول القائلين المشككين فى الفكرة القومية سواء منهم من استخف بالفكرة ذاتها أو حاول زعزعة الأسس التى

تقـوم عليهـا أو طالب بتغيير اتجاهاتها • فهو يناقشهم على ضوء الحقائق التاريخية والاجتماعية •• فاذا كان هنـاك من يقول ان البشرية قد اجتازت مرحلة التنظيم القومى ، ووصلت الى مرحـلة (التكتل الأممى) واذا كان هناك من الكتاب العرب من يقـول انه لا يليق بنا ونحن نعيش فى القرن العشرين ان نواصل السير وراء الفكرة القومية ، فكل هذا القول فى غير مصلحة الأمة العربية على الاطلاق •

وكان الرد عند سـاطع على أقوال هؤلاء ان الامم الأوربية اذا كانت حقا قد وصلت الى مرحلة التكتل الاممى ، انما وصلتهـا كل واحدة منها فى حالة (دولة قومية مستقلة وموحدة) ولم تتخل عن شخصيتها المتميزة لغيرها فى أوضاعها الجديدة • فيجب على العرب كذلك أن يحققوا وحدتهم القومية لكى يستطيعوا المحـافظة على شخصيتهم فى التكتلات الاممية التى يتكلم عنها هؤلاء الكتاب•

ويشبه ساطع قول القائلين بأن عصر القوميات قد انتهى نظرا لانتهائه فى أوربا ـ بقول من يذهب الى أن موسم الامطار قد انتهى من العالم ـ نظرا لانتهائه فى بعض الاقطار من الكرة الأرضية أو بقول من يظن ان الموسم الذى تنضـج فيه الأثمار قد فات نظرا لانتهاء نضوج الأثمار فى بعض الأشجار ، ويشبه ساطع الشعوب بالأشجار التى لا تثمر كلها فى وقت واحد بعضها يتقدم عن بعض كذلك فان اليقظة القومية ليست من الامور التى تحدث وتتحقق فى عصر معين أو موسم محدد •

ثم هو يناقش من يعارض وحدة التاريخ كأساس للقومية على أساس انه من النظريات البالية وان الأساس الحقيقى للقومية بوجه عام وللقومية العربية بوجه خاص وحدة الصراع أو كما يعبر عنه البعض (هو الحاجة الى توحيد العمل للتغلب على العدو المشـترك الرابض أمام الجميع) •

لا ينكر ساطع أن الوحدة في الصراع في سبيل القضاء على العدو المشترك ممايزيد شعوب الامة وأفرادها تماسكا على تماسكها، ولكن ذلك لا يمكن أن يعتبر أساسا لتكوين القومية بوجه من الوجوه فالصراع ضد العدو المشترك قد يجمع دولا وقوميات مختلفة مع بعضها مثل حركة الكفاح ضد المانيا النازية عندما استلزم اتفاق انجلترة والاتحاد السوفيتى وغيره من الامم والدول ثم ما ان انتهى خطر العدو حتى انتهى التحالف الذى كان قد تولد من وحدة الصراع . ولا يمكن من وجهة نظر ساطع ان يكون الاساس فى تكوين القومية قائما على مواجهة خطر فحسب ، فاذا ما انتهى الخطر تفككت أوصال الامة . لا بد للأمة من روابط أقوى وأمتن باقية أبد الدهر .

يقول ساطع ، وغنى عن البيان أن الوحدة التى تهدف اليها فكرة القومية العربية ، الوحدة التى تنجم عن وحدة اللغة ووحدة التاريخ ، وما ينتج عن ذلك من وحدة المشاعر والمنازع ووحدة الآلام والآمال ، لا يمكن أن تتعرض الى مثل هذه التقلبات ، بل تكون (وحدة طبيعية تستمر مدى الحياة) لأنها تكون فى حقيقة الامر — مظهرا من مظاهر حياة الأمة نفسها .

وليس معنى ذلك أن ساطعا ينكر دور وحدة الصراع وأهميته فى ميدان السياسة العربية لكن الوحدة العربية التى دعا اليها وكان يتوق الى أن يراها قائمة لا تهدف الى توحيد العرب لغاية معينة هى مواجهة خطر صراع قائم فحسب ، وانما وحدة فى جميع الأعمال والمساعى وبتعبير آخر على حد قوله (توحيد الحياة القومية) بكل ما فى هذه الكلمة من معان سامية .

ولما كان ساطع يؤمن على هذا النحو أن وحدة التاريخ هى أحد الاسس الهامة فى التكوين القومى ، فقد عاش طول عمره يدعو العرب الى أن يعرفوا تاريخهم ، وأن يدرسوه ويكتبوه ويعلموه لأطفالهم .

لكن ساطعا يفرق بين تدوين التــاريخ وتدريسه ، عنده أن تدوين التاريخ ينبغي أن يلتزم الانسان فيه معرفة الحقيقة واظهارها بنظرة علمية • وكتب أكثر من مرة يطالب بما أسماه (التــــاريخ القومى) فهو يرى ان كتابة التاريخ العربى ينبغى أن تراعى فيه الدقة العلمية والاعتبارات القومية فى وقت واحد • ولقد تعرض ساطع بسبب ذلك الى هجوم من جانب كثير من أساتذة التـــاريخ والمشتغلين به ظنا منهم أن فى دعوته الى كتابة التاريخ القومى دعوة الى تحريف أحداث التاريخ أو أخباره • « لكن ذلك لم يدر بخلدى فى وقت من الأوقات ، فضلا عن أنى أعتقد تمام الاعتقاد بأن تاريخنا القومى زاخر بالمفاخر والامجاد الى درجة تغنينا ليس عن الاختلاف فحسب بل حتى عن المغالاة أيضا ، ولا أشك فى أن كل ما يعوزنا فى هذا المضمار ، هو حسن الاختيار واتقان العرض »

أما الذى حمل ساطع على طلب كتابة التاريخ بنظرة علميـة وقومية فى وقت واحد كانت ملاحظاته ان معظم المؤلفات العريقة المتعلقة بالتاريخ العربى بعيدة عن مراعاة مقتضيات البحث العلمى فى سرد الاخبار وتعليلها بقدر ما هى بعيدة عن مراعاة مقتضيات التربية القومية فى انتخاب الأبحاث وابرازها بصورة تساعد على تقوية الروح الوطنية مع التوسع والتعمق فيها اكثر من غيرها • ويرجع ساطع السر فى ذلك الى اعتماد المؤلفات التاريخية باللغة العربية فى التاريخ العربى على المصادر الاجنبية ، دون أن يلاحظ الباحثون العرب شدة اختلاف مصالح الكتاب الغربيين عن المصلحة العربية •• ويرى أن كثيرا من الكتاب العرب الذين يكتبون المؤلفات التاريخية فى تاريخ العرب زاعمين انهم يكتبون بروح علمية مبرزين بذلك عدم التفاهم الى النواحى القومية ، انما ينقلون دون أن يشعروا نتاج النظرات القوميـــة الخاصـــة بالكثيرين من المؤلفين والمؤرخين الغربيين •

ثم نرى ساطع ينقد كثيرا من الكتابات التاريخية لأساتذة عرب ويناقش ما جاء فيها من حقائق مثل كتاب (مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية للدكتور فاضل حسين والذى صدر عن معهد الدراسات العربية العالية · وقد ناقش ساطع الحقائق التى أوردها المؤلف المذكور وأثبت كثيرا من الأخطاء بشأنها فضلا عن تقصيره فى الناحية القومية(١) · وهو لا يكتفى بمناقشة هذا الكتاب فحسب وانما يناقش الى جانبه عددا من الابحاث التاريخية لمؤلفين عرب ويقول انه اتخذها كمثال لتأييد وجهة نظره ·

أما تدريس التاريخ بالنسبة لطلبة المدارس فينبغى أن نستهدف منه على حد قول ساطع تقوية الروح الوطنية والوعى القومى فى نفوس الطلاب · نرى ساطع يؤكد ذلك ويكرره ويطبقه فى المناهج التعليمية التى وضعها فى العراق وفى سورية · فيصدر وهو فى العراق العديد من القواعد التى يطالب المدرسين باتباعها فى تدريسهم لمادة التاريخ منها :

١ ـ تجنب ذكر الوقائع وأسماء وتواريخ كثيرة وتجنب جعل الدروس مجموعة أسماء وأرقام مسلسلة ·

٢ ـ العناية بالمقارنة بين الأحوال الحاضرة والماضية ·

٣ ـ الاهتمام بتصوير الوقائع والاحوال على نحو يؤثر على مخيلة التلاميذ وجعلهم يتخيلونها كأنهم يرونها ·

٤ ـ يجب الاعتناء فى انتخاب الوقائع التى تؤثر على شعور التلاميذ وتحرك عواطفهم وتبعث فيهم الهمة ·

٥ ـ يجب استعمال الخرائط دائما وبيان حدود الممالك ومواقع المدن ومحلات الحروب ·

---

(١) ارجع الى كتاب ساطع : حول القومية العربية صفحات ٢١٢ ـ ٢٢٤ ·

٦ ـ يجب زيارة الأبنية التاريخية والاطلال القديمة ٠

٧ ـ لفت أنظار التلاميذ الى أسباب الوقائع المهمة ونتائجها لا سيما أسباب انقراض الدول العربية ونتائج الاختلافات الداخلية ٠

ويضع في مستهل التوجيهات التعليمية ان الغرض الاصلي من تدريس التاريخ في المدارس على اختلاف مراحلها بما في ذلك المرحلة الثانوية هو تقوية الشعور الوطني والقومي في أفئدة التلاميذ ٠

يرى ساطع ان تعليم التاريخ بصورة علمية بحتة ، وبنظرة موضوعية ذاتية مطلقة مجردة من جميع أنواع التأثيرات الذاتية والقومية ، اذا كان ممكنا في المدارس العالية ، فهو متعسر جدا في المدارس الثانوية ، ومتعذر مطلقا في المدارس الابتدائية ، فهو يرى أن المعلم لا يستطيع أن يدرس الا جزءا صغيرا من التاريخ ولايستطيع أن يتوسع الا في قسم قليل من الوقائع ، فيضطر لذلك الى انتخاب قسم من الوقائع والابحاث ، وبديهي ان الانتخاب يتضمن بطبيعته التأثير الذاتي والترتيب القصدي ٠٠ وما دام الانتخاب ضروريا ، فمن الطبيعي ان يأخذ الاتجاه الذي تقتضيه التربية الوطنية والقومية ، ولا سيما أنه لا يوجد بين أيدي المعلمين واسطة تربوية أثمن وانجع من دروس التاريخ ، لانماء العواطف الوطنية والقومية وتربيتها ٠

ولهذه الملاحظات السابقة أهميتها الكبيرة عنده خصوصا بالنسبة الى تاريخ الامة العربية فهو يلاحظ أن بعض هذه الكتب المدرسة في التاريخ كتبت مادتها متأثرة بنزعة دينية أكثر منها قومية ، أو مستوحاة من كتابات غربية ٠ فيترتب علينا نحن العرب من وجهة نظره أن نعيد النظر في تاريخنا بنزعة تربوية قومية ٠

وينبغي هنا انصافا للحقيقة والتاريخ أن نقرر أن ساطعا الحصري في تناوله لبعض الاحداث التاريخية قد جانبه الصواب ،وأنه تناول الحقائق التاريخية في بعض الأحيان تناول الباحث الذي بعدت

به حماسته لقوميته عن ان ينظر نظرة موضوعية حيادية · فهو فى تناوله لاحداث الحملة الفرنسية فى كتابه (آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع) يقول : (اننى لم أصادف بين جميع الدلائل والبراهين التى قرأتها فى الكتب المختلفة أى برهان معقول يؤيد بصورة منطقية الرأى القائل بأن الحملة الفرنسية كانت من العوامل الفعالة فى النهضة المصرية · واطلاق القول على عواهنه على هذا النحو شئ غير صحيح وغير دقيق ·· هناك من قال ان الحملة الفرنسية حررت المصريين من المظالم ، وهناك من قال ان الفرنسيين حين جاءوا الى مصر حرروا المرأة من الظلم واستدلوا على ذلك بقول الجبرتى انه كانت لهم (للفرنسيين) رغبة فى مطلق الانثى · وهذا فهم خاطئ لعبارة الجبرتى بالطبع · كذلك نجد من قال ان الفرنسيين فى مصر هم أول من أدخلوا النظام الدستورى الحديث فأنشأوا ما يشبه البرلمان (الديوان) · وهذه الاقوال التى أعطيت لنتائج الحملة فى مصر خاطئة شأنها شأن من يغمط دور الحملة فى مصر وهو ما قال به ساطع ·

اننا لا يمكن ان ننكر ان الحملة الفرنسية كان لها دورها فى مصر ، وأنها أثرت على المصريين الذين اتصلوا بها (١) لكن تأثير الحملة كان محدودا لأنه لم تكن هناك أرض مشتركة بين المصريين

---

(١) ناقش هذه المسألة وألقى عنها بحثا الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم مدير جامعة عين شمس «سابقا» في الندوة الدولية لألفية القاهرة بتاريخ أول ابريل عام ١٩٦٩ ·

والفرنسيين حتى يكون هناك تأثير فى المصريين · لكننا لا يمكن أن ننكر دور الحملة على حركة التجديد التى شهدها المجتمع المصرى على عصر محمد على ·

وليس المجال هنا ليسمح بمناقشة تفصيلية لذلك· لكننا ينبغى ان نقر ان الحملة الفرنسية على مصر برغم فشل السياسة التى رسمها بونابرت ومن تولى أمر الحملة من بعده فى كسب ود المصريين لأسباب لا داعى لسردها هنا ، فان الثابت يقينا ان هذه الحملة برغم الفشل الذى منيت به والثورات التى واجهها بها الشعب المصرى كان لها بعض الأثر فى تلك النهضة المصرية الحديثة ولا نقول : انها كانت الأساس الوحيد للنهضة المصرية الحديثة ، وانما كانت برغم ازدرائها للتقاليد وامتهانها لعادات المصريين قد ربطت الى حد كبير بين الشرق والغرب ، وربطت بين مصر وبين التيارات السياسية العالمية ·

موقف ساطع من بعض الآراء والنظريات الخاصة بالقومية :

١ ـ القومية والمشيئة :

يناقش ساطع رأى القائلين بأن أهم عوامل القومية هى المشيئة وكان مبعث هذه النظرية الخلاف الذى ثار بين فرنسا والمانيا بشأن مشكلة الالزاس · كانت الالزاس مقاطعة ألمانية حتى أواسط القرن السابع عشر ، ثم استولت فرنسا عليها فى عهد لويس الرابع عشر وضمتها الى بلادها بموجب معاهدة وستغاليا · ومع هذا كان أهالى الالزاس يتكلمون الألمانية ، ويحتفظون بالكثير من تقاليدهم الخاصة·

ازاء ذلك انبرى جماعة من الفرنسيين يقولون ان القومية لا تتبع اللغة وان هناك ما هو أهم منها ، وهى مشيئة السكان ، أو رغبتهم فى الاندماج مع بعضهم وتكوين أمة ·

يفند ساطع هذا القول على أساس أنه لا يمكن ان تكون بعض

الأسس المعرضة للتغيير والتحويل كالمشـــيئة ضمن تكوين الامة ويستعين فى ذلك بأقوال المفكرين الذين نادوا بنظرية المشيئة ، وعلى رأسهم ارنست رينان ٠٠ لقد شعر رينان بضعف نظريته حيث قال: قد تقولون ان المشيئة كثيرا ما تكون قليلة التنور وعرضـــة الى التغير ، ولكن رينان حاول أن يرد على هذا الاعتراض بقوله ، أن كل شيء فى الكون يتغير وهو بالطبع رد ضعيف واه ٠٠ يقول ساطع صحيح ان كل شيء فى هذا الكون يتغير ، ولكن المنطق العلمى يقتضى عند محاولة تعريف وتحديد شيء من الأشياء ، البحث عن الأثبت والأدوم، والأعم من صفات ذلك الشيء، وينتهى الى القول ان تعريف الامة بالاستناد الى عامل المشيئة يخالف مقتضيات البحث العلمى مخالفة تامة ٠ ويرى أن المشيئة المشتركة ليست من عوامل القومية بل هى من نتائجها لأن الافراد يشاءون أن يعيشوا معا عندمـــا ينتسبون الى أمة واحدة ٠ ثم يورد ساطع الامثلة التى تؤيد قوله ومنها الحروب التى قامت بين الولايات الجنوبية فى الولايات المتحدة الامريكية ، والولايات الشمالية خلال القرن الماضى ، ولكن مشيئة الانفصال تلاشت عند الجنوبيين ، لأنها لم تكن تستند الى أســـس ودوافع قومية ٠

٢ ـ القومية والحياة الاقتصادية :

لا يؤمن ساطع كذلك بأن لوحدة المصالح الاقتصادية أثر فى تكوين الأمة لأنه يرى أن المنفعة والمال والاقتصاد ليست كل شيء في حياة الانسان ، ويرى أن الاحاسيس الوطنية والقومية لا ترتبط بالمنافع والمصالح الاقتصادية .. ودخل ساطع بسبب هذه المسألة فى خـــلاف مع القائلين بأن وحدة الحيـــاة الاقتصـــادية من جملة المقومات الأساسية للأمة واعطائها قيمة وقوة تعادل قيمة وحدة اللغة وقوتها فى تكوين الأمة .. ويتساءل ساطع هل كان الطليان .

مثـــلا محرومين من كونهم أمة قبل اتمام وحدتهم لانهم كانوا محرومين اذ ذاك من الحياة الاقتصادية المشتركة ؟ أو أن أهالى منطقة السـار اضاعوا انتســـابهم الى الأمة الألمانية عندما احتل الفرنسيون بلادهم وادخلوها فى نظامهم الاقتصـادى الخاص لانهم فقدوا بذلك (الحياة الاقتصادية المشتركة) التى كانت تربطهم بسائر البلاد الألمانية .

وساطع لا ينكر دور الاقتصاد الهام للغاية فى حياة الامم لكن دور هذا الاقتصـــاد عنده ليس له تأثير فى تكوين الأمة . فالاقتصاديات كما يقول ساطع تقوى الأمة بل توصلها الى ذروة القوة ولكنها لا تخلقها .

كذلك ينكر قول القـــائلين ان القوميـــة وليـــدة العهـــود الرأسمالية . فلقد أكد ساطع خطأ القائلين بأن الرأسمالية ولدت وسببت قيام الحركات القومية .

يستند القائلون بأن القومية وليدة العهود الرأسمالية الى أن عهد انتصار الرأسمالية على الاقطاعية انتصارا نهائيا قد اقترن فى كل انحاء العالم بحركات قومية ، وان تكوين الدولة القومية التى تضمن متطلبات الرأسمالية العصرية بأحسن الصور صار المنزع الخاص لكل حركة قومية .. ويأتى ساطع بقول ستالين الذى تبنى هذه الفكرة ودافع عنها بكل اهتمام سنة ١٩٢٩ ، والتى قال فيها ان الأمم لم توجد قبل الرأسمالية ، وقوله كيف كان يمكن ان تتكون الأمم وأن توجد قبل الرأسمالية فى عهد الاقطاعية عندما كانت البلاد مجزأة الى امارات مستقلة لا يرتبط بعضها ببعض بروابط قومية .. كذلك يناقش ساطع قول لينين ان توحيد البلاد التى يتكلم أهاليها لغة واحدة يؤدى الى توسيع السوق التجارى وتوحيده وفق متطلبات وحاجات الرأسمالية .

ثم هو يثبت عدم صحة هذا القول ان كثيرا من الحركات القومية قد ادت الى حواجز تضـــييق الاسواق التجارية ومن ثم اتجهت هذه الحركات عكس متطلبات الرأسمالية كما يقول لينين ٠

ثم يخلص ساطع الى القول ان الحركات القومية فى البلاد العربية أوضـــح دليل على عدم ارتباط تلك الحركات بقضـــايا الاقطاعية والرأسمالية ٠ اذ من المعلوم ــ كما يقول ــ ان هـــذه الحركات اشترك فيها جماعات من الأغنياء ومتوســطى الحال الفقراء . كما ان صفوف الذين خالفوا تلك الحركات أيضا كانت تتألف من الاغنياء ومتوسطى الحال والفقراء ٠ (١)

٣ ــ القومية والدين :

يعارض ساطع النظرية القائلة بأن وحدة الدين تلعب دورها فى تكوين الأمم ٠٠ ويناقش هذه الآراء فى المحاضرات التى القاها على طلبته فى معهـد الدراسات العربية العالية مناقشة مستفيضة ٠٠ ويستشهد فى ابحاثه فى هذه الناحية بالاحداث التاريخية ٠

ومن الأمثلة التى يستشهد بها ساطع على أن الدين لم يلعب دوره فى تكوين الأمم ، حركة الوحدة الالمانيـــة التى جمعت بين دول كاثولكية مثل بافاريا ، ودول بروتستانية مثل بروسيا ، كذلك الحركة القومية اليوغسلافية التى وحدت العرب الارثوذكس مع الكروات الكاثوليك . كذلك يستشهد ساطع بالحروب الدامية التى قامت بين الطليـــان والنمســاويين ، ومع ان كليهما كاثوليكى المذهب ٠ ثم هو يصل الى النتيجة القائلة بأن الوحدة القوميـــة لم تتبع الأديان والمذاهب فلا وحدة الدين والمذهب ضمنت التغلب

(١) ساطع الحصرى : حول القومية العربية ص ١٦٠ ٠

على الفروق القومية ، ولا اختلاف الدين والمذهب استطاع أن يحول دون تحقيق الوحدة القومية .

كذلك نجد الحصرى يعارض بعض الكتاب في البلاد العربية القائلين بأن وحدة الدين لم تلعب دورها فى بناء القوميات فى العالم المسيحى فقط على أساس ان طبيعة تعاليم الانجيل تفرض فصل الدين عن الدولة . ويرى ان ذلك القول يسرى أيضا على الدين الاسلامى .

الدين عند ساطع له تأثيره في القومية عن طريق اللغة التى يتعبد بها الناس . ولما كانت اللغة أس الأساس فى بناء القوميات، فان الأديان لا تخلو من التأثير فى القوميات . ويرى أن اللغة اللاتينية انتشرت فى أوربا الغربية ، بفضل الديانة المسيحية، والمذهب الكاثوليكى أكثر بكثير مما انتشرت بفضل الفتوحات الرومانية . ولكن المذاهب البروتستانية وضعت حدا لسيطرة اللغة اللاتينية وساعدت على ازدهار اللغات القومية لأنها جعلتها لغة الدين والصلاة .

لقد أفرد ساطع ابحاثا لطلبته فى معهد الدراسات عن القومية والدين في البلاد العربية أكد فيها أن البلاد العربية حين بدأت تتحرر من سلطان الدولة العثمانية لقيت معارضة من رجال الدين على أساس أن السلطان العثمانى هو خليفة المسلمين ، يجب اطاعته ، وينبغى عدم الخروج عليه ، واعتبروا فكرة القومية العربية نوعا من العصبية التى نهى عنها رسولنا الكريم ثم كان ان رد عليهم آخرون بقولهم ان المقصود بالعصبية المذكورة فى الأحاديث النبوية هو العصبية الجاهلة أى العصبية القبلية .

ثم يبحث ساطع آراء جمال الدين الأفغانى فى العروة الوثقى والتى فهم الناس منها خطأ أنه كان يدعو الى وحدة اسلامية ويرى أن مقالات الافغانى فى العروة الوثقى كانت تدعو للتخلص من الحكم الأجنبى وتستنهض هم الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ،

للتخلص من الحكم الأجنبى ، لكنها لا تدعو الى اتحاد بين الدول الاسلامية ، فهي تدعو الى (اتفاق) بين سلطنة ايران وامارة الأفغان من ناحية ، وبين ايران وبين آل عثمان من ناحية ثانية ، وبين جميع هؤلاء وبين الروس من ناحية ثالثة ، لطرد الانجليز من مصر ومن الهند . ويرى أن ما يسميه الكتاب اليوم بالقومية هو ما كان جمال الأفغانى يسميه بالجنسية .

أما أهم ما يركز عليه ساطع الدراسة عند تناوله لنظرية القائلين بوحدة الدين كأساس للقوميات أن تاريخ الأمة العربية خير شاهد على أن الدين الاسلامي لم يكن له كل الدور فى بناء القومية العربية . فالفتوحات الاسلامية لم تكن مرتبطة بالقومية العربية ارتباطا تاما ، لأن بعض الجماعات استعربت دون أن تعتنق الديانة الاسلامية ، وبعكس ذلك فان بعض الجماعات اعتنقت الديانة الاسلامية دون أن تستعرب ، وتكونت بذلك جماعات عربية غير مسلمة من ناحية ، وأمم اسلامية غير عربية من ناحية أخرى .

لكن الذى ينبغى أن نوضحه أنه ليس معنى هذا ان ساطعا قد اهمل دور الدين الاسلامى فى حركة القومية العربية كما انتقده البعض من هذه الناحية ، فهو يرى ان اللغة العربية بعد أن أصبحت لغة الجميع فى هذه البلاد الشاسعة من العالم العربى تعرضت الى محن خطيرة مدة قرون طويلة ، بسبب ما طرأ على العالم العربى من التفكك السياسى والجمود الفكرى والاجتماعى والانحطاط الثقافى .. وأصبحت اللغة العربية معرضة لخطر التفكك التام والتفرع الى لغات عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا ، ولو حدث ذلك لأدى حتما الى انشطار الأمة العربية الى أمم مختلفة ، ولما بقى ما يمكن تسميته بالقومية العربية ، ولكن القرآن الكريم وقف سدا منيعا أمام هذه الأخطار الجسيمة ،

وحال دون استشراء هـذا التفكك وذلك لكونه عربيا ، ولكون الديانة الاسلامية تفرض على جميع المسلمين حفظ طائفة من آياته لمن لا يستطيع أن يحفظه كلمة وذلك عند تأدية فرائض الصلاة وبذلك صارت اللغة العربية لغة الدين والصلاة عند غير المسلمين أيضا حين ترجم العرب النصارى كتابهم المقدس الى العربية ، وصاروا يتلون الانجيل باللغة العربية .

وينتهى ساطع من ذلك الى القول : ان الديانة الاسلامية لعبت دورا هاما فى تقدم القومية العربية وتوسعها لأنها :

أولا : كانت القوة الدافعة للفتوحات العربية التى نشرت اللغة العربية ووسعت نطاق القومية العربية .

ثانيا : صارت (القوة الواقية) التى اكسبت اللغة المذكورة نوعا من المناعة ضد عوامل التفتت والتفرع .. وصانت بذلك القومية العربية من الانشطار . فى عهد انحطاطها الطويل .

ولكن ذلك لا يعنى عند ساطع أن القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الاسلامية لأنه قد تكونت أمم اسلامية غير عربية من ناحية وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى .

القومية ووحدة الأصل :

ناقش ساطع ما قاله بعض الكتاب وعلى رأسهم ما نشينى الايطالى عن علاقة القومية بوحدة الأصل حيث عرف هذا الكاتب الايطالى الامة بأنها مجتمع طبيعى من البشر يرتبط بعضه ببعض بوحدة الأرض والأصل والعادات واللغة .. واذا كان تعريف ما نشينى للأمة فى محاضرته لجامعة تورينو فى سنة ١٨٥١ هو أول تعريف يحاول تحديد معنى الأمة بوجه عام بأسلوب علمى صريح ، فان الحصرى يعارضه فى قوله بأن وحدة الأصل تعتبر من المقومات الأساسية لتكوين الأمم .. والحجة التى يستند

اليها في الرد على مانشينى انه لا توجد أمة من الأمم ينحدر جميع أفرادها من أصل واحد ، بل ان كل أمة من الأمم تتألف من أفراد منحدرين من أصول مختلفة ، حتى ان اعرق واقدم الأمم الحالية فى (الوحدة السياسية والتجانس القومى) بعيدة عن التجانس فى الأصل والدم بعدا كبيرا . اما هذه القرابة التى يشعر بها أبناء الأمة الواحدة فيفسرها ساطع بأنها قرابة معنوية تنشأ من الروابط الاجتماعية المختلفة ، ولا سيما من الاشتراك فى اللغة وفى التاريخ ، فلا تدل بوجه من الوجوه على قرابة الأصل والدم .

رأى ساطع فى الأرض المشتركة كأساس من أسس القومية :

وحين يسأل ساطع لماذا لا تدخل الأرض المشتركة بين مقومات الأمة الأساسية ؟ هل تعيش الأمة دون أرض ؟ يرد على ذلك ببحث يتناول هذا الموضوع من جوانب عديدة .. وينتهى فيه الى القول بأن الأرض المشتركة ليست من مقومات الأمة ، ويستشهد بأحداث التاريخ ، ويضرب مثلا لذلك جزيرة قبرص التى يسكنها الاتراك واليونانيون. فمما لاشك فيه ان الاشتراك فى أرض الجزيرة لم يجعل قاطنيها أمة واحدة ، كما أن عدم الاشتراك فى الأرض لم يحل دون بقاء الاتراك القاطنين فيها أتراكا — يتوجهون بقلوبهم نحو حكومة أنقره .. ونرى ساطع يؤكد على هذه المسألة الخاصة بالأرض المشتركه ويقول : « أود ألا يظن احد انى استبعدت الأرض المشتركة من عداد مقومات الأمة الأساسية مراعاة لتطلبات القومية العربية ، بل أود ان تتأكدوا انى فعلت ذلك مستندا الى كل ما عرفته عن تواريخ الأمم ونواميس الاجتماع » . فماذا ما وجه اليه نقد فى أمر (الأرض المشتركة) على أساس ان ذلك قد يفيد بنى اسرائيل ، بمعنى أنه يجب علينا فى حالة عدم اعترافنا بالأرض المشتركة كعنصر من عناصر تكوين الأمة — ان نعترف بالاسرائيليين كأمة ،

يرد ساطع رد الذى لا ينظر الى المسائل من زاويتها الضيقة فيقول : « ان حقنا فى فلسطين لا يتبع بوجه من الوجوه أمر التسليم أو عدم التسليم بأن الأرض من عناصر القومية الأساسية ، ولا يرتبط بصورة من الصور بأمر الاعتراف أو عدمه بأن بنى اسرائيل أمة ، بل ان حقنا في فلسطين يستند الى أنها (فلسطين) بلد العرب منذ عشرات القرون ، وأنها موطن أبناء أمتنا منذ آلاف السنين » .. ثم يتساءل لنفرض أن فلسطين لم يستول عليها اليهود واستولى عليها وهاجر اليها وطرد سكانها الفرنسيون أو الايطاليون أو غيرهم أو أية جماعة من الجماعات التى لا مجال للشك فى أنها أمة .. فهل كون ذلك لو حدث من جانب الفرنسيين أو الايطاليين مثلا يعطيهم حق البقاء فيها وينزع منها حق العمل لاستردادها ؟

ويرى ساطع ان الربط بين قضية فلسطين وبين النظريات القومية خطأ عظيم يجب تجنبه عند دراسة هذه القضية فلدى العرب من الأسانيد والبراهين ما هو كفيل بتأييد حقهم وتأييد نضالهم ضد الخطر الصهيونى أكثر من كون الاسرائيليين أمة أو غير أمة .

ولقد أكد ساطع أنه يرجو الا يفهم القارىء لآرائه ونظرياته فى القومية أن القصد منها تقرير أن فكرة القومية تجرى فى البلاد المختلفة على نمط واحد ، وانما هى تجرى على أنماط متنوعة ، تختلف باختلاف الأحوال السياسية ، والأطوار الاجتماعية ، والعوامل التاريخية التى كانت قائمة فيها . ولقد كان رأى ساطع فى ذلك واضحا منذ ألقى ابحاثه عن نشوء الفكرة القومية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة بدعوة من كلية الآداب فى أوائل سنة ١٩٤٨ . فلقد استعرض فى هذه المحاضرات تاريخ نشوء الفكرة القومية فى كل من المانيا وبلغاريا ويوغسلافيا واليونان ورومانيا

والبانيا وتركيا .. ثم تناول بعد ذلك الفكرة القومية فى البلاد العربية .

والنتيجة التى يصــل اليها الحصرى من أبحاثه هذه هى قوله :

« أود الا يفهم من قولى هذا بأنى أعنى وجود عوامل عامة فى شئون القوميات ، وارى أن أصرح ـ بعكس ذلك ـ أنى اعتقد أن لعالم الاجتماعيات قوانين عامة وعوامل أساسية ، مثل ، مالعالم الماديات . كما أن للنزعات القومية أيضا قوانين عامة وعوامل أساسية ، مثل ما لسائر مظاهر الحياة الاجتماعية . انى قلت وكتبت مرارا : ان الأمة كائن اجتماعى ، لها حياة وشعور ، وأن حياتها فى اللغة وشعورها بالتاريخ » .

« فى الواقع ان قولى هذا يتضمن حكما عاما ، غير أن هــذا الحكم لم يكن وليد تفكير منطقى مجرد ، بل هو نتاج مشاهدات وملاحظات عن الحياة النفسية والاجتماعية والوقائع التاريخية كما أنه لا ينفى وجود فوارق بين القوميـــات مثل الفروق التى تلاحظ بين مختلف الأحياء » .

ثم هو لا يريد أن يضـــفى على القومية العربية من الصفات ما أراده البعض حيث نادوا بتميزها عن القوميات الأخرى من حيث انها (القومية العربية) قومية مســـالمة انســـانية ، وان القوميـــات الأخرى كانت ذات نزعة استعلائية استيلائية .. يقول ساطع : انا أسلم بأن القومية العربية ليست ولن تكون استعلائية استيلائية ، بل انها قومية مسالمة تعرف مالها وما عليها من حقوق وواجبات تجاه سائر القوميات .. ولكن لا أسلم بأن القوميات التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، كانت استعلائيـــة واســـتيلائية . ولا أرى من الحق والصـــواب أن نربط خفايا

الاستعمار بظهور القوميات ، لأن من الحقـائق التى لا يمكن ولا يجوز تجاهلها أن استعمار الأوربيين لمختلف قارات العالم واستعبادهم لشعوبها المستضعفة ـ كان قد بدأ قبل القرن التاسع عشر بكثير .. صحيح ان الايطاليين اقدموا على الاستعمار بعد حركاتهم التحررية ، لكن ذلك كان بعد مرور ثلاثة عقود من السنين على نجاح الحركات بتحقيق الوحدة الايطالية .

ثم يوضح السبب الذى أوقع بعض الكتاب العرب فى هذا القول هو أحد الأمرين التاليين أو كلاهما معا :

١ ـ انهم تأثروا كثيرا بما كتبه الكثيرون من الفرنسيين والبريطانيين ضد الحركات القومية بوجه عام بسبب الخسائر الفادحة التى الحقتها بمصالح بلادهم .

٢ ـ انهم لم يتنبهوا الى التطور الذى حدث فى معنى كلمة (ناسيونا لزم) فى أوربا ، وخلطوا بين مبدأ القوميات ، وبين خطط واعمال الأحزاب اليمنيه المتطرفة التى عرفت نفسها باسم ناسيونا ليست ، ونراه يؤكد أن دراسة الوقائع دراسة علمية صافية لا تترك أى مجال لربط حركات الاستعمار والاستعباد بحركات تحرر القوميات العربية .

وينبغى أن نوضح حقيقة هامة ونحن نتناول الاشارة الى ابحاث ساطع فى القوميات أنه لم يقصد من قوله أن وحدة اللغة والتاريخ هما أس الأساس فى تكوين الأمم انه ينفى وجود الأسس الأخرى أو دورها وأهميتها .. فحين ينقده البعض على أساس أنه جعل اللغة العربية المقوم الوحيد للقومية ، ينفى ساطع ذلك نفيا باتا ويحيلهم الى آرائه التى نشرها فى كتابه (آراء وأحاديث فى القومية والوطنية حيث يقول : ان اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشد التأثير فى تكوين القوميات

(ص ٣٠ من كتابه المذكور) كما يقول فى الصحيفة التالية مباشرة من نفس كتابه . ولكن العوامل التى تؤثر فى تكوين الامم وتميز بعضها عن بعض لا تنحصر فى اللغة والتاريخ بل ان هناك عوامل اخرى تؤثر فى ذلك تأثيرا واضحا فتقوى تارة تأثير العاملين الأساسية المذكورين آنفا ، وتضعف ذلك التأثير طورا .

ولقد استهدف ساطع من دراساته الواسعة العديدة فى موضوع القوميات بصفة عامة والقومية العربية بصفة خاصة الوصول الى الايمان بوحدة الأمة العربية ، ففكرة القومية العربية تعنى عنده هذا الايمان ، وتتطلب العمل بما يستوجبه ، وذلك بالتفانى فى خدمة الأمة العربية للمساهمة فى ضمان تقدمها ووصولها الى أوج الرفعة والقوة والكمال فى ميادين العلم والثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة .

ثم يقوم ساطع ببحث التطورات التى لحقت بالقضية العربية خلال العقود الأخيرة من تاريخ العرب المعاصر ، ويحصى الخسائر والمكاسب التى لحقت بالقومية العربية فى بحث له نشرته له مجلة العربى الصادرة فى مارس (آذار) عام ١٩٥٩ ، ويرى أن مكاسب القومية العربية فاقت خسائرها كثيرا فضلا عن أنها زودتنا بالقوى المادية والمعنوية لتلاقى تلك الخسائر والتغلب على تلك المصائب .. انى أعرف ان احدى تلك المصائب (ويقصد بها ساطع حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وان لم يفصح عنها صراحة) كانت أشد هولا وأعظم خطرا من كل مصائبنا الماضية ، وهى لا تزال تدمى قلوبنا وتعرض مستقبلنا الى أشد الأخطار . ومع هذا يلاحظ من ناحية أخرى ان هذه المصيبة الأخيرة فتحت عيون الكثيرين من الغافلين ، وصارت بمثابة(ناقوس الخطر) الذى يدقه بشدة وبدون انقطاع ، فلا يترك مجالا للنوم والغفلة أبدا . انها أظهرت وجسدت أضرار الأنقسام السياسى الذى منى به العالم العربى وجعلتها تلمس

لمس اليدين ، وتصدم أنظار كل ذى عينين ، ولا شك فى ان ظهور هذه الأضرار الى العيان ، بهذه الصورة المجسمة من شأنه ان يقوى الوعى القومى ، وأن يرسخ الايمان بوحدة الأمة العربية ، ويدفع جميع أبناء العروبة الى العمل فى سبيل تحقيق الوحدة الشاملة بقوة لا تقهر ، وبايمان لا يتزعزع ، انى لقوى الأمل بل ولشديد الايمان بأن هذه المصيبة ستكون من أقوى العوامل التى ستوحد مشاعرنا وتقوى عزائمنا ، وتجعلنا نسير نحو الوحدة بكل مالدنيا من قوى مادية ومعنوية ومن عزم وايمان ، وان كنت لا أنكر ان الطريق الباقى أمامنا لا يزال طويلا ومحفوفا بشتى المهاوى والمخاطر ، ولكنى آمل أملا قويا ، بل اعتقد اعتقادا جازما بأن روح العروبة الحقة ستقتحم كل العراقيل وستنتصر فى آخر الأمر انتصارا حاسما فى كل الميادين . »

وحين نقرأ ماكتبه ساطع فى هذا البحث الذى مضى عليه عشرة أعوام ، ونتأمل الأحداث التى مرت بها الأمة العربية منذ ذلك التاريخ نقول : ياليت الدعوة التى دعا اليها ساطع من وحدة عربية لقيت آذانا صاغية من أبناء الأمة العربية فحركتهم نحو تحقيقها والقوى الاستعمارية ، والخطر الصهيونى يحدق بالأمة العربية ، ولكنى على يقين أن الأحداث المصيرية التى تتعرض لها هذه الأمة والمرحلة الحاسمة التى تمر بها قد أخرجت الى الوجود وحدة عربية ، وان لم تعلن رسميا ، وجسدت فكرة التضامن العربى بصورة لم يسبق لها مثيل ، وأن ما حدث منذ نكسة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ خير شاهد وأصدق دليل .

لقد انعقد مؤتمر الخرطوم بعد هذه النكسة فأكد وحدة الصف العربى ، وأثبت ان العرب عند مستوى المسئولية وان الوحدة العربية حقيقة قائمة . ثم هناك بالاضافة الى ذلك تنسيق بين السياسة الخارجية للدول العربية تجاه الأزمة ، وبين الأمور العسكرية ،

الأمر الذى نجم عنه انشاء الجبهات العسكرية الموحدة ، ومنها القيادة العسكرية للجبهة الشرقية العربية التى نسقت الخطط العسكرية بين سورية والاردن والعراق .. وأرجو ما يرجوه كل عربى مخلص أن تكون هذه مقدمات على طريق الوحدة الشاملة وعندئذ تتحقق أمنية الكثيرين المخلصين من أبناء هذه الأمة وفى مقدمتهم بطبيعة الحال أمنية ساطع الحصرى ، ووقتها ستكون روحه سعيدة راضية مطمئنة ، بعد أن يتحقق أعز أمانيه ٠

الفصل السادس

فضل ساطع على الثقافة العربية

مما لا شك فيه أن ساطع الحصرى بذل كل ما فى جهده لتخليص الثقافة العربية من كل شوائب غريبة عليها ، وان مبعث اهتمامه بالأمور الثقافية أنه كان يؤمن بأن الوحدة الثقافية هى السبيل للوحدة العربية .

وليس معنى توحيد الثقافة عنده هو حمل الناس على أن يتعلموا أشياء مماثلة ، أو تعويدهم التفكير على نمط معين ، وانما يعنى تنسيق أفكار الناس وعواطفهم تنسيقا يؤدى الى توليد وحدة معنوية سامية .. ويشبه ساطع الثقافة بالوحدة الموسيقية التى تتكون من توافق وتلاحق عشرات الأصوات والأنغام الصادرة من عشرات الآلات المتنوعة . فهو يرى أن وحدة الثقافة هى وحدة مركبة عالية تتولد من تمازج الكثير من الأمور المختلفة المتنوعة . وأعد ساطع الأبحاث التى تناول فيها مسائل الثقافة بصفة عامة، ثم الثقافة العربية بصفة خاصة . ففى بحث له بعنوان آراء وأحاديث فى العلم والأخلاق والثقافة يفرق ساطع بين الثقافة والحضارة ، ويوضح المعنى المقصود من كل منهما . فهو يبين أن كلمة حضارة . Civilization استحدثها الفرنسيون خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر ، وهى مشتقه من كلمة

بمعنى المدنية عكس البربرية والهمجية . وكان يفهم منها الخصال المتولدة عن المعيشة فى المدينة . ثم رأى المفكرون انه من الضرورى تجريد المعنى من فكرة التقدم النسبية عملا بمقتضيات النزعة العلمية وصاروا يستعملون الكلمة المذكورة للدلالة على الحالة الاجتماعية بأوسع معانيها وأصبحوا الآن يقصدون منها مجموع الخصائص التى تنجم عن الحياة الاجتماعية ، فيشمل مفهوم الحضارة بهذا الاعتبار جميع مآثر الحياة المادية والفكرية والخلقية عند الأقوام .

كذلك يوضح معنى كلمة الثقافة ويؤكد أنها أقدم استعمالا وأطول حياة من كلمة حضارة .. يرى الحصرى أن كلمة الثقافة تدل الآن على أساليب التفكير من جهة ، وعلى الأعمال التى تضمن اصلاح وترقية هذه الأساليب من جهة أخرى ، فهى (الثقافة) تنحصر فى الأمور الذهنية والمعنوية بينما يشمل مفهوم الحضارة الأمور والمسائل المادية أيضا ، ومن هذه الناحية فان مفهوم الحضارة وان كان يتصل بمفهوم الثقافة اتصالا وثيقا غير أنه أوسع وأشمل

يريد ساطع من هذه الدراسة أن يخلص الى أن الحضارة تكون قابلة للانتقال من أمة الى أخرى ، وأما الثقافة فتبقى خاصة بكل أمة على حدة ، وان أثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها في بعض .. فالثقافة اذا تختص بكل أمة على حدة ، وترتبط قبل كل شىء بلغة الأمة وآدابها ، فاللغة هى واسطة التفكير فضلا عن كونها واسطة لنقل الآراء والأفكار والأحاسيس والانفعالات .

ازاء ذلك كان من الطبيعى أن تختلف ثقافات الأمم باختلاف لغاتها وآدابها . لكن ذلك لا يمنع تأثر الثقافات بعضها ببعض ، كما تتأثر الثقافة بتطور الحضارة ، غير أن ذلك لا يكون عن طريق الانتقال المباشر ، بل يكون عن طريق التأثير فى النفوس تأثيرا باطنيا يؤدى الى شىء من التغيير فى أساليب التفكير والتحسس . فالأمم

من وجهة نظره تتميز عن بعضها بثقافات خاصة ، وتشترك مع بعضها فى حضارات عامة ، فالثقافة فى حد ذاتها قومية والحضارة بطبيعتها امية ٠

كذلك يرى ساطع أنه ازاء ذلك ليس هناك شيء اسمه ثقافة البحر الأبيض المتوسط ، بل هناك حضارة اسمها حضارة البحر الأبيض المتوسط ، ويوضح ذلك بتناوله لثقافات مدن هذا البحر فمارسيليا وبارشلونة تختلفان فى الثقافة ، الأولى من الثقافة الفرنسية ، والثانية من مدن الثقافة الاسبانية ٠

ولا يحب الحصرى أن يفهم الناس من قوله حضارة البحر الأبيض المتوسط أنه لا زالت هناك حضارة تفهم بهذا الاسم ٠ وانما كان ذلك فى الماضى ٠ ففى القديم ازدهرت الحضارة اليونانية، ثم الرومانية ، ثم الحضارة العربية ، كلها فى مناطق البحر المتوسط ، ثم فى عصر النهضة انتقل مركز الحضارة الى غرب أوربا والقارة الامريكية ٠

ثم انتشرت الحضارة فى سائر اقطار العالم ، فلم يبق مبرر لنسبة حضارة الى قارة القارات أو بحر من البحار وأصبح من الأوفق على حد قوله ان تسمى الحضارة باسم مجرد عن الدلالة المكانية فنقول حضارة القرن العشرين مثلا ٠

يشبه الحصرى الثقافة بالأزهار والأشجار التى تنمو فى البلاد ، واللغة بمثابة التراب الذى يحتضن البذور ٠٠ ولما كانت لغة هذه البلاد عربية فان ثقافتها ستكون عربية وستشترك هذه البلاد فى أمور الثقافة مع سائر البلاد العربية ، لا مع أقطار البحر المتوسط ٠ ويكتب فى سنة ١٩٥١ يقول :

« سيساهم أبناء سائر الأقطار العربية فى تكوين ثقافة عربية راقية تنمو وتزدهر سنة بعد سنة مغمورة بأنوار العلوم العصرية،

وفيوض الحضارة العالمية .. **انني اعتقد أن ذلك سيتم حتما على الرغم من جميع الجهود التى قد يبذلها البعض فى سبيل توقيف هذا التيار العام ، ومعاكسة هذا التطور الطبيعى ٠٠ اننى أجزم بذلك كما أجزم أن الشمس ستشرق غدا صباحا من هذه المدينة ، وان الطقس سيزداد حرارة فى الشهور القادمة)) ٠**

وبسبب ايمانه على هذا النحو بضرورة تنقية الثقافة العربية من كل الشوائب وحرصه على ان تتطور هذه الثقافة وان تنمو وتزدهر ، كان جهاده فى العراق وفى سورية ثم فى مصر فى هذه الناحية ، فهو يحرص فى العراق على اصلاح التعليم به وتخليصه من التبعية للنظام الانجليزى ثم يحرص فى سورية على اصلاح التعليم السورى وتخليصه من التبعية الفرنسية .. لكنه وهو يفعل ما فعله فى العراق ثم ما فعله في سورية يجهر بأنه لا يعادى ثقافة من الثقافات ولا يشغل نفسه بالمفاضلة بين الثقافة الانجلو ساكسونية أو الفرانكو لاتينية ، وانما هو يعارض الخضوع والاستسلام لنظم التعليم الانجليزية أو الفرنسية ، ايمانا منه بأن ظروف التعليم فى البلاد العربية تختلف عن ظروف ونظم التعليم فى البلاد الاوربية ٠٠ من أجل هذا انتقد بشدة الاقتراحات التى قدمتها لجنة بول منرو الامريكية التى جاءت أثناء وجوده فى العراق بهدف دراسة نظم التعليم العراقى ، وتقديم الاقتراحات الكفيلة باصلاحه .

يقول ساطع : اذا ماعارضت النظم الانجليزيةفى الأولى (العراق) والفرنسية فى الثانية (سورية) فانما فعلت ذلك لغاية واحدة ، هى ايجاد نظم تعليمية خاصة بالبلاد العربية **وتكوين ثقافة مشتركة بين جميع الأقطار العربية ٠**

هو يؤمن اذا أن سبيل الثقافة المشتركة هو العمل فى المقام الأول على تخليص التعليم فى البلاد العربية من تبعيته لنظم التعليم

الأجنبية ، ذلك أنه ليس هناك نظام تعليمي قائم بذاته ، وأنما هذا النظام التعليمى جزء من مجموعة النظم الاجتماعية الخاصة بتلك البيئة وهو يعمل فيها ويؤثر فيهـا ويتأثر بها . ولهذا لاينبغى للتعليم فى البلاد العربية أن يكون مقتبســا من غيره من النظم التعليمية .

لذلك يندد ساطع بالفروق بين مدد الدراســة وموادها فى مدارس البلاد العربية . وعنده ان هذه الفروق الكبيرة لم تكن وليدة الحاجات التى شعر بها أبناء الأقطار المذكورة من تلقاء أنفسهم والقرارات التى اتخذوها بعد امعان النظر فى منافع البلاد بمحض أرادتهم ، بل هى وليدة الظروف السياسية التى سيطرت على مقدرات الاقطار العربية وصنيعة الأيدى الأجنبية التى وجهت سياسة التعليم ، ومرد هذه الاصلاحات الى اختلاف الظروف السياسية . وكان من الطبيعى أن ينبرى المفكرون العرب الى البحث عن الوسائل التى تضمن توثيق الصلات الثقافية .

وعندما اقر مجلس الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ . المعاهدة الثقافة التى تضمنت التعاون فى جميع الشئون الثقافية بين البلاد العربية بجميع الوسائل التى تكفل تقدم الثقافة ، وتخدم غايات الجامعة ، ومن ذلك توحيد المصطلحات العلمية بواسطة المجامع والمؤتمرات واللجان وتشــجيع عقد المؤتمرات الثقافية والعلميــة والتعليمية ، سعد ساطع بذلك كل السعادة ورأى فيه خطوة عملية هامة على طريق الوحدة الثقافية . ثم كان ان قرر مجلس جامعة الدول العربية تأليف الجنة ثقافية تضم ممثلين عن جميع البلاد العربية ، ثم انشأت الجامعة الادارة الثقافية التى عهدت اليهـا بمهمة تحضير المشاريع وتنفيذ القرارات بمساعدة مكتب دائم .

عقدت الادارة الثقافية المؤتمر الثقافى العربى الأول فى عام ١٩٤٧ فى لبنان . فى ذلك الحين اخذ ساطع بكل جهده يكتب وينادى

بضرورة مبادرة هذه الادارة بالعمل على توحيد الثقافة العربية . ويرد فى عنف على القائلين باستحالة هذه الوحدة الثقافية بين البلاد العربية بسبب اختلاف البيئات الطبيعية بالقول أن الأمة العربية شأنها فى ذلك شأن الامم الأخرى ، ويستشهد بقول ميشليه الفرنسى فى وصفه للأقاليم الفرنسية :

« ان هذا الأقاليم المتنوعة (فى فرنسا) كأنها خلقت لكى يتمم بعضها بعضا ، فينشأ من مجموعها كل متناسق يكون وطنا لأمة واحدة قوية غنية » ثم يقول ساطع بعد أن يستعين بكلام ميشليه : «لذلك كله لا أتردد فى القول بأن الذين يتخذون اختلاف البيئات والاقاليم الطبيعية دليلا على عدم امكان الوحدة الثقافية بين الاقطار العربية يتباعدون عن مناحى الحق والحقيقة » .

ويرد على القائلين بأن مصالح البلاد العربية تقتضى تنوع الثقافات بقولهم ان التعليم يجب أن يختلف باختلاف البيئات .. يرد الحصرى عليهم بأنهم يخلطون بين التعليم والثقافة فالتعليم شيء والثقافة شيء آخر ، وان تنوع معاهد التعليم لا يعنى تنوع الثقافة . ثم يطالب بتوحيد أسس المناهج واتجاهاتها ثم تنوع هذه الدراسة من حيث المفردات ، فساطع يرى أن التعليم ينبغى أن يختلف من قطر الى آخر بل من اقليم الى اقليم داخل القطر الواحد حسب البيئة والظروف الى ما شابهه ، لكنه ينبغى أن يتحد من حيث الأسس والاتجاهات .

وحين تأسست اليونسكو فى السادس عشر من نوفمبر عام ١٩٤٥ كتب ساطع يوضح أن هذه الهيئة انما هى وريثة لهيئة شبيهة بها تأسست عقب الحرب العالمية الأولى عرفت باسم لجنة التعاون الفكرى بين الأمم Commision Internationale de Coopération Intellectuelle التى أنشئت ١٩٢١ .

ويطالب الحصرى بفصل اليونسكو عن الهيئة السياسية في

الامم المتحدة . ويطالب الدول العربية بالانضمام اليها . ويقول فى مقال له نشرته مجلة العالم العربى فى ١٠ من يناير عام ١٩٤٩ أن اهم الاعمال التى يجب ان نقوم بها داخل اليونسكو هى نشر الحقائق التالية :

أن السلام يجب الا يعنى - كما هو الحال الآن السلام بين الدول القوية والظافرة وحدها ، بل يجب ان يشمل الأقوياء والضعفاء . والسلام الحقيقى لا يتحقق الا اذا زالت من النفوس شهوة السيطرة والاستعمار ، واذا شاءت اليونسكو خدمة السلام العالمى فعليها أن تشن حربا على فكرة السيطرة والاستعمار .

ثم يكتب رسالة باللغة الفرنسية يرسلها الى جوليان هكسلى الذى كان مديرا لليونسكو ردا على ماكتبه عن البلاد العربية فى تقرير رفعه (هكسلى) الى المؤتمر الثالث لليونسكو ببيروت .

ونجد ساطع يهاجم فيما كتبه فكرة انشاء فرع لليونسكو باسم فرع الشرقين الأدنى والأوسط بحيث يشمل تركيا وايران وأفغانستان وبلاد الجامعة العربية . ويقول ساطع : نحن نريد أن نتعاون مع اليونسكو وهى غير منقسمة الى حجر متحاجزة . وينبغى لهذه المنظمة أن تتجنب معبة الانقسام الى حجرات اقليمية ، ومهما كان الأمر فلا نود أن نحجز فى حجرة خاصة ولا سيما هذه الحجرة التى يسمونها الشرق الأدنى والأوسط .. نحن نريد أن نتعاون مع جميع أمم العالم داخل منظمة اليونسكو بصفتنا عربا لاشرقيين .. واما علاقاتنا الثقافية مع بعض الدول فنحن نريد ان تتم مع هذه الدول باتفاقات مباشرة دون وساطة اليونسكو .

بنى ساطع معارضته لفكرة مركز أقليمى لليونسكو يشمل دول الشرقين الأدنى والأوسط على أن الثقافة لايمكن أن تخضع للأسس الجغرافية ولا لتحديداتها . فالمكسيك والأرجنتين قريبتان جدا من الثقافة الاسبانية برغم عظم المسافة التى تفصل بينهما

وبين اسبانيا ، كذلك مدينة دوفر الانجليزية بعيدة جدا من الوجهة الثقافية عن مدينة كاليه الفرنسية بالرغم من القنال الذى يقربهما. وعلى ذلك يرى ساطع ان سورية اقرب الى تونس منها الى تركيا والعراق أقرب الى مراكش منه الى ايران . فانشاء مثل هذا المركز هو ضد طبيعة الأشياء وضد مصلحة اليونسكو نفسها .

وينفى ساطع أن وراء ذلك تعصبا دينيا لأن تركيا وايران والأفغان التى تريد المنظمة ضمها للبلاد العربية بلاد مسلمة .

وحين يهاجمه هكسلى مدير المؤسسة بالقول بأنه يوجد فى الشرق الأوسط حزب قوى يعارض مشروعات اليونسكو بدافع من القومية السياسية والتعصب الدينى والانحصارية الثقافية التى تغار من كل حركة ترمى الى توسيع المنظمة الثقافية بقبول عناصر من غير المسلمين أو من غير العرب ، وتؤثر الانعزال الثقافى المبنى على اساس اقليمى ، يفند ساطع هذا القول بقوله ان انشاء المنظمة لفرع لها فيما تسميه الشرق الأوسط أو الأدنى انما هو الانعزالية الثقافية بعينها المبنى على أساس اقليمى ، ويدافع عن الاستقلال الثقافى ويقول : اننى لم أكن فى يوم من الأيام نزوعا الى الانعزالية فى ميدان الثقافة (لأنى اعتقد اعتقادا لايتزعزع ان الثقافة العربية العصرية التى نصبو اليها يجب ان تتغذى بجميع مكتبات العلوم الحديثة وتنتعش بأثمن ما فى مختلف الثقافات العصرية) .

وأكد ساطع رأيه فى الاستقلال الثقافى بأنه لا يعنى الانعزال عن الثقافات الأخرى بأن الدول العربية وهى تؤمن بهذا الاستقلال الثقافى قد بذلت جهودا للاستفادة من الثقافة الغربية من ايفاد البعثات الى ترجمة الكثير من امهات الكتب الأجنبية .

ثم سعد ساطع حين لم يخرج مشروع هكسلى الى حيز الوجود فلم ينل وقتها أكثرية الآراء فى مؤتمر اليونسكو الذى انعقد فى بيروت .

ثم نراه وقد حمل حملة شعواء على سياسة الاستعمار تجاه الثقافة العربية وحرصه (الاستعمار) فى كثير من البلاد التى خضعت للنفوذ الاستعمارى الى اتباع السياسة التعليمية للدولة صاحبة الاحتلال . وأما رأى ساطع فى المعاهد التعليمية التى يسمح بها الاستعمار فهى ذات أنواع ثلاثة :

١ ــ معاهد يؤسسها المستعمرون فى الوطنى الأصلى لخدمة الاستعمار .

٢ ــ معاهد يؤسسها المستعمرون في المستعمرات لتربية أبنائهم .

٣ ــ معاهد يؤسسها المستعمرون فى المستعمرات لتربية أولاد الأهلين فى القطر المستعمر .

ويتناول فى كتابه آراء فى العلم والأخلاق والثقافة فى استفاضة هذه الأنواع الثلاثة من المعاهد ، ويقول : ان الاستعمار بعد ان كان يتبع سياسة عدم تعليم أحد من أبناء المستعمرات حرصا على نفوذه عاد فوجد أنه من مصلحته تعليم عدد من المستعمرين ولكن فى نطاق ضيق ولغرض محدود . واذا كان الاستعمار قد واجه مشكلة الخوف من تعليم الأهالى فى المستعمرات خشية أن تقوى فى نفوسهم روح الثورة وعملهم على المطالبة بالحرية والاستقلال، فقد اهتدى هذا الاستعمار على حد قول ساطع الى اتباع طريقة التعليم من غير تثقيف أى التعليم لغاية معينة محدودة مجردة من عناصر الثقافة وعواملها . ويحمل ساطع على سياسة الفرنسيين التعليمية فى الجزائر التى تسببت فى اهمال اللغة العربية (١) .

---

(١) المعروف عن الفرنسيين أن استعمارهم اقترن بسياسة ثقافية ترمى الى احلال الثقافة الفرنسية محل الثقافة الافريقية وقد بدأ تطبيق هذه السياسة أولا فى ظل المبدأ الذى عرف الفرنسة الاجماعية أو الاستيعاب .

وهى سياسة تقوم على ترجمة اللغة والمفاهيم والمنظمات الفرنسية ارجع الى كتاب نزيه ضيف ميخائيل : النظم السياسية فى افريقيا ص ٢١ .

كذلك يحمل ساطع على الكتاب العرب الذين ينادون باتباع اللغات العامية ، ويستندون في قولهم هذا أنه اذا كان لا بد من نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب ، فلماذا لا نعمد الى تعليمه بالعامية .. ويرى ان هذه النزعة عند بعض الكتاب انما هو ترديد لسياسة استعمارية ترى أن اللغة الفصحى هى التى تصل البلاد العربية بعضهـــا وهى التى تنقل الأفكار من قطر عربى لآخر . فاذا ماتوقفت حركة نشر اللغة الفصحى فى البلاد العربية وقامت حركة ترمى الى انعاش وتدعيم اللغات العامية ، فلا بد من أن يصبح لكل قطر من الأقطار العربيـــة بعد مدة لغة خاصة به ، فيزول بذلك خطر فكرة اتحاد بين الدول العربية . ونجده يحذر من شأن ما تتبعه أجهزة الثقافة ووســائلها من اتباع العامية كالمسارح والسينما ، والندوات الثقافية ، والتمثيليات الاذاعية ، والأحاديث المختلفة ، وينبه المفكرين القوميين الى هذا الخطر ويرى أن واجبهم هو اتخاذ التدابير اللازمة لوقاية الأمة العربية من شر هذا التيار .

ويرى ساطع الحصرى أن التباعد بين ثقافات البلاد العربية جاء من عدة عوامل : الخضوع للسيطرة العثمانية فكان هناك ما يمكن تسميته تشارك ثقافى حيث التركية هى اللغة الرسمية والعربية اللغة الدينية ، التركية لغة التعليم التى دخلها كثير من كلمات اللغة العربية ، ومن هذه الناحية يصل الى القول بأن الأتراك والعرب أو الثقافة العربية والتركية أثر كل منهما فى الآخر . ثم تناول ما حدث بعد الاستقلال عن الأتراك حيث خضع العرب لســيطرة ثانية ، فتغلبت الثقافة الانجليزية فى بعض البـلاد والفرنسية فى بعضها الآخر ، ولقد أدى ذلك من وجهة نظره الى كسب الثقافة العربية منظرا مشوشا الى آخر حدود التشويش لا يكاد يختلف عن الفوضى التامة مما جعل المخلصين من أبناء الأمة

العربية فى جميع بلاد هذه الأمة يدركون الأخطار العظيمة التى تأتى من هذه الفوضى الثقافية ، ورأى ساطع ان علاج ذلك هو بذل الجهود لتخليص الثقافة العربية مما لحق بها من شوائب .

وعندما وافق مجلس جامعة الدول العربية فى جلسته المنعقدة فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٤٥ على المعاهدة الثقافية (وكان ساطع عضوا فى اللجنة الثقافية وهى احدى اللجان التى تألفت وفق احكام ميثاق جامعة الدول العربية وأعدت مشروع هذه المعاهدة الثقافية) كتب بعد توقيع هذه المعاهدة فى حوليته الأولى للثقافة العربية يقول :

« ويجب أن نلاحظ أن الغاية التى ترمى اليها الدول العربية من عقد هذه المعاهدة الثقافية لا تقتصر على تقوية العلاقات الثقافية فيما بينها كما هو المعتاد فى المعاهدات الثقافية التى تعقد بين الدول الأوربية والأمريكية ، بل انها تتعدى ذلك الى غاية أسمى وأوسع ، وهى تقريب وتوحيد نظم التعليم فى مختلف البلاد العربية وضمان تعاون جميع الدول العربية فى سبيل تكوين (ثقافة عربية موحدة) تستمد قوتها من تاريخ الأمة العربية ، وذلك لأن جميع الشعوب العربية تعتز بتاريخ مشترك طويل وحين يتكلم بلغة واحدة ، كما انها تجابه مشاكل خطيرة متشابهة وتندفع نحو غايات متماثلة يجب أن تعتبر نفسها لذلك كله بمثابة شعوب منتسبة الى أمة واحدة .. ويلاحظ مفكرو هذه الشعوب ان الظروف السياسية التى سيطرت عليها منذ مدة باعدت بين نظمها التعليمية تباعدا غريبا وأوجدت فى شئونها الثقافية الشىء الكثير من البلبلة والفوضى فأصبح من واجب الدول العربية بعد أن نالت استقلالها السياسى وصارت سيدة شئونها العامة أن تعمل عملا متواصلا لازالة هذه الفروق الموروثة من الأوضاع السياسية

الماضية وأن تسعى بكل الوسائل وراء تكوين (ثقافة عربية عصرية موحدة)

ويؤكد ساطع ان هذا هو الهدف الأسمى لما تسعى اليه جامعة الدول العربية فى الشئون الثقافية والغرض من المعاهدة الثقافية .

لكن ساطعا الذى علق الأمل الكبير على جهود جامعة الدول العربية فى سبيل توحيد الثقافة العربية سرعان ما أصيب بخيبة أمل من جراء عدم تحقيق هذه الجامعة للكثير مما ينبغى عليها أن تحققه فى هذه الناحية .. فلا هى أصدرت التقويم الخاص بالبلاد العربية ، هذا التقويم المفروض فيه أن يشتمل على كل المعلومات المختلفة المتصلة بالشئون الثقافية والادارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ليكون مرجعا يوثق به فى التعرف على شئون هذه البلاد ، ولا هى فهرست للمطبوعات العربية برغم ماقررته اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، فى دورتها الرابعة التى عقدت فى لبنان . كذلك لم تصدر الجامعة العربية كتابا فى جغرافية البلاد العربية ، برغم ما قرره المؤتمر الثقافى العربى الأول بأنه يوصى الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية أن تتخذ ما يلزم من الاجراء لاعداد اطالس وخرائط جغرافية للبلاد العربية، كما قرر المؤتمر أنه نظرا الى الحاجة الماسة الى مؤلف مفصل يتناول جغرافية البلاد العربية جميعا يكون بمثابة مرجع جغرافى يحوى آخر ما وصل اليه العلم .

وتحقيقا لهذه الغاية يوصى المؤتمر ان تتولى جامعة الدول العربية تأليف لجنة فنية لاتخاذ الوسائل اللازمة لتنفيذ هذا الاقتراح . لكن شيئا من ذلك لم يتحقق مما دفع ساطع الى ان ينتقد جامعة الدول العربية من هذه الناحية .

كذلك يلاحظ الحصرى انه كان من مقررات المؤتمر الثقافى العربى الأول المنعقد سنة ١٩٤٧ .. عقد مؤتمرات دورية لمعلمى اللغة

العربية لاهمية هذه اللغة ، فهى كما جاء فى مقررات المؤتمر عماد الثقافة العربية .. لكن شيئا لم يتحقق من ذلك هو الآخر بالاضافة الى قرارات اللجنة الثقافية اتخاذ الاجراءات لمكافحة الأمية ، وتعليم اللغة العربية فى المهاجر وفى البلاد غير العربية . كل هذا بقى كما يقولون حبرا على ورق ومقررات لم تخرج الى خير التنفيذ ، كما أن قرارات اللجنة الثقافية بتوجيه السينما فى البلاد العربية ومراقبة الأفلام التى تعرضها دور اللهو واعداد افلام ثقافية لم يتحقق شيء منه .

أما بخصوص الأذاعة في البلاد العربية ، فقد كان من قرارات اللجنة الثقافية فى دورة انعقادها الثانية العمل على تقوية الاذاعة العربية حتى تسمع فى كل بلد عربى ، وأن تلتزم هذه الاذاعات العربية باستعمال اللغة الفصحى قدر المستطاع .. كذلك تقرر توصية الدول العربية تنظيم اذاعات مدرسية يتولاها رجال التربية والتعليم لتثقيف النشىء فى البلاد العربية .. كذلك كان من بين قرارات اللجنة الثقافية سنة ١٩٤٨ قرار بأن يعهد مجلس جامعة الدول العربية الى الأمانة العامة للجامعة انشاء محطة اذاعة كبرى تتضمن نشر الثقافة العربية والتعريف بها داخل البلدان العربية وخارجها . وفى نفس هذه الدورة قررت اللجنة قرارا يصفه الحصرى بأنه هام جدا ينص على أن تتبع الطرق الآتية للاستفادة من الاذاعة فى نشر الثقافة العربية : اذاعة حفلات شهرية مسجلة تشمل أغانى وأناشيد وموسيقى وقصص ومسرحيات تتخللها معلومات ثقافية ، واعداد أحاديث فى الثقافة الدينية يقوم بها كبار المتحدثين .

وحين يستعرض ساطع كل هذه القرارات التى لم تصدر الا بعد دراسة جادة عميقة أثبتت أهمية هذه القرارات وضرورة المبادرة بتنفيذها . يخلص الى انه برغم ذلك فان شيئا منها لم

ينفذ ، وكأن القرارات شيء والتنفيذ شيء آخر أو كأن القول شيء والعمل شيء آخر .

ومن بين مقررات اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية سنة ١٩٤٧ .. تكليف الكتاب بكتابة المقالات التى تعالج القضايا العربية، وبدأ التنفيذ بأن أصدرت الادارة الثقافية سنة ١٩٤٩ .. الجزء الأول من كتاب عنوانه العـالم العربى لكنها انقطعت بعد ذلك عن العمل فى هذا السبيل .

كذلك فانه بالرغم من أن من بين قرارات مؤتمر الثقافة العربية فى سنة ١٩٥٠ الذى انعقد بالاسكندرية قرار بالاعداد لمؤتمر ثقافى عربى ثالث ، وتأليف لجنة برياسة الدكتور طه حسين، وباشـتراك ممثلى الحكومات العربية والادارة الثقافية بجامعـة الدول العربية للمعاونة للاعداد للمؤتمر المقبل ، كما تقرر أن يكون من أعمال هذه الادارة الثقافية وضع كتاب عن خصائص الثقافة العربية ومقوماتها ، والمشكلات التى تواجهها ، ووضع كتاب فى وصف خصائص الثقافات الغربية بهدف عمل المقارنة بينها وبين الثقافات العربية ، وكان من المفروض كذلك ان تقـوم الادارة الثقـافية بجمع الوثائق والاحصاءات عن حال الثقافة الحاضرة فى البلدان العربية .

لكنه حين عقد مؤتمر الثقافة العربية فى بغداد سنة ١٩٥٧ لم يبحث أية مسألة من هذه المسائل ، كذلك اتخذت اللجنـة الثقافية فى تواريخ مختلفة قرارات عدة بشأن الترجمة والتأليف منها نشر صحيفة دورية تعرف بالانتاج فى مجال التأليف والترجمة فى العالم العربى ، وما قررته اللجنة الثقافية فى سنة ١٩٥١ من تخصيص جائزتين الأولى لأحسن كتاب عربى علمى أو أدبى يخدم فكرة تتصل بتحقيق أهداف الجامعة العربية .

ولكن الصحيفة المذكورة لم تصدر . وأما ترجمة بعض الكتب ففى رأيه انها خرجت عن خطتها فى هذا المجال .

وفي مجال التربية الوطنية كان من قرارات مجلس جامعة الدول العربية سنة ١٩٥٢ بناء على ما عرضته عليه اللجنة الثقافية قرار يتعلق بالتربية الوطنية ، وهو ان تعتنى الدول العربية بالقدر المشترك فى كتب اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ، كذلك أوصى المجلس الحكومات العربية ألا تقرر جهات الاختصاص للتدريس الا الكتب التى عنى مؤلفوها باستيعاب القدر المشترك من عناصر الثقافة العربية .

ويرى الحصرى أن ذلك ايضا كله قد اهمل تنفيذه .

كذلك يحمل ساطع على أولئك الكتاب الذين يتحدثون عما اسموه امما عربية ، فليس هناك سوى أمة عربية واحدة ، وهو بهذا يشير الى ما جاء فى بعض القرارات التى طبعتها الادارة الثقافية سنة ١٩٥٦ وجاء فيها كلمة أمم عربية .

ومن أهم جهود ساطع فى المجال الثقافى أثناء توليه منصب المستشار الفنى للادارة الثقافية بجامعة الدول العربية هو انشاؤه لمتحف الثقافة العربية سنة ١٩٤٩ ، وجعله تابعا للادارة الثقافية وعلق ساطع على انشائه أهمية كبيرة . فلقد كان هدفه من هذا المتحف كما سبق لنا القول هو جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالثقافة العربية ونظم المعارف ، واعطاء فكرة واضحة عن الفروق القائمة بين كل قطر عربى فى المجال التعليمى والثقافى .

وبعد أن أعدت جامعة الدول العربية مكانا مناسبا لهذا المتحف عادت فنقلته الى مبناها الجديد ولم تعطه المكان المناسب له . وساء ساطع أن المتحف قد تقلص وتوقف عن النمو وانحصر فى غرفتين وتحول الى مايشبه المخزن .

وأحب أن أشير هنا الى أمر ينبغى توضيحه ذلك أن ساطعا حين انتقد الجامعة العربية فى بعض جوانب نشاطها لم يقصد أبدا الاساءة الى أحد من العاملين فيها أو المسئولين عنها وانما كان نقده نقدا موضوعيا يهدف منه الى الاصلاح ، ومن أجل هذا ظل يؤثر الكل بحبه وظل الكل يؤثرونه بحبهم • ويوضح سبب نقده بأن المؤسسات التى تنشأ لأغراض خاصة وأهداف معينة يترتب عليها ألا تنفك عن التفكير فى تلك الاغراض ، وعن التوجه نحوها ، والعمل من أجلها مع البحث عن أفضل السبل الى تحقيقها ، ان هذه الابحاث الانتقادية تهدف الى نقد الاعمال والخطط والاتجاهات واظهار ما طرأ عليها من انحرافات ، وتدعو الى الاصلاح وفق ما تقتضيه الرسالة العلمية والقومية السامية التى انشئت من أجلها أجهزة الثقافة التابعة لجامعة الدول العربية .

فهو مثلا يشيد بمعهد المخطوطات العربية الذى أنشىء سنة ١٩٤٦ ، ومهمته جمع فهارس المخطوطات العربيـــة فى دور الكتب العــامة والخاصـــة ، وفهارس المخطوطات التى يمتلكها الأفراد لتوحيدها في فهرس عام ، وتصوير أكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية القيمة لكى توضع هذه المصورات تحت تصرف العلماء ، كذلك من مهمة هذا العهد طبع صـــور المخطوطات القيمة ذات النص الصحيح والخط المقروء ، والى جانب هذا كله فان من مهمة المعهد تنظيم التعاون بين العلماء والمؤسســـات العلمية فى سبيل نشر المخطوطات ، وتزويد الناشرين بالمعلومات اللازمة عن المخطوطات التى يعنون بها .

أشاد ساطع بهذا المعهد فكتب عنه فى الحولية الأولى « واصل المعهد اعماله وفق الخطة المقررة له وبلغ عدد المخطوطات التى صورها ٢٠ ألف مخطوطة » .

أما مفخرة ساطع فى المجال الثقافى فهى بلا شك حولياته

الضخمة الواسعة التى أصدر منها ستة أعداد وتناول فيها الاحوال الثقافية فى البلاد العربية ما بين سنة ١٩٤٥ ، سنة ١٩٦٢ .

صدرت أول حولية لساطع سنة ١٩٥٠ حيث تناول فيها الشئون الثقافية لخمس دول عربية هى مصر والعراق ، وسوريا ، ولبنان والاردن فى الفترة ما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٠ وصدرها بمقدمة وضعها فى صدر باقى حولياته ، وكأنه يريد بذلك أن يركز على الغرض من هذه الحوليات ، والتذكير بذلك دوما .

أما أهم هذه الأغراض التى توخاها ساطع من حولياته الثقافية فهى كما استطعنا أن نلخصها على النحو التالى :

١ ـ اراد ساطع ان يبرر سبب تناوله للاحوال الثقافية فى البلاد العربية فى عدد من السنين فى كتاب يصدر باسم الحولية ـ مع أن المعروف انها (الحولية) تؤلف من حيث الأساس لاستعراض الاحداث فى عام واحد ، أو حول معين ومن أجل هذا تسمى بالحولية ـ فقال ان فهم الأحوال فى عام معين يتوقف على معرفة ما سبقه فى أعوام ، ومن ثم فان مؤلفى الحوليات يضطرون الى أفتتاح مباحثها بمعلومات عامة عن الأحوال الراهنة ، والعوامل التى أثرت فى تلك الأحوال .

ثم هو يوضح مدى ما واجهه من صعوبات فى عمله ، ذلك ان الكتب التى تصف الاحوال الراهنة فى ميادين الثقافة تكاد تكون مفقودة لا بالنسبة الى البلاد العربية بمجموعها فحسب ، بل بالنسبة الى كل قطر من الأقطار العربية بمفرده أيضا ، حتى أصبح من يود الحصول على فكرة واضحة حتى ولو كانت اجمالية عن الأوضاع الثقافية فى أى قطر من الأقطار العربية يضطر الى مراجعة عدد كبير من الكتب والمطبوعات بعضهـا موجود متوافر وبعضها غير موجود ولا متوافر .

٢ ـ هناك غرض أهم من سابقه وهو ان الثقافة العربية لم

تكن من الثقافات المنطوية على نفسها ، بل انهـا من الثقافات الواسعة من الوجهتين المادية والمعنوية ، فلقد لعبت دورا هاما فى تاريخ الحضارة العالمية ، واللغة العربية كانت فى حقبة من الزمن لغة العلم فى كل انحاء العـالم المتمدين ، وهى لا تزال لغة الدين فى عالم فسـيح الأجاء ، والتاريخ العربى يمثـل لذلك عهدا من أهم العهود فى التاريخ العام ، ولهذه الأسباب كلها يرى ساطع أن الشئون العربية تسترعى اهتمام الكثير من الباحثين فى عدد غير قليل من معاهد البحث والتعليم في كثير من البلاد الغربية لغايات علمية تارة وسياسية تارة أخرى ، لذلك كان من الواجب أن تكون هناك هذه الحوليات التى تمثل مصادر للبحث للكثيرين من أبناء الأمة العربية وغيرهم ، فضلا عن أن الكثير من المصـادر التي اعتمدت عليها هذه الحوليات بعضها ضـاع وانقرض وأهمل حفظه ، ومن ثم كانت هذه الحوليات وثائق هامة ليس هناك شيء يقلل من شأنها .

أما المنهج الذى اتبعه سـاطع فى هذه الحوليـات فكانت الدراسة الموضوعية والوصف الحيادى كما قال .. « هذا ولا بد لى من التصريح اننى وصفت الأحوال الراهنة وصفا حياديا ذلك لاعتقادى أن للنقد مجالات أخرى غير صحائف هذه الحوليات التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية .. واذا صادف القراء فى بعض مواضع هذه الحولية ما يشبه نقد هذه الأوضاع أو الدفاع عنها فأرجو ان يلاحظوا فى الوقت نفسه ان تلك الكلمات منقولة عن الوثائق الرسمية بغية اظهار النزعات والاتجاهات التى تحوم حول تلك الأوضاع ، وهى لا تعبر قط عن رأيى الشـخصى فى الأمر ، فلا تخرج لذلك عن نطاق الخطـة الأساسية التى ذكرتها آنفا خطة وصف الاحوال الراهنة . وعلى كل حال استطيع أن أؤكد اننى لم أبد رأيا شخصيا الا فى وضـع

واحد من الحولية ، وهذا الموضـــع هو قائمة النظريات التاريخية التى تتقدم على المقارنات العامة وقد قلت هناك ما يلى : يظهر من هذه النظريات السريعة التى القيناها على تاريخ المعارف فى مختلف الاقطار العربية أن الفروق التى تشاهد بين هذه الاقطار من حيث نظم التعليم واتجاهات الثقافة لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية . وحاجاتها الحقيقيه ، انما كانت من نتاج السياسات الأجنبية التى سـيطرت على مقدراتهـا عن طريق الانتداب أو الاحتلال » .

واذا كان سـاطع قد التزم لنفسـه منهجا هو عدم نقد الاوضاع القائمة أو المؤسسات المشرفة على شئون التعليم والثقافة عند كتابته لهذه الحوليات ، فان رأيه الشـخصى كان يبرز فى بعض المواضع من هذه الحوليات ، مثال ذلك ماكتبه فى الحولية السادسة عند حديثه عن العلاقات الثقافية بين الدول العربية والدول الأجنبية ، فهو يتحدث عن اليونسكو وعن المشروع الذى كان قد تقدم به مديرها السابق لانشاء مركز اقليمى للثافة فى الشرق الأوسط يتبع ذلك بقوله (ولم يدرك مدير اليونسـكو) أن الثقافة لاتتبع الجغرافيا الطبيعية فضلا من ان مفهوم الشرق الأوسط وليد اعتبارات سياسية أكثر مما هو نتيجـة ملاحظـات جغرافية) ولايذكر ساطع أنه هو الذى هاجم هذا المشروع فيقول انه عندما عارضته بعض الجهات تعدلت الفكرة واتجهت الى انشاء مركزين اقليمين يختصان بالعالم العربى وحده :

١ ــ مركز أقليمى للتربية الاساسية فى العالم العربى .

٢ ــ مركز أقليمى لتدريب كبار موظفى التربية فى الدول العربية .

وخصص ساطع حوليته الأولى لدراسة خمس دول من

الدول العربية المستقلة لكنه في الحوليات التى تلت ذلك تناول الدول العربية المستقله وغيرها من الدول التى كانت لاتزال خاضعة للاحتلال الى جانب الامارات والشيخات العربية ٠

ففى الحولية الثانية أضاف الى أبحاثه المملكة العربية السعودية ، وكذلك الأقطار العربية التى كانت خارج الجامعة العربية وهى بلاد المغرب العربى . كذلك درس ساطع فى هذه الحولية الاوضاع التعليمية والثقافية فى ليبيا والامارات العربية بجانبها امارة الكويت والبحرين .

أما فى حوليته الثالثة فقد تناول فى كتابها الأول الأقطار العربية المستقلة ، ثم تناول بالدراسة الاقطار العربية المحرومة من الاستقلال والباقية خارج جامعة الدول العربية ، وخصص الكتاب الثالث للنشاط الثقافي فى جامعة الدول العربية ٠

رأى ساطع أن أبحاث الثقافة العربية يجب أن تشمل الأمور التالية :

١ ـ المعاهد العلمية والمؤسسات الثقافية القائمة فى بلاد الدول العربية المتنقلة والحركات الثقافية التى تتجلى فيها ٠

٢ ـ الأوضاع لثقافية من علمية وتعليمية فى البلاد المختلفة ٠

٣ ـ الدراسات والتدريبات التى تقوم بها معاهد البحث والتعليم في البلاد الغربية والشرقية عن كل ما يتصل بالعرب والعروبة .

لكنه يرى ان استيفاء هذه الأبحاث كلها فى كتاب واحد مع ما تستلزمه من مقدمات من الأمور المتعسرة جدا ، لذلك رأى أن يوزعها على حولتين أو ثلاثة ، وأن يقصر أبحاث الحولية الأولى على الأوضاع الثقافية القائمة فى البلاد العربية المستقلة وحدها ٠٠

كانت تلك خطته التى اوضحها فى مقدمة حولتيه الأولى التى جاءت فى حوالى ٦٢٣ صحيفة .

ثم رأى أن يتوسع فى حولتيه الثانية بعض التوسع فى وصف الشئون الثقافية بمعناها العام . لكنه يعتذر للقارىء انه لم يجد من المتسع الضرورى ما يسمح له باستيفاء هذه الأبحاث لكثرة المباحث المتعلقة بنظم التعليم ومناهجه .. ورأى أنه بقى لاتمام الخطة التى ذكرها والتزم بها أمام القارىء العربى والتى أوضحها فى مقدمة حوليته الأولى مهمتان أساسيتان :

١ ـ التوسع فى أبحاث المؤسسات الثقافية والحركات الثقافية .

٢ ـ استعراض كل مايتصل بالثقافة العربية فى خارج البلاد العربية ولا سيما فى المهاجر التى تضم جاليات عربية كبيرة .

ووعد ساطع القارىء بأن يقوم بهذه المهام فى حوليته القادمة (الثالثة) .

فاذا ما كتب حوليته الثالثة التى صدرت له سنة ١٩٥٣ والتى كتب مقدمتها فى برمانا بتاريخ ١٩٥٢/١٠/٣ يعتذر للقارىء أنه لم يف بما وعد بسبب أن الابحاث والوثائق التى تجمعت لديه عند كتابة هذه الحولية كانت كثيرة ومتنوعة ، ومن ثم فقد رأى من الاوفق تأجيل قسم من تلك الأبحاث الى الحولية الرابعة.

ثم اراد ساطع أن تكون الحولية الرابعة هى آخر الحوليات التى يصدرها وخاتمتها فهو يقول فى قائمة هذه الحولية : « هذه الحولية الرابعة هى خاتمة حوليات الثقافة العربية التى أخذت على عاتقى مهمة متابعتها قبل نحو خمسة أعوام . انها تتمم الحوليات الثلاث السابقة ، وتؤلف معها شبه موسوعة تضم

مجموعة من المعلومات والوثائق الأساسية عن أوضاع التعليم واتجاهات الثقافة فى مختلف أقطار العام العربى فى أواسط القرن العشرين . هذه المعلومات مسرودة على وجه الاجمال حتى السنة الدراسية ٤٧ ، ٤٨ وعلى التفصيل منذ السنة المذكورة حتى السنة الدراسية ٥٢ ــ ١٩٥٣ .

ثم يتواضع ولا يحب المفاخرة فيقول : « انى لا أدعى الكمال فى هذه الحوليات ، بل بعكس ذلك اعرف وأعترف بأنها فى حاجة الى المزيد من المعلومات فى كثير من فصولها ، ومع هذا أقول ان هذا ما استطعت أن اجمعه بعد بذل جهود عظيمة ومتواصلة ..

« فقد نشرت هذه الحوليات على الرغم من النواقص التى اشرت اليها اعتقادا منى بأنها ستفيد الباحثين وستوفر عليهم كثيرا من المشاق وتركت الى غيرى من الأفراد والهيئات مهمة العمل على اتمام نواقصها من ناحية ، وعلى اصدار أمثالها من ناحية أخرى .

« انى التزمت فى هذه الحوليات الخطة التى صرحت بها فى مقدمة الحولية الأولى . انى وصفت الاحوال الراهنة وصفا علميا حياديا دون ان اسمح لنفسى بابداء رأيي الشخصى فيها لا استحسانا ولا استهجانا ؛ ذلك لاعتقادى بان للنقد ميادين ومناسبات أخرى غير صحائف هذه الحولية التى تصدر باسم الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، والتى يترتب عليها أن تصف الاحوال الثقافية كما توصف خصائص الأرض والمناخ فى كتب الجغرافيا الطبيعية .

« واذا صادف القراء فى بعض المواضع من هذه الحولية ما يشبه نقد الأوضاع أو الدفاع عنها ، فأرجو ان يلاحظوا فى الوقت نفسه ان تلك الكلمات منقولة عن الوثائق الرسمية بغية

اظهار النزعات والاتجاهات التى تحوم حول تلك الأوضاع ، وهى لا تعبر عن رأيى الشخصى في الأمر ، فلا تخرج لذلك عن نطاق الخطة الأساسية التى ذكرتها آنفا خطة وصف الأحوال الراهنة كما هى وصفا علميا » .

وشعر ساطع ان انتهاءه من هذه الحولية وتوقفه عندها سيعطيه الفرصة لينقد ما لم يستطيع ان ينقده وهو يكتب هذه الحوليات فنجده يقول :

« غير أنى فى هذه اللحظة التى أتحرر فيها من أعباء تأليف هذه الحوليات أشعر أنه يترتب على واجب آخر ، وهو نقد هذه الأوضاع ، وابداء رأيى الشخصى فيها ، مع اقتراح التدابير الكفيلة باصلاحها . انى أشعر بهذا الواجب وأتمنى بكل جوانحى أن أجد فى المستقبل متسعا من الوقت بين أشغالى الثقافية الأخرى الى تادية هذا الواجب » .

ونهج ساطع في هذه الحولية الرابعة النهج الذى سار عليه فى سابقاتها فهو يقسمها الى كتب ثلاثة : الكتاب الأول لدراسة الأقطار الداخلة فى نطاق جامعة الدول العربية ويسير فى ترتيبه لهذه الأطار على الترتيب الهجائى لأول حرف فيها فيما عدا فلسطين فهو يضعها فى أول هذه الأقطار ، وكأنه لحرصه على تأكيد بقاء فلسطين برغم احتلال الصهيونيه لأجزاء منها ، ورغبة منه فى أن ينقل هذا التأكيد للقارىء قد استثناها من ذلك الترتيب . ويلخص ما سبق ان كتبه عن فلسطين تحت عنوان نظرات عامة .

ان المعلومات الأساسية المتعلقة بتاريخ التعليم وأنظمة المعارف وأوضاع المدارس فى فلسطين فى كل من عهد الحكم العثمانى وعهد الانتداب البريطانى ، ومنذ بدء الطغيان الصهيونى

مسطورة فى الحولية الثانية (ص ٣ ــ ٦٣) والمعلومات الاحصائية المتعلقة بتعليم ابناء اللاجئين فى كل من الأردن وسورية ولبنان وقطاع غزه حتى سنة ١٩٥٢ .. مسطورة فى الحولية الثالثة (ص ٦١ ــ ٧٠) ، وندرك فيما يلي الاحصاءات المتعلقة بالسنة الدراسية ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ . ثم يتبع ذلك باحصاءات عن عدد اللاجئين ، عدد التلاميذ ابناء اللاجئين .

اما الكتاب الثانى من هذه الحولية فتناول فيه الاقطار العربية خارج الجامعة العربية ، وكانت فى الوقت الذى كتب فيه ساطع ذلك هى تونس ثم امارة البحرين وامارة الكويت .. وخصص الحصرى الكتاب الثالث للنشاط الثقافي العام ، ثم النشاط الثقافى العام المستقل عن جامعة الدول العربية ، ثم بحث عن الثقافة العربية خارج البلاد العربية بين الجاليات العربية ــ الثقافة العربية فى البلاد الاسلامية (ايران ــ تركيا ــ باكستان) ــ الثقافة العربية فى البلاد الغربية (فرنسا ، انجلترا ، ايطاليا ، اسبانيا ، البلجيك ، الولايات المتحدة الامريكية) .

أراد ساطع حين تناول هذه الأبحاث الأخيرة أن يكون عند وعده للقارىء فلقد سبق أن وعده فى حولياته السابقة (فى الثانية ثم الثالثة) ان يتناول بالدراسة الثقافة العربية فى خارج البلاد العربية ولا سيما فى المهاجر التى تضم جاليات عربية كبيرة ، كذلك سبق ان وعد بان يتناول بالدراسة ما تقوم به معاهد البحث فى البلاد الغربية والشرقية عن كل ما يتصل بالعرب والعروبة . ولكنه فى هذه الحولية تناول بالدراسة غير الموسعة ، وضع الثقافة العربية في بعض البلاد الغربية فقط .

ثم توقف ساطع ثلاث سنوات بعد صدور الحولية الرابعة . ثم نراه وقد عدل عما سبق أن قرره من توقفه النهائى عن اصدار

هذه الحوليات فاصـــدر الحولية الخامسة ، وقال فى خاتمتها انه وان كان قد سبق ان وعد القارىء بان تكون الحولية السابقة هى خاتمة الحوليات الا أنه عدل عن قراره ، وان كان قد أنقطع بالفعل بعد اتمام الحولية المذكورة عن متابعة تطورات التعليم والثقافة فى مختلف البلاد العربية المنتظمة والمستمرة « التى كنت افرضها على نفسى بغية تأليف الحوليات » .

« ولكنى هذه السنة (١٩٥٦) عدلت عن القرار الذى كنت اعلنته عندئذ واقدمت على تأليف حولية خامسة (يلاحظ انه كتب الحولية الرابعة سنة ١٩٥٣) » .

ثم يوضح ساطع السـبب الذى من أجله عدل عن قراره ، وبدأ جمع المعلومات والوثائق المتعلقـة بالسـنوات الثلاث التى مضت على صدور الحولية الرابعة .

« أولا : انى تلقيت خلال السنوات المذكورة كثيرا من الاسئلة والخطابات التى تأسف لتوقف الحوليات وتتمنى الاســتمرار على اصدارها .

« ثانيا : لقد لاحظت انه خلال السنوات الثلاث المذكورة حدثت تغييرات كثيرة وكبيرة فى أوضاع التعليم ونظمه فى مختلف الأقطار العربية ، فكثرت الأوضاع الجديدة التى تحتاج الى جمع وتدوين لاتمام المعلومات المدرجة فى الحوليات السابقة .

« ثالثا : لقد تخلصت هذه السنة من أعباء ادارة معهد الدراسات العربية العالية (فلقد اســتقال من منصب مدير المعهد وذلك اعطانى مجالا لتخصيص قسم من أوقاتى لتأليف حولية خامسة لاتمام عملى السابق فى هذا المضمار .

« انى اقدمت على تأليف هذه الحولية لهذه الأسباب ، ولقـد

اتبعت فيها الخطة الأساسية التي كنت قد شرحتها في مقدمة الحولية الأولى : سرد الاوضاع والنظم كما هي دون نقدها بوجه من الوجود . ولا حاجة الى الى البيان ان ذلك لا يعنى انى لم أجد ما يستوجب النقد بل بعكس ذلك ان الاوضاع والنظم المذكورة اثارت في ذهنى كثيرا من الملاحظات والانتقادات ، الا أنى لم اسمح لنفسى بدرج شيء منها فى هذه الحولية ، لأنى اعتقد أن ذلك يجب أن يكون موضوع كتاب خاص ، أتمنى أن أجد الفرصة لنشره فى المستقبل ، لذلك تصدر هذه الحولية كسابقاتها متضمنة اتم المعلومات عن الاحوال الراهنة ومجردة عن النقد والتعليق » .

ومضى ساطع فى الحولية الخامسة على نهج سابقاتها من حيث تقسيمها الى كتب ، يتناول فى الأول الأقطار العربية الداخلية في نطاق جامعة الدول العربية ، ويتناول فى الثانى نفس ما تناوله فى الكتاب الثانى من حوليته السابقة وهكذا ... الى آخره ..

وطالت الفترة التى توقف عندها ساطع حتى وصلت الى سبع سنوات ثم عاد فى سنة ١٩٦٣ .. ليصدر الحولية السادسة ، وقال انها عن الاعوام الدراسية ٥٧ – ١٩٥٨ – ٥٨ – ٥٩ – ٦٠ ٦١ – ١٩٦٢ .

اتبع ساطع فى هذه الحولية منهجا مخالفا لما اتبعه فى الحوليات السابقة .

وتعد هذه الحولية السادسة أضخم حولياته من حيث الحجم والمادة فهى تقع فى ٩٥٦ صحيفة . وكتب فى مقدمتها مبررا الاسباب التى دعته الى ان يعدل قراره بالتوقف للمرة الثانية ..

«أما الاسباب التى دفعتنى الى ذلك فكانت عديدة .

منها طلب الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية والحاحها

فى الطلب ، ومنها تعدد الاسئلةوالطلبات التى تلقيتها من المهتمين بشئون التربيه والتعليم والتثقيف فى البلاد العربية من ناحية وفى البلاد الغربية من ناحية أخرى . ومنها ملاحظتى بأن السنوات التى مضت على صدور الحولية الخامسه كانت تفيض بالتطورات السياسية التى أثرت تأثيرا واضحا على أوضاع التربية والتعليم، والثقيف فى البلاد العربية وشعورى بأنه أصبح من الواجب على أن أقوم بتأليف هذه الحولية ما دام لم يقل ذلك احد الى الآن .

« لقد اتخذت قرارى التجديد وباشرت العمل فى تاليف هذه الحولية فى أواسط شهر تموز وأنا فى جنيف ولم أنته منه الا اليوم (٦٣/٣/١٨) وانا فى القاهرة .

« لابد لى من التصريح فى هذا المقام انى اتبعت فى هذه الاحوال والأوضاع كما هى وفقا للنصوص والتقارير والاحصاءات الحولية الخطة التى رسمتها وأعلنتها فى الحولية الأولى : السرد الرسمى دون أن ابدى رأيى الشخصى فيها .. لذلك أعيد طبع مقدمة السنة الأولى كما فعلت فى جميع الحوليات السابقة » .

بدأ ساطع دراسته فى هذه الحولية السادسة بنظرات ومقارنات عامة بين المؤسسات التى تتولى مهمة التربية والتعليم والثقافة فى البلاد العربية ، وكذلك لغة التعليم . وكأنه أراد بذلك ان يؤكد على الهدف الذى من أجله بدأ أول حولية ، وهو اظهار الفروق بغرض التقريب والعمل على ازالة هذه الفروق ما امكن بين الدول العربية .

ولم يقتصر فى بحثه على المدارس التابعة لوزارات التربية والتعليم فى البلاد العربية ، بل ادخل ضمها بعض المدارس والمعاهد التابعة الى وزارات أخرى طالما انها تقوم بمهام تعليمية باستثناء الكليات الحربية التى قال انها خارج نطاق أبحاثه .. ومع هذا ادخل فى نطاق ابحاثه بعض المهام التعليمية التى تتولاها وزارة الدفاع الوطنى فى الأردن لأن الوزارة المذكوره تدير على حد قوله

بعض المدارس العامة التى انشأتها في البيئات البدوية ، ولأن من بين هذه المدارس ما كان فى مستوى التعليم الابتدائى وما كان فى مستوى التعليم الاعـــدادى والثانوى وبعضـــها من نوع رياض الاطفال ، ولأن وزارة التربية والتعليم فى المملكة الاردنية تدخل هذه المدارس فى الاحصاءات العامة .

قارن ساطع بين البلاد العربية من حيث اختلاف الاسم الذى تطلقه هذه الدول على الوزارات القائمة بالتعليم بعضها تسميها وزارة التربية والتعليم والبعض الآخر يطلق عليها وزارة التربية الوطنية ، كما هو الحال فى الجمهورية اللبنانية والمملكة المغربية والجزائر ، وتسمى عند البعض الآخر بوزارة المعـــارف ، وعند البعض بكتابة الدولة للتربية القومية (الجمهورية التونسية) ثم قارن بين النظم التعليمية فى هذه البلاد ولغة التعليم ثم تناول بالمقارنة التعليم المختلط (المدارس التى تتولى تعليم البنين والبنات معا وهى تعرف فى بعض البلاد العربية بالتعليم المختلط وفى بعضها الآخر بالتعليم المشترك) واوضح اختلاف موقف الحـــكومات العربية من مبدأ الاختلاط وجاء باحصاءات عن عدد الطالبات فى الجامعات العربية .

ثم اتبع ذلك بنظرات احصائية عن العام الدراسى ٦١ — ١٩٦٢ (المدارس — الجامعات — التعليم الفنى — البلاد العربية) .

وتناول بعد هذه الاحصاءات العلاقات الثقافية بين الدول العربية والدول الأجنبية (المكتب الدولى للتربية — اليونسكو)

كما درس ساطع فى هذه الحولية العلاقات الثقافية بين الدول العربية ، ثم اتبع ذلك بتناول الدول العربية مرتبة حسب حروفها الهجائية ، ويلاحظ انه لم يضع فى مقدمتها هذه المرة فلسطين وانما وضعها فى وضعها الصـــحيح من حيث ترتيب أول حروفها هجائيا . وبعدها تنـــاول البـــلاد العربية المحرومة من الاستقلال .

ومما يجدر ذكره انه اشار عند حديثه عن الدول العربية المستقلة ولأول مرة الى الجمهورية العربية اليمنية ، ولكن اشارته اليها جاءت عامة عابرة فى صحيفة واحـدة ولم يأت فيها بأى احصاءات عن المدارس أو غيرها بعد الثورة اليمنية واعتمد فى الاحصاء الذى جاء به على المدارس فى عهد ما قبل الثورة على نشرة للامم المتحدة .. واوضح أنه طلب من المملكة المتوكلية اليمنية مرارا ان تمده بالمعلومات كما طلبت الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية منها البيانات فلم تستجب هذه الحكومة اليمنية .

وسعد ساطع بقيام الثورة اليمنية ، وكان يأمل أن يستطيع فيما بعد الحصول منها على بيانات عن التعليم فى الجمهورية اليمنية .

ولا نجد ساطعا يتناول فى هذه الحولية النشـــاط الثقافى فى غير البلاد العربية أو الثقافة العربية فى البلاد غير العربية ، وانما اقتصر بحثه على النشاط الثقافى العام فى جامعة الدول العربية .

وكانت هذه آخر الحوليات التى أصدرها ســاطع الحصرى ، وأما نقد الأوضـــاع القـــائمة فى البـــلاد العربية من الناحيتين الثقافية والتعليمية ونقد نشـــاط جامعة الدول العربية فى المجال الثقافى فقد بدأه ساطع فصدر له كتابه « ثقافتنا فى جامعة الدول العربية » الذى انتقد فيه الكثير من اعمال الادارة الثقافية ، ومعهد الدراسات العربية العالية ، على النحو الذى سبق أن أشرنا اليه.

ولم يستهدف ساطع من نقده عملية الهدم فحسب أو التجريح والتشهير وانما جاء نقده نقدا موضوعيا يستهدف الاشارة الى مواطن الداء بغية تشخيصه والمبادرة الى علاجه . كان نقد ساطع نقد الوطنى المخلص الغيور على أمور أمته ، الحريص على أن تتبوأ أرقى مكانة لها بين الامم .

خاتمة

أرى من الواجب على قبل أن أختم هذا البحث أن أضع أمام القارىء العربى بعض الحقائق وأن أعرض عليه بعض ما يعن لى من أفكار وآراء .

ان هذه الدراسة التي قدمتها عن ساطع الحصرى ليست سوى لمس لبعض جوانب هذه الشخصية ، ومن أصعب الامور على الانسان أن يتناول فى بحث واحد مهما بلغ حجمه شخصية كشخصية ساطع الحصرى ، هو اشبه ما يكون بالموسوعة العربية التى جمعت فحوت وتناولت شتى المواضيع وركزت على كل شيء .

درس ساطع علم الاجتماع وألف فيه ، وأفاض ودرس العلوم الطبيعية وكتب عنها الكثير ، وألف فيها عدة كتب كما درس العلوم الرياضية وبانت مقدرته الفائقة فيها .

أما التاريخ والجغرافيا والسياسة فله في كل من هذه العلوم باع طويل تشهد بذلك كتبه الكثيرة .. والى جانب هذا كله فله دراسته فى اللغات وآدابها والنقد الأدبى والأدباء واللهجات وغيرها من علوم اللغة .

لقد عاش ساطع الحصرى من أجل أمته العربية ، رآها فى

حاجة الى المخلصين من أبنائها والى أجيال تؤمن بها وتعمل من أجلها فكانت دراسته في علوم التربية وآراؤه في التعليم سليمة صائبة تشهد الأيام بأنه ليس هناك خير منها لأبناء أمتنا العربية ٠

لكن الشيء الذى ينبغى أن يظل يذكره كل عربى بالفضل لساطع ، هو أنه كان على رأس الرعيل الأول الذى دعا الى القومية العربية ، والى تجسيد هذه القومية فى وقت كانت شخصية الأمة العربية قد ذابت فى شخصيات أخرى .. واتجه أبناؤها اتجاهات شتى ٠ هناك من أعتنق فكرة الجامعة الاسلاميه وتحمس لها وآمن بها ، ودعا البعض الآخر الى تحبيذ فكرة الاقليمية وبرزت هذه الفكرة واضحة جلية فى فكر الكثير من الكتاب والمفكرين المصريين فى أوائل هذا القرن ، وفى العشرينات والثلاثينات منه .. لكن ساطعا وقف يحارب كل هذه التيارات ويجند قلمه وفكره من أجل ذلك ، أخذ يبث روح التفاؤل والثقة فى نفوس أبناء الأمة العربية فى وقت انتشر اليأس والقنوط فى النفوس بفعل عوامل عديدة لا مجال لذكرها هنا ، ولكن أهمها وأخطرها كانت جهود الاستعمار فى هذا السبيل ٠

وبدأت من هذه الناحية أبحاث القومية تحتل العديد من كتب ساطع وجاء فيها الكثير المكرر لكنه كان يقصد بالتكرار هدفا، ويرمى الى تحقيق غاية من ورائه ٠ كان يذكر ، وكان ينبه ، وكان يعيد على السامع ، لأن الكتاب العرب فى ذلك الحين كانوا قد انصرفوا عن هذه الناحية وأصبح القارىء العربى فى حاجة الى من يعيد اليه ويكرر عليه شيئا هجره الكتاب وخشوا مغبة تناوله حتى لا يتعرضوا لنقد أو تجريح ، أما هذا الشيء وأما تلك الفكرة فهى القومية العربية التى أخلص لها ساطع كل الاخلاص ٠

ـ وينبغى أن نشير الى حقيقة سبق لنا ذكرها ، وهى ان

ساطعا فيما كتب عن القومية لم يكن من أولئك الكتاب السياسين الذين يسخرون القلم لخدمة حزب بعينه أو سياسة معينة . فالمعروف ان ساطعا لم ينتم لحزب من الأحزاب ، ولم ينتسب لسياسة من السياسيات ، لكنه تبنى فكرة سامية وأعتنق رسالة عليا وهى القومية العربية .

ومات ساطع والأمة العربية أحوج ما تكون اليه ، وأشد ما تكون طلبا لأفكاره وآرائه . وأقامت الجمهورية العربية المتحدة حفل تأبين له دعا اليه الاتحاد الاشتراكى العربى فى الخامس عشر من فبراير عام ١٩٦٩ ، ودعا فيه الاستاذ الدكتور لبيب شقير الجامعة العربية الى تخصيص أسبوع فى الجامعات العربية لدراسة فكر ساطع ودعوة الذين عاصروه وعملوا معه ، وشاركوه فى كثير من مراحل حياته والى أن يكتبوا مذكراتهم وذكرياتهم قبل ان يطويها الزمن في طى النسيان .

وبدأت الهيئات العلمية والثقافية فى اقامة الندوات لدراسة فكر ساطع ، وكانت المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر رائدة فى هذه الناحية حيث عقدت ندوة لذلك فى الرابع والعشرين من مارس عام ١٩٦٩ .

وأرى ان ساطعا الحصرى يحتاج الى شىء أكثر من ذلك واعمق ، وهى ان تعتنق الأمة العربية آراءه وأفكاره وتعمل بها ، وتدعو اليها . عندئذ ترضى روحه وتهنأ ، وهذا ما قاله الاستاذ خلدون ساطع الحصرى عندما سئل عن افضل شىء تخلد به الأمة العربية ذكرى ساطع .

لقد أعطى ساطع الحصرى الأمة العربية كل فكره وجند من اجلها قلمه ووهب لها حياته وتعرض فى سبيلها للكثير من التشريد

والحرمان . وتمضى الأيام لتثبت أن الأمة العربية ليست فى حاجة الى شيء مثل حاجتها لفكر ساطع ولآرائه ومبادئه .

وأرى انه قد آن الأوان لأن تخصص لمادة القوميـــة العربية أحد الكراسى فى كل كلية من كليات الجامعات العربية وان كنت أقترح ان يطلق على هذا الكرسى اسم ساطع الحصرى . كذلك فانى أرجو أن تطلق الجامعات العربية اسمه على أحد مدرجاتها . هذا بالاضافة الى أنه ينبغى ان تقف المجالس المحلية فى البـلاد العربية منه موقفها من كل الشـــخصيات العربية الكبرى فتطلق اسمه على أحد شوارع المدن العربية الهامة .

أما وزارات التربية والتعليم فى البلاد العربية فعليها دين ينبغى أن تفى به له ، لقد عمل ساطع فى مجال التربية والتعليم الجزء الأكبر من حياته ، وخرج بالكثير من الآراء فى هذا المجال ، لذلك ينبغى أن تتناوله الكتب المدرسية بالدراســة في المراحل المختلفة من مراحل التعليم .

كذلك أنى على يقين أن الجامعة العربية هى الأخرى لن تبخل فى عمل الشيء الكثير من أجل ساطع الحصرى التى عمل فيها ، وتبنى الكثير من مشروعاتها ، وعلى رأسها معهد الدراسات العربيةالعالية .

كذلك يأمل المخلصون من أبناء هذه الأمة العربية من القائمين على شئون معهد الدراسات العربية العالية الشيء الكثير فى هذه الناحية واذا كان لا يحضرنى شيء محدد فى هذه الناحية فانني أومن ان ادارة المعهد تفكر فى هذه الناحية ، وانها بسبيل اتخاذ الشيء الكثير فى هذا المجال .

رحم الله ســـاطع الحصرى واجزل له الثواب بقدر ما أدى لأمته وأخلص لها وعمل من أجلها ، لقد ترك من ورائه ذكرى

عطرة ونموذجا ومثلا لكل من يريد أن يكون جنديا من جنود هذه الأمة العربية المحبين لها ، والمتحمسين لكل ما فيه نفع لها .

لقد أرضى ربه وأرضى أمته بجهده الخالص وبنضاله المستمر المتواصل حتى آخر نفس فى حياته الدنيا .

ونحن من ورائه على الدرب نسـير ، وبهدى من فكره نهتدى ، لنحقق مالم يشأ الله لسـاطع ان يشهد تحقيقه وهي الوحدة العربية الشاملة ، والله معنا على الطريق مؤيدا وناصرا.

وصدقه الله العظيم اذ يقول :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسـوله والمؤمنون »

فهـــرس